

الزينة و التزيّن
نادية الغزّي
عرائس التراث
دار الفكر
آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

THE BRIDES OF HERITAGE

‘Arā’is al-Turāth

Nādyah al-Ghazzī

مُزيّن هو كتابنا، شرّفته زينة الكعبة المُشرّفة
وجمّلته زخارف أمويّ دمشق وزينة المحامل الذاهبة عبر الصحراء.
أنختتم الحديث؟ وهذا الحديث لا يُختَم!
ونختصر الكلام.. وهذا الكلام لن يُختصر!

هو كتابٌ، فيه حِنّاءٌ.. وصَبْغٌ مُعَصْفَرٌ.. وزيوتٌ قدّستها الحضارات.
هو كتاب العمائم الشرقية.. والخُمُر النسائية المُعمّرة منذ آلاف السنين
المعشعشة في التراث مع القادمين والذاهبين.

هو كتاب "أختام" الحضارات القديمة.. وتحوّلها إلى "الخواتم".. خواتم
الأنبياء والنبلاء والحكّام والسلاطين.

إنها: عرائس التراث.. المتمثلة في القباب الزرقاء التي تمتدّ في أصقاع
"آسية"، تتغندر بها الصحارى والفيافي والمدن الأثرية حتى "ما وراء
النهر"
وفي الكتاب ذكر لأكاليل المجد والغار.. والتيجان. "وإكليل الشوك"
وعصا الرعيان والأنبياء.
ثم.. مراوح.. ومظلّات.. وصولجانات.. وأرياش طواويس آسيوية.

فالكتاب هذا.. هو كتاب الخواتم والعمائم والخُمُر.. وكتاب في الزينة والتزيين

أنختصر الكلام؟ وهذا الكلام لا يُختصَر!
ونختتم الحديث؟ وهذا الحديث لن يُختتَم.

ISBN 995351141-1



بسم الله الرحمن الرحيم

عرائس التراث

نادية الغزي

عرائس التراث



التنفيذ الطباعي والتوزيع دار الفكر دمشق
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

عرائس التراث

تأليف: نادية الغزي

الرقم الاصطلاحي: ٠٣٦٧,٠١١ ت
الرقم الدولي: ISBN: 978-9953-511-41-2
الرقم الموضوعي: ٣٩٠
٣٦٠ ص، ١٧ × ٢٥ سم
الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الإهداء

إلى كلّ قارئ

يتفهّم قوة الارتباط بين

الماضي والحاضر والمستقبل



شكر

مع الجزيل لكلّ مَنْ ساهم في إعداد هذا الكتاب

وأخصّ بشكري

- *استوديو فيصل للتصوير*
- *استوديو الكواكبي للتصوير*
- *الأستاذ **أديب الصيداوي*** صاحب مطبعة "ألف باء الأديب" لسماحه بالشرح المفصّل عن بعض اللُقى الموجودة لديه
- *السيد **سليمان طعمة*** الذي أعطاني بعضاً من معلومات ألبسة حوران التراثية
- *السيد **خالد السروجي*** في "دار الفكر" الذي صبر عليّ أثناء إعداد هذا الكتاب طباعياً . . وأثناء إخراجه

الإشراق
في الزينة والتزّين



ذكر الزينة في القرآن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٥/ ١٩]

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٤١/ ١٢]

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٦٧/ ٥]

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ١٦]

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٧]

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦]

﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦]، [الملك ٦٧/ ٥]، [فصلت ٤١/ ٢١].

﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ١٦]

﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر: ١٥/ ٣٩]

﴿وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤]

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٠]

﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٣٧/٦]

﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ١٦/٨]

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٢٨/٧٩]

﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/٣١]

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٢٤/٣١]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ [يونس: ١٠/٢٤]

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٠]

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٢٤/٦٠]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾ [يونس: ١٠/٨٨]

تَحَيَّرْتُ..

فما أدري أفأرةُ مسكٍ فُتِقّتْ

أم شمامةُ كافورٍ نُفِحَتْ

أم لطيمةٌ فُضَّ خِتامُها

اليوسفي

المقدمة

قبل اكتشاف أدوات التجميل الحديثة كانت الأعشاب والأزهار والزيوت والفواكه والنباتات تُستخدم للتجميل.. ولعلها ما زالت تستخدم إلى اليوم.

وكانت العطور تفوح من قناطر البيوت، والقوافل تمضي نحو أهدافها، والسفن تروح وتجيء.. وكل طيب وعطر وورد وزيت مُسَخّر للجمال، وكل بخور رائج مع العبق.

العطر مختلط بالسِّر.. والسرُّ مختلط بالجمال وبالزِيَن.. والزينة مخلوطة بالحِلّي.. وكل شعاع موصول بشعاع آخر يعانقه.

والحبر.. كالقدر.. يدوّن المكتوب، لكنّه قد يدوّن الخيال أو المفقود.. أو المحال..

لكنّه الآن يدوّن تراث (الجمال والتجمّل)، (الزينة والتزّين).

٥ - ٥ - ٢٠٠٦



الزينة والتزيّن

يقولون للجميل: «زَيْنٌ»

والجميلة اسمها «زَيْنَة»

والعالمُ الشرقيُّ يتزّين

ما تـزاليـنَ.. نـظرة مـنكِ موتٌ   لـي أكـيـدٌ، ونـظـرةٌ تـخـلـيـدُ

ابن الرومي

۞ ۞ ۞

تُضيءُ الظلام بالعشاء كأنّها

منارةُ[١] مُمْسَى راهبٍ مُتبتّلِ

هصِرتُ بِفَوْدَيْ رأسِها فتمايلتْ

عليَّ هضيمَ الكشحِ[٢] ريَّا المخلخلِ

مهفهفة بيضاء.. غيرُ مُفَاضَةٍ

ترائِبُها[٣] مصقولةٌ كالسَجَنْجَلِ[٤]

امرؤ القيس

❀ ❀ ❀

قُلْ انطوى سِفْر الشباب واغتدى

ربيعُ أفراحي شتاءً مُجْدِبا

لَهَفي لطيرٍ كان يُدعى بالصبا

متى أتى؟ وأيُّ وقتٍ ذَهَبا

من رباعيات الخيّام

❀ ❀ ❀

(١) السراج
(٢) خفيفة اللحم
(٣) الترائب موضع القلادة من الصدر
(٤) المرآة



المخطوطات القرآنية الأولى للمصاحف المذهّبة والمزيّنة

انتشر الذهب في العهود الإسلامية المتقدّمة.. وكان أولّ اتجاه تزييني إسلامي.. نحو المصاحف الشريفة، حيث زُينت بماء الذهب.. أو كُتبت الآيات والسور بماء الذهب.

❁ ❁ ❁

ولقد كانت المصاحف الأولى ذات قطع أفقي.. مكتوبة على (الرق) وهو مصنوع من جلد الحيوان.. ولعلّ المصاحف الأولى كانت قد خُطَّت على (اللِّحاء النباتيّ).

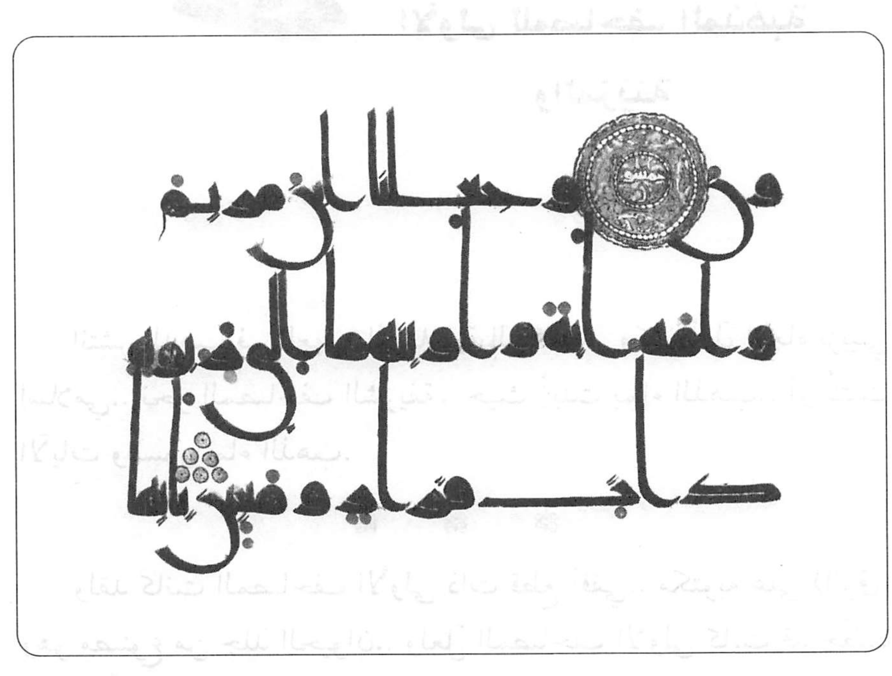
❁ ❁ ❁

أمّا المصحف الأول فقد جمعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وفي عهد عثمان نُسخ إلى ست مصاحف وُزعت على الأمصار..

ثم انتشرت المصاحف وعَمّت البلاد الإسلامية جميعها، وحين انتشر الذهب مع انتشار الفتوحات الكبرى.. زُينت المصاحف وخُطَّت بأنواع الخطوط وأبرعها..

❁ ❁ ❁



وكما قلنا كانت سُوَرُ المصاحف وآياتها تُخط على (الرق) وأشهر الرق هو المصنوع من جلد الغزال.. وغالباً ما كانت تُصنع وتكتب في القيروان[١].

■ زينة المصاحف

كانت تكتب بالحبر الصيني الأسود، ومن المصاحف النادرة ما خُطّ بماء الذهب وفي تلك المصاحف.. كان الخَطُّ الكوفي يغلب في تخطيطها، وبعامة كانت عناوين السور تكتب بماء الذهب.

أمّا العلامات فيستعمل فيها اللون الأسود والأحمر أو الأخضر... أو الذهبي أو البُني.. ولقد كانت الرقاق الورقية تُزين بالزهيرات الذهبية، تربطها جذوع وأوراق نباتية يغلب أن تكون نخيلاً..

وكثيراً ما تمتد هوامش الصفحات التي زخرفت بدقة إلى داخل الكلمات، وقد تُزَخْرفُ الحروف وجلود المصاحف التي تكون مصنوعة من الجلد الفاخر الذي يشكل حافظة ووقاء للمصحف الكريم.. هذه الجلود.. تكون في بعض المصاحف مزخرفة ومنقوشاً عليها في أثناء الصناعة والتجليد[٢].

---

(١) الفن الإسلامي ورعايته، كنوز الكويت.
(٢) المصدر نفسه.

زينة الكعبة المُشرّفة

ترتفع الكعبة المشرفة أربعة عشر متراً.. ويرتفع بابها عن الأرض مترين وخمسة وعشرين سنتمتر... أما الحجر الأسود فهو موضوع على ارتفاع متر وعشرة سنتمترات[1]. وتغيّر كسوة الكعبة المشرفة كل عام يوم وقفة عرفات.

والكسوة سوداء اللون تصنع من أجود أنواع الحرير، حيث تحاك خيوطه بما يشكل رداءً فريداً من نوعه. ويكون هذا الرداء مطرزاً ومزيناً بخيوط الذهب..

وقد درجت العادة منذ إعادة وزيادة بناء الكعبة في عهد السلطان سليمان القانوني ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م، وقد كان قبل هذه الزيادة زيادات متعددة.. أن يُصنع رداء الكعبة المشرّفة في البلاد المصرية.. وتشترك دمشق وبلاد الشام في بعض الزينة.. وبعد الانتهاء من إعداد الكسوة الشريفة يبدأ توجّه موسم الحجّ من البلاد المصرية والشامية.. ويتقدم (المحمل) في رحلته الشاقّة نحو الكعبة يحمل الكسوة.. المخفورة بوساطة أمير الحج.. يتبع ذلك وفود الحجّاج..

وكانت رحلة الحج الشامية تستغرق ثلاثة أشهر، أو أربعة، ومثلها المصرية. وبعد نزع الكسوة القديمة بوساطة طيّها بالحبال.. تكسى الكعبة

---

(١) من أجل المقاييس انظر أطلس السيرة النبوية للدكتور شوقي أبو خليل .

المشرّفة بزينتها الجديدة بالذهب، والمصنوعة من الحرير، مستعدة لاستقبال ملايين الحجّاج القادمين[١]..

ومن الأخبار: كان في «البيت» قرنا كبش معلّقان تلقاء مدخله.. وكانا يُعطّران ويُطيبان إذا طُيِّب البيت، وقد عُلِّق عليهما معاليق من حلي كانت تهدى إلى الكعبة. ويرمز القرنان إلى قرني الكبش الذي ذبحه إبراهيم عليه السلام فدية لإسماعيل، وقد بقيا في الكعبة لأيام (عبد الله بن الزبير) فاحترقا مع الكعبة[٢].

■ غزالا زمزم الذهبيّان

ذكر د. طه حسين في كتابه (على هامش السيرة) أنّه كان على بئر زمزم غزالان من الذهب، ردما في البئر عندما ردمتها جَرْهم.. وعندما بدأ الماء يتدفق من جديد في عهد عبد المطلب بعد أن أعاد فتح البئر فوجد الغزالين[٣].

وكان للكعبة باب ملتصق بالأرض، ثم صنع عبد المطلب لها باباً من الحديد، وحلّاها بالذهب من ذهب الغزالين، وهو أوّل ذهب حُلّيت به الكعبة.

وقد ذكر أن نفراً من قريش في الجاهلية.. سرقوا كنز الكعبة، وإنما يكون في بئر في جوف الكعبة[٤].

وهذا القول يدل على وجود بئر داخل الكعبة. لكن الأخبار قد تضاربت في مكان وجوده[٥].

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، ٦/ ٤٣٥.
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، ٦/ ٤٣٥.
(٣) المصدر نفسه ٦/ ٤٣٣.
(٤) المصدر نفسه ٦/ ٤٣٣.
(٥) المصدر نفسه ٦/ ٤٣٣.

■ كنز الكعبة

زوقت الكعبة في الجاهلية بعد حريقها، وجعِل في دعائمها (صور الأنبياء) (وصور الشجر) (وصور الملائكة) فكان فيها صورة (إبراهيم خليل الرحمن) شيخ يستقسم بالأزلام. وصورة عيسى عليه السلام مع أمه مريم.

فلمّا كان يوم فتح مكة أرسل ﷺ الفضلَ بن العبّاس بن عبد المُطَّلب فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب فَبُلَّ بالماء، وأمر بطمس تلك الصور.. ووضع كفيّه على صورة عيسى بن مريم وأمّه عليهما السلام وقال: إلّا ما تحت يديّ ثم أمر بمحو صورة إبراهيم الخليل، لأنّهم كانوا قد رسموه يستقسم بالأزلام وقد بقيت صورة عيسى عليه السلام ومريم إلى أيّام عبد الله بن الزبير، فلما تهدّم «البيت» تهدّمت معه الصورة[١].



(١) المصدر نفسه ٦/ ٤٣٣



زينة موكب
الحجّ الشامي

عن: جريدة تشرين ١٦/٣/٢٠٠٦ رحلة الحج من حلب وَبَرّ الشام إلى بيت الله الحرام/فيصل خربش عن إيزابيل بورتون في وصفها لموكب الحج والمحمل الشريف المتوجّه من دمشق في القرن التاسع عشر.

تقول:

تخرجُ أولاً الصناديق المقفلة بإحكام والمربوطة بقماش الخام والمختومة بختم الوالي الخاص. مع قرع الطبول.. وخلفها ثلاثون فارساً مكلّفين بحراسة هذه الصناديق. ثم تأتي بعدها هدايا الحكومة العثمانية للمدينتين المقدّستين.. محروسة بالإنكشارية. ثم الجمال التي تحمل متاع أمير الحج مزيّنة بشرائط، وعليها أوسمة بشكل مرايا تتدلّى منها بخيوط معدنية.

ثم تلي محفّات السفر، وفي آخرها جملان تتدلّى على جانب كل منهما محارتان على شكل أسرّة الأطفال الهزّازة، أو على شكل سلال كبيرة تستخدم للسفر والنوم، مغطاة بمظلّات صغيرة، كل واحدة منها بشكل نجمة لونها أزرق. ويرتفع فوقها علم مثلث مثبت على رأس رمح.

تأتي بعدها عربة الوالي ثم الموكب الرئيسي للقافلة. ثم المدفعية الممثلة بمدفعين من النحاس على عربتين خضراوين. ثم يلي ذلك تختروان فارغ خاص بأمير الحج مزيّن بالذهب، يحمله بغلان مسرجان بسرجين أحمرين مزركشين.. يتهدّل على ظهرهما قماش أحمر مطرّز بجدائل وضفائر صفراء. يلي التختروان العلماء المحلّيون على صهوات الخيول بياقات ستراتهم الموشّاة بالذهب، وطرابيشهم الحمراء عليها لفّات من الشاش المختلف. أمّا معاطفهم فقرنفلية موشّاة بالتطريز. وفي مقدمتهم قاضي القضاة بعمامته البيضاء المخطوطة بشريط من الذهب، ثم رجال الدين بعمائمهم المختلفة الألوان والأحجام، والنوّاب بأزيائهم الرسمية.

ثم يتقدم (المحمل الشريف) مع رتلين من الحرس الخاص. مع قرع الطبول يتبعه مئة رجل من البدو الشجعان، يركبون الهجن التي تتدلّى منها شرّابات طويلة. ثم تقبل الجمال تحمل صناديق الحجّاج وبضائعهم. وتمرّ الشخصيات الرسمية على الجياد ذات السروج المذهبة.

أمّا (المحمل الشريف) فيكون مغطى بقماش مخملي أخضر كتب عليه بالقصب آيات من القرآن الكريم.. يحمله جمل مزيّن بأقمشة صغيرة ومرايا.

يرافق أمير الحج المحمَل من دمشق حتّى الديار المقدّسة.. ويُعدُّ شعاراً للسلطان العثماني، ورمزاً لسيادته على الحرمين الشريفين.



المحمل الشريف
كما ذكره (توماس رايت)

تشرين/ فيصل خربش

هو سرادق من الحرير الأسود منصوب على ظهر جمل ضخم للغاية تتدلّى شراشيبه من حوله حتّى تصل إلى الأرض وتزّين قمّته كرة ذهبية، تتدلّى منها شراشيب ذهبية. والجمل يكون مزّيناً بالمرايا والصدف، وفراء الثعالب، وأقمشة الزينة وهذا المحمل يرسل سنوياً لتغطية ضريح النبي محمد ﷺ في المدينة المنورة هدية من السلطان، ليحلّ مكان القديم الذي تحمله القافلة معها إلى دمشق. ثم يمرّ السنجق، وهو علم النبي ﷺ محمولاً على جمل. ويقال: إنه ستارة خيمة عائشة رضي الله عنها[١].

ملاحظة: من المعلومات التي استقيناها وأوردناها يتضح أن كساء الكعبة المشرفة كان يصنع في مصر، ويأتي مع حجيجها، وأن كساء قبر النبي ﷺ كان يأتي من دمشق مع موكب الحج الكبير.

أما اليوم: فيتولّى خادم الحرمين الشريفين صنع الكسوتين الشريفتين في بلاد الحجاز.. حيث تقوم المعامل السعودية بالتطريز والتهيئة.. ثم تقوم بتبديل الكسوتين يوم وقفة عرفات.. أمّا كسوة الكعبة القديمة.. فتُقَصّ وتوّزع إلى أصحاب الشأن تبرّكاً بها.



(١) المصدر المذكور نفسه.

الفارسات المنقّبات
في موسم الحج الخارج من دمشق

في أثناء خروج موكب الحج المتجمّع من سائر الأمم الإسلامية في آسية قاصداً مكة وقبلها المدينة المنورة.. كانت ترافق الموكب خيّالة من الرجال وبعض النساء اللواتي كُنَّ يرتدين الإزار، ويعلو وجه الواحدة منهن نقاب، وهنّ على صهوات جيادهن مفعمات بالنشاط والحيوية[١].

■ (يوم الزيت)

يبدأ الاحتفال بموسم الحج في اليوم الثاني من شوّال.. ويسمّى (يوم الزيت) إذ يجمع الزيت الذي سيحمل إلى مصابيح المسجد الحرام في إناء كبير، يشكل جزءاً من عتاد القافلة، في حي (البحصة) الممتد عن حي سوق ساروجه[٢].

■ (يوم الشمع)

ويسمّى اليوم الثالث من شوال يوم الشمع الذي يودّع في (الكيك رجية). أو مديرية الحج[٣].

---

(١) المصدر المذكور نفسه.
(٢) يا مال الشام، لسهام ترجمان، ١١٧.
(٣) المصدر نفسه.

■ (يوم السنجق)

هو اليوم الأكبر.. حيث ينقل المحمل من القلعة إلى بيت الحاكم، وهو اليوم الرابع من شوال[١].

■ (يوم المحمل)

هو اليوم الخامس من شوال - حيث يبدأ الموكب العظيم بالسير حتّى (العسّالة) ويتولى إمرة القافلة (أمير الحج)[٢].



(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.

زينة العودة من الحج

يحتفي أهل بلاد الشام، بل عموم المسلمين في المشرق والمغرب، بعودة الحجّاج.. وما زالوا يحتفلون إلى اليوم، وإن اختلفت إلى حدٍ ما.. أدوات زينة استقبال الحجيج.

كانت البيوت تُزيّن من أبوابها حتّى أقصى الحارات القديمة.. سواء في المدن أو الأرياف.. أمّا الزينة فكانت من سُعُف النخيل.. تُهيّأ فوق أقواس معقودة كالعرائش.. من الخشب.. ثم تُصف وتُرَصُّ رصّاً جميلاً متناظراً كأقواس النصر لتكوّن في مجملها تاجاً ضخماً من شجر أخضر دائم الخضرة له كثير من الرموز الروحية المقدّسة.. ومتى وصل الحاج.. عَلت مزامير البهجة.. ولوّح الناس بأغصان شجر «الكينا» العبقة الرائحة.. ثم هزوا سعف النخيل مع دقات الطبول المتواترة.. وبينما تكون الفوانيس تتراقص تحت سعف النخيل.. يكون الحجاج قد دخلوا بيوتهم بثيابهم البيضاء.. البيضاء كالقدر الصافي، دخلوا.. تحت خُضْرَةٍ.. من جنة الاطمئنان الخضراء.



زينة مدينة صور

النبي حزقيال يتغنّى بمجد - صور - وما فيها من الحِلّي وغير ذلك:

أيتها الساكنة عند مدخل البحر

تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة

أنت قلت أنا كاملة الجمال

تخومك في قلب البحور

بناؤوك أتمّوا جمالك

عملوا كل ألواحك من سرو (سنير) (جبل حرمون)

أخذوا أرزاً من لبنان يصنعونه لك سواري

صنعوا من بلّوط باشان (حوران) مجاديفك

صنعوا مقاعدك من عاج مطعّم بالبتس من جزائر كتيم (يُرَجّح أنها قبرص أو شواطئ غرب فلسطين)

كتّان مطرّز من مصر هو شراعك ليكون لك راية

الإسمانجوني[1] والأرجوان[2] من (جزائر أليشه[3]) كانا غطاءك

يستمر التّغني بزينة ومجد صور:

---

(١) الإسمانجوني: حجر كريم يشبه الياقوت أزرق ضارب إلى الحمرة.

(٢) الأرجوان: صبغ بنفسجي.

(٣) أليشه: جزء من قبرص كان يؤتى منه بالأرجوان (كما في صور).

(ترشيش)[١] تاجرتك (بالفضّة) (والحديد) (والقصدير) (والرصاص)

يستمر النشيد والتغنّي:

تاجروا بأسواقك (بالبهرمان)[٢]

ويستمر الغناء:

والأرجوان والأبنوس والمطرّز والمرجان والياقوت[٣].

زيّنوا القهوة المُرّة

البادية سمراء.. الكمأة سمراء.. والبُنَيَّة سمراء والقهوة المرّة في بادية بلاد الشام سمراء حتى السواد.. زيِّنوها.. ضعوها أيها المباركون بالتأمّل، في الركوة النحاسية المفروكة بالليمون الأصفر للتوهج في الليل وفي النهار.. اغلوها.. ونفذوا عليها أحكام طقوسكم البدوية. اجعلوها زينة.. اجعلوا الزينة فناً.



---

(١) وترشيش هي قرطاجنة في تونس أو هي ترتيسوس في إسبانية فيما بعد أو طرطوس.

(٢) والبهرمان حجر كريم لونه أحمر - ويقال: ياقوت بمصرمان ويقال هو الزمرّد.

(٣) ف. أ. بليافسكي، ترجمة توفيق فائق نصار، دار علاء الدين.



من زينة
الأعياد المسيحية في
(عيد الفصح المجيد)
بيض الفصح

عندما يدق الفصح أبواب البيوت معلناً قرب قدومه مع أيّام الربيع الرطبة.. المنداة بالورد تضيء حينئذ المشاعل.. ويبتهج قرميد البيوت.. وتكون الدجاجات قد أهدت بيضاً كثيراً. من أجل العيد سوف يُزيّن البيض، من أجل العيد يتزيّن، من أجل العيد سوف يُرسم لوحات بريشة نساء البلاد، ولسوف تنقش على قشرته البيضاء آلاف الأغاني.

في الأيام القديمة.. حين كان كلّ صبغٍ موهوباً من الطبيعة كان البيض يسلق بقشور البصل الحمراء أو يسلق مع السمّاق فيتلمّظ ليكون مستعداً ليصبح طعاماً متزيناً في عيد الفصح بعد الصوم الكبير.

فيما بعد.. تغيّرت زينة البيض.. وتغيرت ألوانه وكثرت نقوشه وتجليّاته ليبقى عملاً ساحراً وفنياً يُجرى في البيوت الساكنة التي تزيّن الطعامَ كي تحوّله إلى فن.. ولم لا؟ فليس البشر وحدهم يتزيّنون.

زينة السوق القديم

عرفت أسواق الشرق بزينتها المذهلة منذ مئات السنين، كما عرفت امرأة الشرق بزينتها وبهائها وألوانها وأساورها منذ مئات مئات السنين..

الأسواق ملوّنة.. الشرق مُلوّن.. سماء زرقاء.. وقمر.. نهار وشمس ونهر وغابة وبوادي.. ورد أحمر.. ورد أزهر.. عذوبة.. عذوبة.

الأسواق متنوعة البضائع، والشرق متنوّع الحضارات.. نفيس المعالم.

الشرق سِرّيٌّ، وأسواق الشرق مكنوزة بالأسرار..

والسوق القديمة يفوح بها العطر كالأيام القديمة، السوق فيه المآكل والجواهر، والشرق فيه مآكل.. وأطايب وجواهر.. وزينة..

فطرق الحرير تتصالب وتتعانق في كلّ مدينة وقصبة، والبساتين تُمطر صيفاً بالفاكهة التي أنضجها حَرّ حزيران وتموز..

السوق فساتق ولوز وزبيب وقضامة مع السُّكر.. والشرق بهارات ومكسّرات وخبايا.. ومؤن..

ادخلوا السوق الشرقيّ القديم في أي مكان شرقي ترغبون.. تناولوا الفاكهة المجففة وقد أزينت، واشتروا سجاجيد العجم المدلاة.. فالشرق مزيّن معطّر ومطرز بكلّ الخيوط.. مزيّن بكل الخلاخيل الغجرية، وغريب.. مكتوم.. كدوران صوفي في حلقات تصاعدية نحو الأعلى.. تزيّنوا.. فالأسواق الشرقية قد تزيّنت للقياكم.

زينة العروس
في القرن التاسع عشر في بلاد الشام

حين تكتمل زينة العروس بعد تزيينها من قبل «الماشطة» التي تكحّل العينين.. وتصبغ الشفتين بالأحمر القاني، وتزجج الحاجبين، وتنتف الشعر الزائد من مفرق الشعر إذا كانت العروس ضيّقة الجبين.. كما تزيل الوبر بين الأنف والشفة العليا.. ثم تزيّن الخدين بذرور الورد وتجعلهما كالقرصين الداكنين وتكون قبل ذلك قلد طلت وجه العروس بالمساحيق المبيّضة للوجه وأهمها (وأخطرها) مرهم السليماني، وتكون قبل البدء بتزيين الوجه قد باشرت باستعمال (العقيدة) وهي من السُكّر والماء المعقودان.. والسُكّر هذا مخصص لإزالة الشعر الزائد.. وكان يقال للمرأة الغزيرة الشعر (مشعرانيّة) وتكون الماشطة قد نقشت يديّ العروس [ليس في كلّ المناطق] بالحنّاء، بعد اكتمال الزينة ترتدي العروس ثوب عرسها.. ومنهن من كُنّ يضعنَ الزنانير لإبراز دقة الخصر.. وغالباً ما كانت الزنانير تزيّن بالورود الطبيعية أو الصناعية.. ثم تنتعل العروس «القبقاب الشبراوي» لتبدو أكثر طولاً.

■ منتصف القرن العشرين

جرت العادة أن تبدّل العروس سبعة أثواب إذا كانت وعريسها ميسوري الحال.. فمن الأبيض إلى الأسود.. إلى الأزرق إلى الزهري إلى السُّكّري إلى الأخضر ثم إلى الأحمر.. وفي الأسر الأقلّ يُسراً تكتفي العروس بثوبٍ أو بثلاثة وتكون الأثواب من أفخر الأقمشة تلتمع في الليل

لكثرة ما تعبت الحائكات والأمّهات (بِشَّكِ) (اللآلئ الصنعية) (والبراق) (والخرز) (والسَيْلان).

ويعلو الهتاف والتصفيق في كلّ مرة.. ولكلّ ثوب.. بينما يكون ظهر الآباء والأمهات قد انقصم لكثرة المصاريف وبخاصة عند «تنقيط العروس بالذهب».



الفُسَيفِساء MOSAIOUE

ذكر في لسان العرب المحيط التالي تعريفاً عن الفسيفساء:

في علم التربة: زمرة من التُرب تكون دائماً منضمة بعضها إلى بعض من دون أن يكون لهذا التجمع علاقة بالبنية الطبغرافية.

في علم البيئة: ترتيب تكون فيه الجماعات النباتية على شكل الفسيفساء خلافاً للترتيبات على مناطق.

في التصوير الجوي: وضع صور جويّة بعضها إلى جانب بعض لكي تتألف منها خريطة تصويرية.

تطلق على التزويق المعروف.. وهي صنع رسوم هندسية في بنيات تزينية مختلفة الألوان.

والمصدر: فَسَس.

❀ ❀ ❀

من الخطوط التي رسمناها تحت الكلمات يمكننا الاستنتاج أن الفسيفساء تعتمد بالدرجة الأولى على علم الهندسة.

الهندسة الشاذة إيجابياً عن المألوف بحيث تصل إلى الفن. هذا الفني يعتمد على (الصورة البصرية) التي تنتجها اليد الهندسية.

ومن المهم وجود تجمع بين مكونات طبيعية تشكّل طفرة جمالية أو مكونات أصلية ترابية تشكل طفرة أو تكون تجمعات لونية وهندسية بحيث تشكل اللوحة المعتمدة دائماً على التناظر الأساسي بين القطع.. أو التناغم وعدم التنافر المؤهلين لرسم اللوحة.

أمّا المصدر فَسَسَ.. فيعطينا فكرة عن الصِغَر بمعنى تجميع قطع دقيقة وصغيرة لتؤلف خريطة أو لوحة.

وهذا ما يفسّر لنا الكلمة المقطعة إلى ثلاثة فُسَيْ.. في.. ساء وقد ضُمّت الفاء في المقدمة لبيان التراكيب والإيلاج.. ثم يأتي حرفُ (ي) للجمع بين الفَسَسِ والفسَسَ... وقد مُدّت الكلمة في آخرها بالألف والهمزة لإبراز القيمة الجمالية.. ثم ألغيت ياء حرف الجر.. فتشكلت اللوحة الكلامية (فسيفساء) تفسيراً للتركيب الهندسي الجمالي.





من بدائع الفنّ التزييني

المبخرة الصينية

ما الذي حَمَلك.. أيتها الجميلة من بلادك البعيدة.. لتستقري في المدينة العتيقة المليئة بالطرقات المتشعبة الضيقة والشبابيك المتقاربة حتى حدود العشق. أأتيتِ في سفينة مصنوعة من خشب الصفصاف مكسوة بالجلد كما كان يصنع الملاحون في بحر الخزر؟.. أم وصلت مع قافلة الحرير تحملك معها أميرة مسبية؟ أم لعلّ الملاحين الذين يعرفون مسار رياح المحيط الهندي الواسع.. استقدموك لتعيشي في قصر ما.. تبعثين سحرك الشرقي الغامض..

من الذي صنعك؟ أي رفاه كان في أيّامك، وحيث تضيء الفوانيس الحمراء غرف القصور.. كنت ترسلين عطرك الفوّاح.. إلى الغزالة الشرقية.. التي امتلكتك هناك.. ثم امتلكتك هنا.. حيث الفن حين لم يكن هناك فن.. وحيث الحُبّ بحيث لن يعرف مثيل لهذا الحب.

كانت أرقى أنواع الطيب توضع فيكِ.. (عود هندي) يبعث على الوجد. (ومِسْك نفيس) يرفع نحو غزلان الجبال التي تقتات بالناردين (بالڤاليريانا).. (وعَنبر) يُذكّر بالبحار الزرقاء.. بالحيتان الضخمة وبعطر

زعانفها الذي ينتشر بين السماء والأرض.. يرشد البّحارين الضّالين.

۞ ۞ ۞

يوقد تحت العود فَحْم خاص.. وما إن يشتعل العود الخشبي الذي بثّ الله فيه أغلى عطور العالم حتى يوضع في المبخرة مع المسك والعنبر..

لكن الرائع أن هذه التحفة الفنيّة الفريدة المصنوعة من (الخزف) الصيني.. لها نوافذ دقيقة ومتعرجة، تتماشى مع الرسوم التي أبدعت على المبخرة ذات اللون العاجيّ الملوّن بالأخضر الباهت.. والأصفر الأبهت..

ينطلق البخور من هذه الفجوات كالنسمة المجهولة.. ليعطّر الأميرة.. أو الخاتون، ليعطّر السلطانة أو العاشقة فعطر المسك والعنبر والعود.. وبهذه المبخرة الفتّانة جدير بالقصور أو صوامع الحب..

صوامع الحب؟ لماذا الصوامع؟ فالحب منتشر كالنحل..

صوامع الحب.. كيلا يضيع العطر..

وصوامع الحب.. لأن في داخل المبخرة مزهرية بيضاء تنغرس فيها.. كان يوضع فيها الماء.. وفي الماء توضع وردة.. أو باقة نرجس أو جوريّة فلا يُعرف فرق بين عطر البخور الخارج من النوافذ المحفورة كتعرجات السواقي.. وبين نسيم الورد الفوّاح..

أي فَنٍّ!! فقَدْ أصابتنا المبخرة بالذهول الفعلي.. مبخرة حزينة تجتّر ذكرياتها وأسفارها.. مركونة بهدوء وسكينة في قعر كهف أسطوري.. مليء بالتحف والأقاويل المُحيّرة.. مضاء بالأمل.. في مدينة دمشق.



العمامة



العمامة
وأغطية الرأس
في حضارات الشرق المتوسط
والأقصى

قال ﷺ: «تعمّموا تزدادوا جمالاً»

وقال: «العمائم تيجان العرب»

أنا ابن جَلا وطلّاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

سُحَيْم بن وَثيل

عمامة الزبير

كانت عمامة الزبير صفراء، وقد كان يُقاتل يوم بدر بعمامته الصفراء، فنزّلت الملائكة عليهم، بعمائم صفر قد أرخوها. وذلك لحماية الزبير الظاهر في عمامته الصفراء بين الجميع.. لذا بدا الجَمْعُ وكأنهم يعتمون بالعمائم الصفراء اللون.

❀ ❀ ❀



عبد الرحمن الكواكبي

زينة وحِليّ أبرويز

عمامة أبرويز

كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعاً فإذا اتسخت ألقاها في النار فاحترق الوسخ ولا تحترق[١].

وكان له رداء حسن يتلوّن كلّ ساعة

وكان لأبرويز سراويل مجوهرة وتكّة من أنابيب الزمرّد[٢].

عمامة مفتي الجمهورية العربية السورية اليوم

يضع مفتي الجمهورية العربية السورية ما يُدعى (باللفّة) وتتألف من طربوش أحمر يُلَفُّ حوله قماش أبيض ناعم.. وعمامة مفتي الجمهورية اليوم أقل حجماً وارتفاعاً من السابق.. لكنها تحافظ على الهيكل العام الذي يتصاعد بشكل متناسق لتصبح دائرة اللفّة العلوية أكثر اتساعاً من الدائرة السفلية بمسافة قليلة.. وتنتهي لفّة العمامّة بذؤابة صغيرة في مؤخرة الرأس.. أما قماش اللفّة فيكون من قماش أبيض ناعم ومتناسق.

عمامة المفتي السنّي في لبنان

يعتمُّ اليوم مفتي لبنان للسنّة بعمامة بيضاء ذات شكل يبدأ أسطوانياً عند قاعدته ثم ينفرجُ من الأعلى متخليّاً عن الشكل الأسطواني العادي،

(١) المستطرف في كل فنّ مستظرف ٢/ ٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ٢/ ٢٩.

بحيث تكون العمامة ذات شكل شبه (قمعي) والعمامة بأكملها ملفوفة بالقماش الأبيض الرقيق تحت الطربوش.

وقد درج رجال دين الطائفة السنية على التعمّم بعمائم تماثل عمامة المفتي، لكنّها أصغر حجماً.

العمامة الشيعية بين الأسود والأبيض

تختلف الألوان الأساسية لعمائم رجال الدين من الطائفة الشيعية بين العمامة السوداء والعمامة البيضاء.. مع عدم الاختلاف كلياً في شكل وتركيب العمامة المتماسكة التي تشكّل كلاً واحداً مُثَبَّتاً وتكون اللفّة متدرجة بميلان متناظر يبدأ ويحيط بالرأس، لينتهي بالتفاف مستدير حول جسم العمامة الأساسي ذي اللون المتجانس معها.

يُعتبر لقب (السيد) من أشرف الألقاب وأنبلها.. ويعني ذلك الانتساب إلى الأسرة النبوية الشريفة عن طريق ذرية عليّ بن أبي طالب ﵁ والأسياد يرتدون العمامة السوداء..

وعلى المعتمّ بالعمامة السوداء أن يكون قد تلقى العلوم الفقهية والدينية في (قُم) في إيران، وفي النجف الأشرف.

أمّا من يعتمّ بالعمامة البيضاء المشابهة في شكلها للعمامة السوداء تماماً.. فمعنى ذلك أهميته من حيث المرتبة الدينية والعلمية دون الانتساب وحيازة لقب (السيّد).

عمامة نقيب الأشراف في دمشق حتى أواسط القرن العشرين

يدعى المنتسبون إلى المقام النبوي الشريف، والمنحدرون من ذرية

الزهراء والحسن والحسين بـ (الأشراف) وتفتخر أُسَر عديدة بهذا الانتساب العظيم.

وقد درجت العادة أن يكون للأشراف (نقيب) يهتم بكلّ الأمور الاجتماعية والفقهية لهذه الأسر المنتسبة. وكان الأستاذ (سعيد الحمزاوي) في منتصف القرن العشرين نقيباً للأشراف.. وكانت عمامته خضراء اللون.. مستقيمة ملفتة على طربوش داكن الحمرة.. ويترك عادة مسافة سنتمر من اللفّة فوق الطربوش عند بدايته.. كما يترك قسم من الطربوش اثنين إلى ثلاثة سنتيمترات ظاهراً بعد انتهاء دورة «اللفّة».

عمامة قاضي دمشق

تمتاز عمامة القاضي الشرعي بأنها أكثر ضخامة من اللفّات العادية لرجال الدين.. وكان يراعى فيها ظهور اللفّة البيضاء التي تكون أكثر في اتساعها من اتساع الوجه.. وتتصاعد بانفراج قليل إلى الأعلى لتحجب الطربوش الذي ترتكز عليه، وتُلَفّ حوله.. ولقد كان لكلّ مدينة قاضيها، ثم لكلّ محافظة. ثم اجتمع القضاة ليكون لهم وعلى رأسهم (المفتي) الذي له حقّ الإفتاء في الأمور والمسائل الشرعية.

وترأس الإفتاء اليوم «مفتي الجمهورية العربية السورية» ليكون المرجع الأوّل الديني والشرعي.

عمائم رجال الدين في دمشق

يوضع الطربوش الأحمر الذي يكون محيطه مناسباً للرأس فوق الأذنين.. ويكون الطربوش أسطواني الشكل، يغطّي جزءاً قليلاً من الجبين.. بارتفاع متناسب مع طول الوجه بحيث يكون مساوياً لمسافة

نصف الوجه.. مع بروز الأذنين، وتترك مسافة سنتمتر واحد من الطربوش فوق الجبين.. ثم يُلَفّ على الطربوش قماش رقيق، قد يكون ثميناً من الحرير، أو يكون من المشاقات الكتّانية المطرزة بالأغباني.

وتكون اللفّة أسطوانية الشكل، متوازية المسافة بين الدائرة والأخرى، وتتوقف عملية اللفّ عند تبقّي مسافة من الطربوش الأحمر الذي يكون معالجاً للتخلّص من قسوته.. وتُقدّر المسافة بضعف المسافة التي تُرِكت فوق الجبين، أو أكثر قليلاً من الضعف.

وتختلف لفّة الرأس بحيث تكون أحياناً مستندة إلى طاقية تغطّي الرأس.. دون طربوش.. وحول الطاقية يثبّت قماش متماسك قد يكون من نوع (المَنْضة) يكون اتّجاه لفّه إمّا متصالباً أو متتابعاً بزاوية حادة.. أو متوازياً. هذه اللفّة تكون أكبر حجماً.. تُعمل كلّها من اللون الأبيض.

❀ ❀ ❀

الأسود والأخضر
في العمائم بين العباسيين والأمويين المنتسبين إلى محمد الرسول الكريم ﷺ

مع الأيّام.. اتخذ العباسيّون (الراية السوداء) شعاراً لهم. بينما اتخذ الأمويّون (الراية الخضراء) شعاراً لهم.. وانعكس ذلك على عمائم بني العباس وعمائم بني أمية.. ومن هنا كان (الأسياد) الشيعة يضعون العمامة السوداء. وكان (الأشراف) السنّة المنتسبون إلى النبي ﷺ عن طريق ذريته يضعون العمامة الخضراء.. ويؤكد ذلك عمامة (نقيب الأشراف في دمشق) في منتصف القرن العشرين التي كانت لفّتها خضراء اللون.

❀ ❀ ❀

عمائم رجال الدين من الطائفة الدرزية

تكون العمامة بشكل «لفّة» بيضاء ناصعة اللون.. أسطوانية الشكل تماماً.. ميّالة إلى الارتفاع.. وتبدأ ما فوق الأذنين.. ولا يرتديها إلّا «المشايخ» أصحاب الرتب الدينية العالية التي تؤهلهم لدخول مكان اجتماع المشيخة.. وغالباً ما يطلقون اللحى والشوارب..

أمّا (وجوه القوم) المتدينون.. أو من هم في رتبة دينية أقلّ من المشايخ فيرتدون [القضاضة] وهي قماش أبيض اللون.. وتكون مربعة الشكل توضع تحت [اللّفة] التي يعتمّون بها.. مستندة على الطربوش الأحمر الذي يغطّي قمة الرأس وجوانبه.

وتكون القضاضة حريرية في بعض الأحيان.. وللفّة البيضاء رجال متخصصون في إتقان لفّها.

والمعروف أن الطربوش الأحمر لدى المشايخ وأكابر القوم يكون طرياً ومتناسباً مع الرأس.. ولذا فهو يُعالج عند شرائه بشكل خاص ليتخلّص من القسوة المعتادة في صنع الطرابيش.

وغالباً ما كانت العمائم واللفّات والحطّات سواء كانت كتانيّة أو حريريّة، تشترى من أسواق مدينة دمشق القريبة من منطقة الجبل.. والشهيرة بحياكة العباءات والحطّات وبصنع الطرابيش على القوالب.

أمّا الشباب المقاتلون.. فكانوا يضعون الكوفية البيضاء والعقال الأسود المزدوج المستدير.. والكوفية إمّا أن تترك على الكتفين أو تعقد خلف الرأس.

في العِمامة

عن محبة الألوان عند العرب في العمائم

الصُفر: أشكل

والحمر: أجمل

والخضر: أقبل

والسود: أهول

والبيض: أفضل

وبصورة عامة.. كانت عمامات الشرق الإسلامي تعتمد على لونين.. لون قُبة الرأس أو طاقية الرأس.. ولون اللفّة أو العمامة وكان من العمائم العربية ما تدلّى طرفها حتى يصل إلى منتصف الصدر.

وكان منها في دول الخليج العربي ما تعددت ألوانه في العمامة الواحدة. وما زالت العمامة العُمانية تاجاً جميلاً على الرؤوس.





لباس الرأس الشرقي

بعد انتشار الدعوة الإسلامية وتغلغلها في المشرق والمغرب تعمّم الناس والسلاطين والأمراء.. وتزيّنوا بعمائهم فوضع الخلفاء العباسيون الجواهر الثمينة في مقدمة عمائمهم.. كذلك سلاطين مصر سواء في العهود الأولى الفاطمية أو بعد ذلك. ومن ثم كان التحوّل إلى الطرابيش فيما بعد.

عمامة ابن جامع

كان ابن جامع يعتَمُّ بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة، ويركب حماراً مريسياً في زي أهل الحجاز[١].

■ أهمية العناية باللباس عند معاوية

دخل بعض العذريين إلى معاوية وعليه عباءة فازدراه فقال: «يا أمير المؤمنين.. إن العباءة لا تكلمّك وإنما يكلمك من فيها»[٢].

وملاحظة معاوية كانت تأكيداً على عناية العرب بلباسهم ونظافتهم واهتمامهم بعباءاتهم وعمائمهم.

---

(١) الأغاني ٦/ ٦٧

(٢) المستطرف ٢٩.

عِمامة الخليفة الأموي هشام

عمامة صغيرة أنيقة تزيّن رأس خليفة قصر الحير الغربي في التمثال الشهير.. حيث ارتدى الخليفة سراويل الخلافة ذات الثنيات والتطريز، وبدت قبة اللباس وأكمامه متمّمة لهذه الأناقة التي زينته بالعمامة المعقودة فوق الرأس.

عمامة الجوهر الفاطميّة

كان الفاطميون إذا خرجوا للمبايعة أو لفتح الخليج ركب الخليفة، واعتم بعمامة الجوهر، وبين يديه الجنائب. أما السروج فتكون مرصعة بالجوهر، وفوق رأس الخليفة كانت تُحمل مظلة مثقلة بالجواهر[1].

عمائم أهل عُمان

تختلف سلطنة عُمان عن غيرها في تنوع ألوان العمائم.. فأغلب العمائم ذات ألوان متعددة منسوجة نسيجاً دقيقاً وشديد الجمال، ليُشكّل قماش العمامة التي تُستعمل بانتقاء حُرّ للنسيج واللون ودون الاختلاف على الشكل والحجم الأقرب إلى الصغر، وقد تتدلّى من العمامة ذؤابتان صغيرتان مزركشتان بدقة متناهية، تتدلّيان بمسافة ٤-٥سم، وهاتان الذؤابتان لا توجدان في كلّ العمائم العمانيّة، إنما يختارهما من يرغب، ولابد أن لتلك الذؤابات وظيفة حماية لمنطقة ما خلف الأذنين.. وغالباً ما يكون النسيج المُحاك حريرياً فيه خيوط من الكتّان والفضّة.. يتصالبان بشكل تيجاني رائع الجمال.

---

(١) نخب الذخائر.

عمائم الطوران

كانت عمائم الطورانيين كما ورد في بحث (التاج) عبارة عن أقمشة سوداء، تُعقد حول الجبين والرأس، تُزينها أرياش النعام والطواويس، لتبدو الشرائط المتدلية من العمائم نحو الأكتاف.. أكثر جمالاً وهيبة.

عمائم بوشكار الصفراء الملفوفة

عالم الهند المُحيّر..

ها هم الرجال قد أقبلوا.. وأقبلت النساء.. إلى (سوق الجِمال) في بوشكار الهندية.. يكتظ السّوق.. وتقف الجِمال تنتظر مصائرها.. من بائع إلى شارٍ، ومن بلد إلى بلد..

يكتظ السوق.. ويظهر الرجال بعمامات كبيرة عبارة عن قماش ملفوف على نفسه، ومن المؤكد أنّها تدور بالكثير من الأذرع.. أمّا العمامة فضخمة، وكأنّها جديلة طويلة الأمد.. ملفوفة بصبر وأناة فوق الرأس.. لتتألق بألوانها الصفراء التي تشبه ألوان عصافير الكناري النادرة. فتبدو كورود ضخمة صفراء، حيّة اللون، متوزعة في عالم السوق الغريب، وتجرُّ الجمال أو تشرب ماءها. بينما النساء الهنديات يظهرن بخُمُر شديدة الشفافية.. خمر ملوّنة مذهبة منسدلة على أجسادهن القوية التي قطعت المسافات على الأقدام.. وكل امرأة أتت إلى السوق أتت بخلاخيلها.

ترن الخلاخيل.. وتسير النساء منتسبات إلى قوّة الأرض بقوة أقدامهن التي تحمل اثني عشر كيلو غراماً من الخلاخيل.. ثم يجلسْن بأنوفهنّ المخرومة المحلّاة بالأقراط.. وينتظرن شراءَ مطرّزاتهنّ.

إنه عالم الهند المُحيّر في مقاطعه زاجستان[١].

---

(١) عن فضائية المشكاة بتاريخ ٢٧/٤/٢٠٠٦.

الوشي على القلنسوة

أيام سليمان بن عبد الملك

هو من الخلفاء الأمويين.. ولد عام (٩٦هـ) (٧١٤م) وتوفي بعد سنتين وثلاثة أشهر من توليه الحكم في مرج دابق في قنسرين[١].

في أيام سليمان.. لبس الناس الوشي جباباً وأردية وسراويلات وعمائم وقلانس.

والمعروف عن سليمان بن عبد الملك أنّه كان أكولاً يحب الطعام.. وفخفخة الموائد؛ حتّى إن طبّاخه كان يدخل إليه وهو يرتدي ثوباً على صدره وشي.. ويضع على رأسه قلنسوة طويلة وعليها وشي.

فإذا حسبنا المُدّة الزمنية التي تفصل بين الحاضر والماضي الأموي.. لتجاوزت ما ينوف عن ألف وثلاث مئة عام.. ويومها كان طباخ سليمان يرتدي القلنسوة الطويلة في أثناء الطبخ والتقديم.. مما يؤكد سبق العرب بتقليعة وضع الطباخين تلك القلنسوة الطويلة التي يضعها اليوم أبرع الطباخين المشهورين على رؤوسهم.



عمائم رجال الموسو في الصين

يضع كبار السن من قبائل الموسو الصينية عمائم سوداء أو بنيّة، وتكون ضخمة الحجم، كثيرة الالتفاف، تشبه قرصاً كبيراً ملفوفاً بدقّة متناهية.

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة.

والعمامة هذه تخفي نصف الأذنين الأعلى، وتبدو «اللفّة» متناغمة بوضوح، وهي كبيرة كالوسادة، وهي بالطبع.. تكون بهذا الشكل لتحمي من البرد القارس.. ومن الشمس الحارقة[1].

۞ ۞ ۞

عمائم رجال الأفغان الجبليّن

تتفنّن كل قرية في أفغانستان في نوعية عمائم رجالها وألوانها.. فمن العمائم البرتقالية التي تتألف من قطعتين.. قطعة ثخينة من حوك الصوف قرميدية اللون تُلفّ حولها عصابة برتقالية بما يشبه (السُلُكْ) الشامي أو ما يُدعى (بالكوفيّة).. أما طريقة ربط الكوفية الملوّنة فجميلة فنيّة فيها الكثير من المهابة والجلال، وهي من ثمّ تُحَسِّن الوجه، وتزيد من وسامته. ومن عمائم بعض المناطق الجبلية أنّ رجالها يضعون عمائم ملفوفة على شكل كعكتين مجدولتين.. تكون الواحدة فوق الأخرى.. وملتصقة بها.. أمّا اللفّة الكعكيّة العليا فلها قماش يستر قمّة الرأس.. وتكون أصغر بقليل من الكعكة التي تلاصق الجبين والصدغين.



---

(١) مجلة المجلة، العدد ١٠٤١، عدد يناير ٢٠٠٠ ص ٢٣-٢٩.

أغطية رأس رجال الدين المسيحيين حسب الطوائف

نتحدث عن الكنيسة الشرقية بوصف بحثنا يقتصر على الشرق.. والكنيسة الشرقية متعددة الطوائف.

تختلف أغطية الرأس حسب الرتب الدينية.. وحسب المناسبات الكنسية من قداديس، أو احتفالات بزواج أو ختان.. أو قداديس مآتم..

ويرتدي (البطرك) (والمطران) (والأرشمندريت) لباسهم الرسمي حالما يخرجون من الكنيسة أو في داخل الكنيسة، في أثناء المناسبات..

وتتعدّد أغطية الرأس بين القبعات الصغيرة الحمراء.. أو القبعات السوداء التي تشبه الطرابيش الأسطوانية المغطاة بأقمشة من (الموريه) والتي ينسدل من جنبيها غطاء مثبت.

وغالباً ما يرتدي كبار رجال الدين في الكنيسة الشرقية الجلابيب أو ما يشبه الجبب السوداء..

بينما يضعون التيجان المرصعة في أثناء القداديس والأفراح وكلّ المناسبات، متميّزين بدثاراتهم الشديدة الفخامة، والمحلاة بالأحجار الكريمة.. والمتعددة الألوان حسب المناسبات.

وقد تختلف أغطية رأس رجال الدين في الكنيسة السريانية لتكون هرمية سوداء ينسدل من فوقها غطاء رأس طويل.

❀ ❀ ❀

بعض ألبسة الرأس لدى الطوائف المسيحية

■ لباس رأس مطارنة طائفة الروم الأرثوذكسية والطائفة الكاثوليكية

يرتدي الأرشمندريت والمطران والبطرك سواء كانوا من الطائفة الشرقية أو من الطائفة الغربية الكاثوليكية، لباس رأس أسود اللون ذا شكل أسطواني قصير.. مُغطّى (بالساتان) أو (الموريه) ويتخذ من خلف وطرفي هذه القبعة شالاً ينحدر إلى ما تحت الكتفين ويُغطيهما.. وهو أسود اللون..

وللبابا في الفاتيكان رئاسته على كل الطوائف الكاثوليكية في العالم.. وبالتالي فله ألبسته الخاصة سواء كانت ثياباً أو ألبسة رأس أو تيجان.

■ الروم الأرثوذكس

تختلف ألبسة الجسم والرأس بين الكهنة ذوي المراتب العليا وبين المراتب الأقل. كما تختلف حسب نوعية الاحتفالات أو المآتم أو المناسبات الرسمية.

أمّا في أيام الأعياد فيرتدي كبارهم القلانس المجوهرة ويعتمرون بالتيجان الجميلة المطرزة التي تحمل الأحجار الكريمة، ويعتمدون اللون الأحمر على رؤوسهم في بعض المناسبات ويُدعى ما يوضع على الرأس في الحالات العادية (اللاطية).

■ السريان الكاثوليك

يرتدي رجال الدين لدى الطائفة السريانية الكاثوليكية قبعة هرمية

الشكل ويرمون فوقها رداء أسود طويلاً ينحدر حتى القدمين... ويكون من قماشٍ كتيم متوسط الليونة.

■ السريان الأرثوذكس

يضع رجال الدين لدى الطائفة السريانية الأرثوذوكسية القبعات تُدعى (الألّوسة) ويشابه لباسهم قلنسوات رجال الدين للطائفة السريانية الكاثوليكية.. أمّا في المناسبات الدينية الكبرى فيضع (البطرك) طاقية سوداء منتفخة من وسطها.. وتكون ملفوفة بالحرير الأسود الفاخر اللامع.. منضمة باستدارة متناظرة عند الجبين.. وفوق الرأس. وللقبعة السوداء المنتبجة هذه سائبتان تستران الأذنين.

■ ألبسة رأس رجال الدين لدى الطائفة الأرثوذوكسية الأرمنية

تأسست الكنيسة الأرمنية الأرثوذوكسية ووجدت في دمشق وحلب منذ القرن السادس للميلاد.. وذلك للمكانة التي كانت تتمتع بها المدينتان كاستراحة للحجاج إلى بيت المقدس.

لباس الرأس اليومي للمطارنة والبطاركة الأرمن الأرثوذكس

يوضع ما يُدعى [الكاساك] [كه تاك] وهما مستديران حول الرأس بشكل طربوش قصير من المخمل البنفسجي اللون ويُدعى المخمل في اللغة الأرمنية [طافيش] أمّا اللون البنفسجي فيدعى [ماني - شاغاكوين] وهو مأخوذ من اسم الورد البنفسجي [مانوشاغ]. أما أرضية هذا الكاساك في قمته فمن المخمل المثني بشكل متوازٍ يمسكه زر كبير في منتصفه.

■ ألبسة رأس رجال الدين في أثناء القداديس والمناسبات الرسمية

هي عبارة عن قبعة تبدأ مستديرة إلى علو عشرين سمْ.. ثم تصبح مخروطية الشكل وهي تتعالى.. وتكون سوداء اللون يرمى فوقها غطاء من: التفتا - الموريه، وتنحدر إلى ما تحت الخصر.. ويلبسها الأرشمندريت والمطران والبطرك.. واسمها [فيغار] VEGHAR ويضع البطرك على مقدمة الفيغار الصليب.

هذا اللباس يستعمل في أثناء القداديس لا في أثناء التقديس.

■ لباس رأس البطرك والمطران في أثناء القداس

هو تاج.. مخروطي الشكل.. ثنائي المخروط.. يتصاعد طرفاه متماسكين في استدارة ثم ينفرجان مشكلين تاجين: أمامي وخلفي ينتهيان متوازيين بنهاية حادة.

ويكون التاج مزيناً بالتطريز الجميل.. وفوق المقدمة يوضع الصليب.. وفي منتصف التاج المزدوج صورة للمسيح عليه السلام وسورة للعذراء.. وتتغير اتجاهات الصور حسب المناسبات الدينية، ويرتدي رئيس الأساقفة الألوان نفسها التي يرتديها الملك: الأحمر.. والبنفسجي.

تيجان الكهنة

هي مستديرة حيناً.. مربعة حيناً.. أو كروية في الوسط.. وكلّها من المخمل.. أما الألوان فتتراوح وتختلف من أحمر.. إلى أزرق أو أخضر أو أبيض. ويوضع فوق التاج المخملي الصليب الأوثوذوكسي.. الشرقي. وكل هذه التيجان مزخرفة ومطرزة.

❀ ❀ ❀

أما اختيار الألوان الحمراء أو البنفسجية فيعتبر ترميزاً إلى قوة الشمس التي تعكس الأشعة في قوس قزحها ففيها الأحمر.. وفيها البنفسجي.

كما أن اللون الأحمر يعتبر رمزاً للقوة والسلطة.. لدى الطوائف المسيحية جميعها[1].

■ ألبسة رأس رجال الدين لدى الطائفة الأرمنية الكاثوليكية

يضعون على رؤوسهم قبعات تُدعى (الألوسة).. وتكون حمراء اللون في الأعياد.. أمّا اللباس في المناسبات الكنسية فيكون فخماً.

■ ألبسة رأس رجال الدين لدى الطائفة المارونية

يرتدي البطاركة ألبسة رأس تختلف لوناً وشكلاً حسب المناسبات العادية أو الدينية أو الاحتفالية، فهي حيناً طاقية حمراء بشكل الرأس، وتارة تكون قبعة سوداء لها شكل أسطواني قصير لا ترتفع عن مستوى الجبهة إلا حوالي ١٠-١٢ سم.



(١) أخذت المعلومات من سيادة المطران طائفة الأرمن الأورثوذوكس في دمشق ٢٠٠٧/٥/١



عمائم سلاطين الدولة العثمانية

أمّا عمائم سلاطين الدولة العثمانية.. فبدت كبيرة ضخمة توحي بالمهابة.. ومن الطبيعي أنهم وضعوا الجواهر والأرياش على عمائمهم..[1] وتفنّن كلّ سلطان في شكل طيات لفّة عمامته الضخمة وفي تنوّع جواهرها. لكن العمامة العثمانية بدأت تتضاءل مع تقدّم أيّام السلطنة حتّى تحوّلت في النهاية إلى «الطربوش» المصنوع من «الجوخ المقولب» الخمري الداكن.. وذي الشرّابة القصيرة..

تفنّن السلطان عبد الحميد في إبراز زينته في أثناء الاحتفالات، فكان يضع طربوشاً من الفضة الخالصة. وكانت العمائم تلبس مع الجبب والقفاطين الفخمة.. وقد وضع الوزراء والكتّاب والحجّاب العمائم الضخمة كسلاطينهم. ثم أهملوها مع تقدّم أيّام الخلافة.

❀ ❀ ❀

---

(١) عمامة السلطان مصطفى خان الثاني المولود عام ١٠٤٧هـ/ ١٦٦٤م المتوفى بعد عزله عام ١١١٤هـ.

زينة السلطان عبد الحميد وطربوش المناسبات

كان السلطان عبد الحميد صغير القامة.. يدل على ذلك البزّة الرسمية السوداء التي كان يرتديها في المناسبات.. وهي عبارة عن سترة سوداء طويلة من الخلف وقصيرة من الأمام بحيث يصل طرفا السترة حتى الخصر.. ومن الطبيعي أن تكون الأكمام طويلة.. وهذه البزّة بأكملها مطرزة (بالصرمة) أي بخيوط الذهب المطرزة باليد.. أمّا القبة (العسكرية) فيزداد التطريز فيها لإضفاء مزيد من الهيبة والجاه.. وهذا الزي هو ما يُسمّى (بالريدن كوت) والكلمة تعني في الإنكليزية (معطف القراءة) وما زال هذا الزّي الرسمي منتشراً في ثياب الرجال في المناسبات الرسمية الغربية..

أما طربوش السلطان الأحمر القصير.. ذو الطرّة والشرشوبة فيخلعه السلطان في مناسباته الرسمية ليرتدي طربوشاً من الفضّة المصوغة الخالصة.

❁ ❁ ❁

■ عمائم الأباطرة المغول المسلمون

أمّا الأباطرة المغول المسلمون في الهند.. فقد وضعوا العمائم المزيّنة بأرقى الجواهر..

❁ ❁ ❁

■ عمائم الرجال في ما قبل النهر وما بعد النهر

كما أسلفنا بدت عمائم الناس في سائر بلاد ما قبل النهر وما وراءه.. (أي في آسية الوسطى) ضخمة الحجم، متعددة الألوان، والأشكال والذؤابات.

■ قلابق القادة العثمانيين

كان أكبر القادة العثمانيين أيّام السلطان عبد الحميد.. وأشهرهم جمال باشا.. وهو من رجال الحرب، يرتدي قلبقاً سميكاً غالباً ما يكون من الفراء الملفوف حول قبعة رأس مخططة.

■ عمامة الكاتب العثماني

طربوش يُسمّى «بالكاكول» لكنّه مقرنص الجوانب، يستدق عند اتجاهه إلى الأعلى حتى يصبح متصاغراً كالسوار. أمّا فوق هذا الطربوش أو «الكاكول» فتأتي اللفّة البيضاء التي تشكّل العمامة.. ومما لا شك فيه أنّ عشرات الأمتار من القماش الأبيض اللطيف تُلَفُّ بشكل مُتَثَّنٍ ومتصالب، وبطريقة شديدة التعقيد.. حتى لتبدو العمامة وكأنها تشكل ثقلاً كبيراً على الرأس.. وهي في حقيقتها ولنعومة قماش اللفّة (اللام ألف) لا تشكّل إلا حجماً يكاد يكون أكبر بكثير من الوجه.. لكنّه لا يشكّل الوزن المنظور إليه.

■ عمامة مصطفى بن إسماعيل

وهو أمير عربي من مدينة (تلمسان) آنذاك (١٧٦٩-١٨٤٣م) وكان ذلك إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر (١٨٣٠م) وقد رفض لقب (الداي) الذي أسبغ عليه، ومات غيلةً. أمّا عمامته فكانت ضخمة من قماش قطني داكن.. ملفوفة بكثافة فوق شالٍ أبيض كبير، يوضع على الرأس، وينحدر طويلاً وقد رُفع أحد طرفيه فوق الكتف. ولهذا الأمير رسم مشهور رسمه (بايوت) وهو موجود في cabiner des escomptes في فرنسة[١].

---

(١) معجم لاروس.

■ قَلْبَقْ مصطفى كمال باشا

وكان القلبق من فراء الأستراخان.. مثبّت باستدارة حول ما يشبه الطربوش أو القبّعة.. ويرتكز فوق الأذنين.

❀ ❀ ❀

■ العمامة المغولية والطورانية والتركمانية

تمتاز العمامة المغولية بضخامتها.. وتكون أحياناً من الفراء المطعّم بالجلد.. وغالباً ما يكون للعمامة رفارف أربعة يستطيع الفارس إرخاءها اتّقاء للبرد القارص.. فوق العينين.. والأذنين.. والرقبة. وقد استعملها الطوران (وطوران تقع خلف نهر سيحون) بل شِماله.. وسائر القوقاز والتركمان والمغول.. يرتدون هذه العمائم.

❀ ❀ ❀

■ العمائم الفارسية القديمة

تعتمد العمامة الفارسية على الأناقة واللون.. وتختلف كل عمامة بحسب منصب مرتديها.. فمنها ما كان كقبعات الدراويش الترابية اللون، ومنها ما كان طاقية توضع على الرأس.. وتلفّ عليها العمامة التي تكون سوداء اللون على الأغلب.. ومن العمائم ما كان شكله فوق الطاقية كالتيجان..

خُوَذ الحرب الفولاذية

خوذة السلطان الأشرف

حين تدق طبول الحرب يمسك الأبطال رماحهم.. يتمنطقون بخناجرهم وسيوفهم.. يرتدون حُلّة الدفاع الحديدية، ويضعون على رؤوسهم خوذة الحرب الفولاذية..

كانت الخوذة جميلة مصنوعة من الفولاذ اتقاء لضربات السيوف، وأشهر هذه الخوذ خوذة السلطان الأشرف، فقد كان يرتديها منذ خمس مئة عام.. مطروقة.. فيها حروز وأدعية بالسعادة.. بالرفاه.. بالعمر المديد.. وأجمل ما فيها.. ما نُقش: «العمر الطويل ما ناحت حمامة».

ونهاية الخوذة مستدقة.. حتى لتكاد تصل إلى ما يشبه النقطة. كتب تحتها بشكل دائري (أبر بعمله لزردخانة الملك المنصور السلطان الأشرف).

وذكر في الكتاب الرائع الفن الإسلامي ورعايته أنّ أمثال هذه الخوذ المستدقة التي لها قوسان للعينين كانت تُسمّى بالعمامة بسبب شكلها، وكانت تستعمل من قبل التركمان «آلاق - قويوتلو»[١].

وعلى ما يبدو أن الفرسان في الحروب جميعاً كانوا يضعون الخُوَذ الفولاذية وعلى رأس الخوذة الأسلحة الحادّة.

(١) كنوز من الكويت صورة ٦٨.

رسم فريد لحفل خطوبة

لم يكن الفن الإسلامي يلجأ إلى رسم الشخوص.. لكن هذه اللوحة الفريدة المرسومة بدهان خزفي أزرق وبنيّ تمثل توثيقاً فريداً لخطوبة أو عرس.. والعروسان يبدوان وكأنهما يمران تحت غصنين متشابكين.

تعليق: -(هذه الظاهرة ما زالت سارية في استقبال الحجاج والعرسان.. وتكون من أوراق النخيل الكبيرة) -

قيل: قد ترمز غصون النبات إلى الفحولة.. والخصوبة.. (وهو اعتقاد قديم). أما العريس فكان يضع عمامة مقرنصة جميلة ممسكاً بيده خاتماً مصنوعاً من أزهار الجوز والصفصاف والحور، بينما أمسكت العروس حلقة عادية بسيطة من الأغصان. إنها خواتم الزينة القديمة المصنوعة من الأعشاب.

لوحة رائعة ربما وجدت في أنطاكية أو في صور، وهي المناطق الأقلّ تحفظاً في الرسوم[١].

■ عمامة محمد رِضا بك

كان سفيراً فوق العادة لشاه إيران في فرساي (فرنسة) أيام الملك لويس الرابع عشر XIV حوالي عام ١٧١٤م.. وكان يضع عمامة شديدة الضخامة والفخامة ذات قبعة هرمية تلتف حولها عمامة مزخرفة بخطوط متصالبة من الأقمشة الفاخرة والذهب. وله صورة موجودة في: cabinet des estompes فرنسة[٢].

(١) سورية: ذكرى وحضارة.
(٢) معم لاروس الفرنسي.

القلبق الشركسي (الجركسي) القوقازي

كالرماح يتنقّل الجراكسة في ثيابهم التي تتواسم وفق أجسادهم النحيلة المنتصبة.. بأكمامها الطويلة.. وبياقاتها الصغيرة التي يبدأ إقفالها من تحت الرقبة والتي تكون موشاة في بعض الأحيان (بالبريم الذهبي).. أما على الرأس.. فيتربع القلبق. وأمّا في الأرجل فيرتدي الجراكسة وكل أهل القوقاز وحتى المغول، (الجزمات) الطويلة حتى الركبتين.. والممهدة بالفراء..

(والقلبق) أو (قليق) وهو غطاء رأس من الفراء المزيّن بريشة جانبية، وهو في أعلاه أكثر اتساعاً من مكانه في موضع الرأس..

الجبال في القوقاز شديدة البرودة.. والسهوب واسعة.. والأفراس شابّة قوية، لذا كان للقلبق من طرفي الرأس قماش يستر الأذنين ويربط تحت الذقن ويدعى الوهج وهو قماش من الجوخ السميك المطرّز.. وفي طرف القلبق من الجهة الثانية طُرَّة تتدلى..

نقل الجنود الأتراك هذا القلبق عن القوقازيين، وهم جيران ومن عرق واحد.. وكان.. أن انتقل القلبق الجركسي التركي مع الجنود إلى البلاد العربية.. وقد نقله إلى مصر الفرسان الأتراك فاستحسنه نابليون بونابرت وكسا رؤوس جنوده بالقلابق.

وقد استمرّ جراكسة بلاد الشام المدنيون يرتدون القلابق الفرائية لكن دون أرياش أو طرر.. وتصاغرت القلابق وأصبحت تُصنع من (الأسترخان) الأسود أو البنيّ.. **وقد ارتداها الملوك العرب في أوائل القرن العشرين. الملك فيصل الأول والملك فيصل الثاني، وبعض حكّام العراق. وهذا النوع من القلابق يمتاز بثنية في قمّة القلبق.**

وكما أسلفنا فقد تصاغرت العمامات لدى العثمانيين، حتى استحالت إلى ما يشبه (القلبق) وكان السلطان محمود خان الثاني أوّل من اتخذ طُرَراً



الطربوش

وشباشيل مع القلبق، وكان ذلك بداية للطربوش التركي الشهير. بينما كان قلبق السلطان عبد المجيد خان صغيراً له أرياش وجواهر بدل الطُرَر.

❁ ❁ ❁

الطربوش العثماني

بدا بقية السلاطين في الطرابيش /مراد خان الخامس/ عبد الحميد خان/ السلطان رشاد. ويعدون من أواخر سلاطين بني عثمان.

قبعة الجاويش: بقي (الجاوش باشى) يرتدي القبعة الصوفية العالية الشبيهة بما يرتديه الأساقفة، لكنها من اللبّاد ذي اللون الفاتح.

الطرابيش في بلاد الشام وشمال إفريقية

درج أهل بلاد الشام على ارتداء الطرابيش في المدن الرئيسة.. واستمر ارتداء الطرابيش الخمرية ذات الطرّة السوداء والشباشيل حتّى منتصف القرن العشرين في جميع البلاد العربية وصولاً إلى المغرب الأقصى.. والتي كانت متأثرة بالزيّ العثماني في أثناء فترة حكمهم الطويلة.. مع اختلاف ألوان وارتفاع وتشكيل هذه الطرابيش..

أمّا أهل القرى والدساكر والأرياف فاحتفظوا كأهل البوادي الشامية بكوفياتهم، سواء كانت سوداء مربعة بالأبيض أم حمراء مربعة بالأبيض.. يضعون فوقها العقال.. أو يربطونها دون عقال..

الطربوش والقلنسوة المَغْرِبية

بتأثير امتداد الإمبراطورية العثمانية.. إلى مصر وبلدان المغرب العربي المتوسطي انتقل الطربوش الأحمر، ليصبح زياً شعبياً ورسمياً.. وما زال

الزي المغربي في البلاط المغربي على الرداء ذي القلنسوة الذي يُلبس في المناسبات الرسمية.. وهو بلا أكمام.. فإذا رُميت القلنسوة وراء الظهر بدا الطربوش الصغير القصير فوق رؤوس الرجال.. ويكون الرداء ذو القلنسوة بلون أبيض.. يرتديه الملك ورجال البلاط والناس في المناسبات.

ومن المعروف أن هناك الكثير من الأُسَرِ في المغرب الأدنى والأقصى ترجع بنسبها إلى ذرية الرسول الأعظم..

الكوفية الفلسطينية.. رمز الكفاح والجهاد..

استمر القائد الثوري الفلسطيني ياسر عرفات يضع كوفيته حتّى مماته. هذه الكوفية ذات المربعات السوداء والبيضاء أصبحت وشاحاً ثورياً لكلّ المؤمنين بالحق والتراب والوطن والحق في جميع أنحاء العالم.. بل أصبحت رمزاً للانتماء لكلّ قضية عادلة، وأهمها القضية الفلسطينية.

(الطاقيّة) المصرية (واللاسة)

يضع المصري بصورة عامة.. طاقية ترابية اللون، أو بيضاء في قمّة رأسه، والرجل منهم يجعل الطاقية تنحرف في أوضاع متعدّدة فوق الرأس، حسب الحالة النفسية، أو الهجومية، أو الدفاعية، أو المتحدّية.

أمّا اللّاسة فهي ما يشبه (الصّاية) وتكون ملوّنة أو برّاقة تلفّ حول الرأس.



أغطية الرأس.. الشماخ.. الكوفية
والعمائم في شبه الجزيرة العربيّة والعالم الإسلامي

وضع أهل الجزيرة العمائم على رؤوسهم.. وكان ذلك من حيث المبدأ حماية للرأس من وهج الحرّ الحارق، ومن تقلبات الحرارة الصحراوية.. ومن هجمات الرمال.. ومنهم مَنْ تلثّم بالعمامة اتقاء.. ومن ثم أصبحت العمامة زيّاً اختلف بين منطقة وأخرى.. فكان لكلّ منطقة في شبه جزيرة العرب زيّها الخاص.. بحيث اختلفت أشكال العمائم وألوانها وطرق لفّها.. فعمامة أهل اليمن تختلف عن عمامة أهل عُمان.. أو البحرين أو غيرها كَهَجَرْ.. وعدن.. والمشغّر.. كما اختلفت عمائم تهامة فبدت كبيرة لشدّة الحر..

واستخدم أهل الصحراء العربية وصولاً إلى البادية الشامية الكوفية والعقال.. وتحتهما (الطاقية) التي تحمي ذروة الرأس، وتمسك الكوفية أو الشماخ منعاً للانزلاق، بينما يثبت العقال القطني الأسود أو المذهب هذا الشماخ أو الكوفية، وغالباً ما يميل العقال لأن يكون (مربعاً).

■ أمّا عن ملوك شبه الجزيرة القدامى في اليمن

فكانوا يضعون التيجان المزيّنة بالخرز المجوهر.. ويزيدون في التاج خرزة عن كلّ سنة من حكمهم..

العمائم الشاميّة

اللّفّة

هي العمامة الشامية، ونقصد بها العمامة التي كان يعتم بها أناس معيّنون في بلاد الشام منهم:

- المشايخ: لهم طرابيش حمراء يلفّون حولها الشاش الأبيض، وتختلف ألوان عماماتهم الصغيرة حسب المرتبة الدينية ومنها:
- كبار رجال الأحياء: يعتمون بالطرابيش الحمراء، ويلفون حولها قماشاً مطرزاً بالذهبي بشكل أوراق نباتية صغيرة، تنسجم مع لون القماش العاجي (البيج).
- قاضي القضاة: يعتم بعمامة بيضاء مزيّنة بشريط ذهبي.
- العلماء الدينيون: يرتدون طرابيش حمراء حولها لفّات من الشاش.
- المنتسبون لأهل البيت: يعتمون في بلاد الشام بالعمامة الخضراء.
- المفتي: يعتم المفتي بعمامة بيضاء كبيرة تُلف حول الطربوش.

- عمائم قبور الأولياء: خضراء اللون، وهي منتشرة في مزارات بلاد الشام.
- الولاة: يضعون الطربوش العثماني الخمري القصير ذا الطُرر.
- الزُّهاد: لهم قبّعات مخروطية من اللبّاد ذات ألوان ترابية.
- المتصوِّفة: يضعون الطاقية والشملة.
- كبار التّجار: يرتدون الطربوش الأحمر، ويلفّون حوله نسيجاً من الشاش.
- الأشخاص العاديون والأفندية والبيك والباشا: يضعون الطربوش الأحمر ذا الطّرة السوداء والشباشيل لكن يختلف الطربوش في لونه وطوله.. وغالباً ما يكون طربوش الباشا قصيراً خمرياً داكناً.

■ اللفّة «اللام ألِف»

وتدعى (اللاماليف) وكان يرتديها كبار التجار حين يتجاوزون الثمانين، وكانت اللفّة الأغباني تُلف على الطربوش بشكل فني بحيث يُشكل منظرها الأمامي ما يشبه (لا).. وتكون غالباً من قماش الأغباني المذهّب المطرّز وغالباً ما كانوا يطلقون لحاهم بعد الثمانين.

■ لفّة شيخ المولوية

عبارة عن الطربوش أو القبعة الصوفية الطويلة نسبياً والمخروطية إلى حد ما دون قمّة حادة، وكان شيخ المولوية يلفّ عليها قماشاً من الشاش الأبيض، وتتدلى من نهاية اللفّة قماشة خضراء.

أغطية رأس رجال ريف غوطة دمشق

أوجب العمل الدائم في الحقول.. وفي حصاد القمح وجني الخضر الصيفية.. وتحويل أقنية الري المتّفق عليها من قبل المزارعين.. من بستان إلى بستان فكان لكل بستان «عدّان ماء» مخصص.

هذا العمل المتواصل ألزم مزارعي الجيل الأكبر سناً.. والذي كان يهتّم بالحقل والزرع.. بارتداء عدة أنواع من أغطية الرأس.. لا تشبه بأي شكل العمائم..

وكانت على أنواع:

١/ الطرحة المُسمّاة «روزا» وهي عاجية اللون ذات شباشيل طويلة.. كانت توضع فوق طاقية بيضاء بحجم الرأس وتكون قطنية ومُحاكة بتخريم.. تمنع حرّ الشمس.. وبالوقت نفسه تدع مجالاً لتخلّل الهواء..

٢/ الكوفية والعقال، وهما يوضعان في أثناء الاحتفالات والاجتماعات، والعقال السوري معقود بشكل مستدير.. ويكون من ضفر الكتّان أو الحرير الأسود حسب المناسبات، والكوفية تكون من القماش الأبيض الناعم (الشاش) أو (الكتان).

٣/ السُلُكْ، ولعلّ الكلمة من سَلَكَ أي عَبَر.. ويلف السُلْك لفّاً حول الرأس ويُعقد حول الرقبة حتى العنق.. يستطيع واضعه إخفاء بعض أجزاء جبينه ووجهه، وقد يكون السُلُك من قماش الأغباني للأعراس والاحتفالات. بينما يستعمل السُلُك الكتاني ذو النوعين؛ السُلُك الأحمر مع الأبيض المصنوع بحياكة التربيع، والسلك الأسود مع الأبيض المصنوع بحياكة التربيع.

تحوّل (السُلُك) الأحمر فيما بعد فأخذ تسمية الكوفية.. وبخاصة الكوفية البيضاء والحمراء التي أصبحت رمزاً للكفاح الفلسطيني.



أصحاب العمائم الزرق في شمالي إفريقية

تعجّ الرمال الصحراوية بالرمال الحمراء التي كثيراً ما تثور مع الرياح مشكلة ما يُسمّى (العَجاج) أو (الطوز). وفي صحارى شمالي إفريقية تعيش أقوام عربية تدعى «الأمازيغية» وهي من البربر، حيث يتلثّم رجالها بعمائم زرقاء تخفي أنوفهم وشفاههم دون أن تتلثّم نساؤهم هذا التلثم.. وسبب ذلك أن النساء يقبعن مع الأطفال بينما (رجال الطوارق) يجوبون الصحراء الرملية، وهم ملثّمون، حتّى صار هذا اللثام للطوارق شعاراً.. وما عاد الفارس يُبدي شيئاً من أنفه أو فمه أو لحيته.

يُقال: إنّ الرجال الطوارق شديدو الجمال.. فهم يخفون سحرهم تحت هذا اللثام الأزرق.. المنسدل من العمامة الزرقاء، والمعروف أن اللون الأزرق هو أكثر الألوان استعداداً لردّ أشعّة الشمس.. وأقلّها امتصاصاً لهذه الأشعة. وتهب في الصحراء الريح، ويتمنّى العابرون لو يشاهدوا معالم وجوه ذوي العمائم الزرق.. لكن ذلك مستحيل حتّى للعاشقات الواجدات الهائمات لالتقاط حبات الرمال..

تُرى.. هل كان الرمل الصحراوي سبباً أو كان الجمال سبباً أو كان الإخفاء لسبب أعمق من هذا وذاك؟.



السيدارة العراقية

اشتهر أهل العراق في القرن التاسع عشر والقرن العشرين حتى قيام الثورة بارتداء السيدارة التي يستعملها الأفغان - وهي ما تزال لباساً

رسمياً - وكذلك في الباكستان. وهي عبارة عن قبعة من الجوخ توضع من مقدمة الجبين متخذة شكل السفينة.. لتنتهي في منتصف عظم القفا..

وجاء في (لسان العرب) للعلامة ابن منظور باب (سَدَر)

- أراد السِدْر (وهو نبات) «الذي يكون في الفلاة يستظل به أبناء السبيل».

- (وسدرة المنتهى) أريد بها تفسيراً: هي سدرة في السماء السابعة لا يجاوزها مَلَك ولا نبي، وقد أظلّت الماء والجنة.

وكان لابن كثير تفسير آخر.

- وقال أبو (عمرو) تسدّر بثوبه: أي تجلّل به.

- والسيدارة: القلنسوة بلا أصداغ.

عمائم الشرق الإسلامي

وبصورة عامة.. كانت عمائم الشرق الإسلامي تعتمد على لونين.. لون قبّة الرأس أو طاقية الرأس.. ولون اللفّة أو العمامة وكان من العمائم العربية ما تدلّى طرفها حتى وصل إلى منتصف الصدر.

لكنّ عمائم الفرس.. وعمائم أواسط آسية اعتمدت على لون واحد وعلى الضخامة.. وبخاصة في أفغانستان حيث تنتشر العمائم الصفراء الضخمة الكثيرة الالتفاف التي توضع على رؤوس الرجال.



بعض أنواع أغطية الرأس الشهيرة في العالم القديم

قبعات الفينيقيين

كانت أغطية رأس الفينقيين في بيبلوس مخروطية الشكل عليها صفائح من الذهب..

والعامة كانوا يضعون القبعات المخروطية الدقيقة نفسها لكنها مزينة بالمعادن أو لعلها من المعدن.

الفضائية (الترحال) ٢٠٠٧/١/٢٥

❀ ❀ ❀

اشتهر القرطاجيون بصناعة القلائد الزجاجية التي تعلّق فيها تماثيل رائعة لرموز أشخاص..

كما اشتهروا بذمت العاج والمتاجرة به.

الشعر في بعض تماثيل نساء قرطاجة كان مزيناً بتمائم صغيرة..

ومصففاً بشكل هلالين متناظرين يلتوي كل واحد منهما قرب الكتف مُشكلاً لفافة.

أمّا أنواع العمائم والقبعات والقلابق والكاكول والطرابيش في بلاد الشام وما بين النهرين وفي شبه الجزيرة العربية وفي بلاد الفتوحات الإسلامية قبلها وبعدها حسب تطوّر الحضارات.

القبعات في حضارات بلاد الشام وما بين النهرين العليا

بدا أهل المناطق النهرية وهم يضعون القبعات الأسطوانية المصنوعة من (اللبّاد) وهو نوع من الصوف المسكوك السميك. وبخاصة الكهنة منهم، بينما بقي ملوك (ماري) حليقي الرؤوس طويلي اللِّحى. أما الآشوريون والبابليّون وقبلهم أهل سومر.. فقد وضعوا القبعات الأسطوانية التي تضيق في أعلاها.. وتركوا شعورهم مسدلة تحت قبعاتهم.. تتجمّع مع لِحاهم المتموّجة.

■ السومريّون والقبعة المخروطيّة والعمائم والتيجان

في اللوحة رقم ٧٨ والموجودة في كتاب - تموز - لمورتكات رجل يضع على رأسه تاجاً.. والرجل نصف حيوان.. ونصف إنسان، وذلك يرمز إلى القوتين قوة العقل وقوة البدن.

في اللوحة رقم ٦١ تبدو لنا قبعة مخروطية مقلّمة.

وفي اللوحة رقم ٢٣ تبدو لنا قبعات وتيجان وعمائم.. تشبه عمائم الرجال العُمانيين اليوم.

وفي اللوحة رقم ٢٨ نرى رجلاً يقف بين الحيوانات الشرسة.. يضع تاجاً على رأسه ويتزنر بزنّار..

■ قبعات رجال ماري

كانت ألبسة الرأس للرجال في (ماري) أشبه ما تكون بقبعات الدراويش القصيرة.. قمعية الشكل.. أو أشبه بالكاكول، وهو القبعة من اللبّاد التي تشبه الطربوش، لكن دون طُرّة أو شباشيل.. وكان أسفل القبعة في ماري يمتاز بشريط دائري حول القبعة.

عن صورة من كتاب Syrie. Memorire et civilisation (فلاماريون).

بينما كان الكهنة حليقي الرأس.. وذوي لحى كثيفة طويلة ومرجلّة.

❀ ❀ ❀

■ قبعة (بَعْل الواقف) وثن العاصفة والرعد

في الألفية الثانية قبل الميلاد.. كان بَعْل هو إله أوغاريت وإله العاصفة.. الذي يحارب مع هزيم الرعود آلهة البحر. البحر الشديد القرب من الجبال السورية القديمة.. وفي قتاله الذي كان يستعمل فيه الخنجر بيد والحربة بيد أخرى. بدا بعل بلحيته الطويلة وهو يرتدي قبعة تبدأ ملتصقة برأسه بشكل مستدير لترتفع من ثم بشكل أسطواني نحيل، يشبه الحربة المعلقة من سمتها.. ويبدو بعل واقفاً في قمة جبل الأقرع. جبل (سبانو) أو ما دعي في الفرنسية (SAPON) واقفاً بقبعته الذهبية يصارع (يَمّو) أو ما دعي (YAMO) التي هي نفسها الكلمة العربية (اليَمّ) وضفيرتاه الملفوفتان في آخرهما تترنحان من لذّة النصر[1].

---

(١) عن كتاب: Syrie. Memorire et civilisation والقطعة النقشية محفوظة في متحف اللوفر.

■ عمائم البابليين

وضع أهل بابل على رؤوسهم أغطية يلفونها كالعمائم - وكانت (الطاقية) من ألبستهم، وهي قبعة مستديرة الرأس، مدببة، وتحت عمائمهم كانت تبدو شعورهم ولحاهم المرتّبة والمجعّدة بشكل حلقات صغيرة مرصوفة بِدقّة زائدة[(١)].

❁ ❁ ❁

■ البابليون ولباسهم وعمائهم كما وصفهم هيرودوت

قميص من الكتّان يدعى (خيتون) يتدلّى إلى القدمين، فوقه قميص من الكتان الصوف، يطرح فوقه شملة بيضاء.

أمّا شعور الرؤوس فكبيرة طويلة يلفونها بعصابة بيضاء وقد لبسوا أيضاً ما يشبه العمائم، وهي أغطية رأس ملفوفة، كما لبسوا قبعات مستديرة مدببة الرأس[(٢)].

❁ ❁ ❁

غطاء رأس بابلي من الفضّة

في الرابع من كانون الأول عام ٥٦٩ ق.م طلب رجل الأعمال ومالك العبيد (نابو - أخي - أدين) من المعلّم العبد (سليم) عمل غطاء للرأس بتقدير ٢٥,٥غ من الفضة، وتعهد المعلّم بتلبية الطلب بعد نصف عام[(٣)].

---

(١) أسرار بابل، ١٧٥، ف. أ. بليافسكي، ترجمة: توفيق فائق نصّار.
(٢) المصدر نفسه، ١٧٥، ف. أ. بليافسكي، ترجمة: توفيق فائق نصّار.
(٣) المصدر نفسه، ١٢٢، ف. أ. بليافسكي، ترجمة: توفيق فائق نصّار.

ملابس داخلية بابلية من الفضّة

طلب شيليي ابن أدين نابو نجل كوز- نيتسا في العاشر من كانون الثاني عام ٤٩٨ ق.م من الحائك إيلي ابن بير ملابسَ داخلية جديدة بوزن ٨,٤غ من الفضة، وتعهدّ الحائك بإنجازها قبل ٢٨ أيار عام ٤٩٨ق.م[١].

- تعليق: أغطية رأس وثياب داخلية من الفضة تدل على الترف؟

إن أحدث دار للأزياء اليوم لم تفكّر بهذا الرفاه الفضي المشابه للحرير.. ولم تستطع معرفة خيط ناحلٍ فضيّ يتثنّى.. ويستغرق صنعه أربعة أشهر ونصف.

❁ ❁ ❁

■ قبعات كهنة دورا أوروبوس المخروطية

في معبد بعل كان الكهنة يرتدون الثياب البيضاء التي تصل إلى منتصف الساقين.. ويحزمون خصورهم بالزنانير، وعلى رؤوسهم تبدو القبعات المخروطية التي تشبه قبعات الدراويش، لكنها أكثر دقة في نهايتها.. رجال نحيْلو الأجسام.. حفاة الأقدام.. جميلو الوجوه، وقفوا في المعابد في (دورا أوروبوس) يقدمون الأضحيات. ومن خلفهم حاجب يرتدي حذاء أبيض وثوباً موشحاً بالأحمر في معبد (بِلْ).

■ قبعات الفراعنة وعمائمهم

بدا الفراعنة في تصاوير معابدهم ومدافنهم وهم يضعون العمائم

(١) المصدر نفسه، ١٢٣، ف. أ. بليافسكي، ترجمة: توفيق فائق نصّار.

الفرعونية المأخوذة خلف الأذنين، والمقلمة بشكل عام باللونين الذهبي والأسود، وهي أشبه بأغطية الرؤوس.

ومن الفراعنة من وضع التاج.. وأشهر التيجان والعمائم الفرعونية عمامة توت عنخ آمون المقلّمة بخيوط الذهب، وتاجه الطويل الحامل للشمس.

كما اشتهرت نفرتيتي زوجة الفرعون أخن - آتون (أخناتون) بتاجها الرائع الذي يُظهر أذنيها وينسحب قليلاً نحو الخلف مبرزاً جمال وجهها وروعة زينتها ودقة ملامحها..

■ قبعة القدّيس سمعان العامودي

جلس القدّيس سمعان العامودي فوق قاعدة تمثال من الرخام، هناك جلس يتعبّد. وكان يصعد إلى متنسّكه بسلّم طويل تحرسه الأفعى المقدسة، وقد وضع على رأسه قبعة كهنوتية مخروطية قصيرة.. وسطعت فوق رأسه الشمس، ونبتت حوله سنابل قمح شمالي بلاد الشام(١).



(١) عن صورة من كتاب سورية - ذكرى وحضارة، نشر (فلاماريون).

قبعات شهيرة

- ١/ قبعات الفراء: وتكون من فراء الثعالب، أو الأرانب، أو حملان الأستراخان، وتلبس في المناطق الشرق آسيوية ومناطق شرقي أوربة، ولعلها استعملت من قبل المغول والطوران في أثناء الغزوات.
- ٢/ السومبريور: قبعات واسعة هي بين القبعة والمظلّة.. تلبس في أمريكة الوسطى، وفي مناطق جنوب آسية الاستوائية المدارية. لكن القبعات الآسيوية لا تحمل لقب سومبريور sombrero والكلمة آتية من (الظّل) (العتمة) أي إنّها تظلّل وتُعتم، مقللة من وهج الشمس.
- ٣/ القبعات القشيّة: تكون القبعات القشية (ونلاحظها بكثرة عند المزارعين الصينيين في أثناء جني وقطاف الأرز) مشبوكة بحيث يتخللها الهواء. وهي تقي من أشعة الشمس في الوقت نفسه.
- ٤/ قبعات (الأسكيمو) وهي مصنوعة من فراء الثعالب والأرانب والحيوانات القطبية.
- ٥/ (القبعات الجلدية) يضعها أهل أمريكة من الهنود الحمر كما أهل المكسيك.
- ٦/ القبعات المصنوعة من (الجوخ) يضعها الأوربيون والآسيويون.
- ٧/ القبعات المحبوكة من الصوف أو الجوخ يضعها أهل (التيرول) وغالباً ما تكون مزينة بالريش. كما ذكرنا سابقاً وتدعى (البيريه).
- ٨/ القبعات المصنوعة من الكتان يضعها أهل المناطق الدافئة..
- ٩/ (القبعات النباتية) يضعها سكان الاستواء اتقاء من الحر..

هذا غيض من فيض لأغطية الرأس التي تحولت إلى زينة مع الأيّام.. وتحلت بالجواهر الثمينة كما فعل الخلفاء العباسيون وأباطرة الهند المغول..



بين العمائم والقباب

في التأمل الشرقي الذي لا ينتهي... عرف أهل المشرق والمغرب الشرقي روعة القبة السماوية التي تعلو فوق خط أفق البسيطة.. وتتركز في سمتها الأبدي.. وتحيط بالأرض فكأنها تحميها وتحمي أهلها..

وأثناء التأمل في المجال اللوني للقبّة السماوية فرّق المتأملون بين ليل القبة الأسود.. الداكن حيناً والمزين بالقمر والمشع بالنجوم حيناً آخر.. وبين لون القبة السماوية الزرقاء التي يشبهها وتَشَبّه بها الفيروز الجميل.. ثم تأملوا قباب الجبال المكسوة والمجللة بالأخضر ولعلهم تأملوا قباب الجبال الجرداء.. وقباب كثبان الرمل الصحراوية.

وفي حر الظهيرة كانت قبة السماء تبدو صفراء وذهبية مزينة بإشعاعات الشمس المجنحة..

وحين كان يسقط الغروب على الدنيا كانت ومازالت القبة السماوية تتجلّى بلون كحلي داكن وبراق وكأن به آلاف الأحجار من اللازورد.

وحين فكر العالم الإسلامي ببناء مساجده الجامعة.. اتخذت (القبة) ركناً يتصّدر المساجد وينثر الشعائر الهادئة الرحمانية في صدور المصلين..

تكونت القباب بالأزرق الفيروزي... ترميزاً إلى القبة السماوية..

❊ ❊ ❊

واشتهرت هذه القباب في آسية الوسطى وما وراء النهر (طشقند سمرقند - بخارى) وتكونت القباب في غرب آسية وبلاد إفريقية العليا باللون الأخضر ترميزاً وتشبهاً بإخضرار الجبال وتلاحظ بوضوح القباب الخضراء بين أحراش الجبال الشاميّة وفي مدنها..

أما القباب الهامة كقبّة الجامع الأقصى فهي ذهبية اللون... ترمز إلى الاستقطاب نحو المركز الجامع الأقصى.. لتشبه شمساً تنير ما حولها وتثير إشعاعاتها في العالمين.

۞ ۞ ۞

وفي بلاد الشام تنوعت ألوان القباب بين الترابي الداعي إلى التقشف.. وبين الأخضر الذي يرمز إلى تكايا الأولياء... وبين بعض ما ندر من القباب ذات اللون الأزرق..

أما قبة الجامع الأموي... فقد صبت من الرصاص ليثبت لونها الداكن الذي يشبه ساعات الفجر الأولى في القبّة السماوية... ساعات الفجر التي يهبها الله مع يوم جديد فيه قوة وبنيان وتفاؤل.. وتصاعد وأمل متأمل..

وبدت بعض ألوان القباب الشامية مطلية بالأبيض الجصّي ترميزاً للسلام كما يبدو واضحاً في قباب التكية السليمية والسليمانية وحفظاً للرطوبة ومنعاً من مصاعب الشتاء.

من هذا التمازج.. كان شكل العمائم وألوانها في البداية مشابهاً للون القباب وللون القبة السماوية..

فكانت العمائم السوداء.. كاليل الحالك.. وكانت العمامة الزرقاء... كقبّة النهار الزرقاء.

والعمائم الخضراء كانت كالسنابل والجبال واستمرار البقاء الأخضر.. أما العمائم الصفراء.. فلعلها من ألوان الشمس حين تبهت في القبّة السماوية أو تتأهب قرب البحر بعد آل العصر (وأشهرها عمامة الزبير).

أما العمائم البيضاء... فهي اجتماع للألوان... للابتهالات... للأدعية.. وهي ارتسام للون القبة السماوية حين يجلّلها الغيم..

۞ ۞ ۞

لقد اختلف ألوان العمائم.. ثم زُينت العمائم بالذهب والريش والورد.. لكنّها كانت في مجملها تتخذ شكل (القبّة) أو الشكل الحاد (القلنسوي) الغارق إما في الصوفية المطلقة أو في الابتعاد.. أو في الانفتاح نحو الأعلى.

❀ ❀ ❀

أما المآذن.. فكانت وما زالت رمزاً وزينة وإعلاناً عن أماكن العبادة، تصعد علواً.. كما سبقتها أبراج الكنائس الصاعدة علواً..

أمّا الشكل الهرمي سواء في أماكن العبادة والزقورات.. والقصور وقبعات البشر.. فقد عرفتها الحضارات الأقل روحانية وتوحيداً، الحضارات.. بوجه أدق التي عرفت الآلهة المتعددة.. وقرنت ما بين قوة التملّك وقوة المجهول المتعدّد الصفات.. وكانت أبعد في مددها الزمنية عن أزمان نزول الأديان السماوية.





الخمار



الخمار

■ الخمار الشهير

قدِم تاجر إلى المدينةِ يحمل من خُمُر العراق.. فباعَ الجميعَ إلّا الخُمُرَ السود، فشكا إلى الدارميّ، وكان الدارميُّ قد تنسَّك.. لكنَّه ومن أجل التاجرِ عمد إلى بيتين من الشعرِ يتغنّى بهما في المدينة ويقول:

قُلْ للمليحة في الخِمار الأسودِ ماذا فعلت بناسكٍ متعبِّدِ

قد كان شَمَّرَ للصلاة إزارَه حتّى قَعَدْتِ له بباب المسجِدِ

فشاع الخبر في المدينة، أنَّ الدارميَّ قد رَجَع عن زهده.. وتَعَشَّقَ صاحبةَ الخمارِ الأسود.. فلم يبق مليحةٌ إلّا اشترت لها خماراً أسود.

■ وشاح الشرقية

منذ العصور الماضية.. والشرقية تستعمل الوشاح.. تتقي به الريحَ التي تصفّر في الأجواء.. تَرميه على كتفيها مهابةً وقَدْراً..

تضعُهُ فوقَ رأسها أو فوق عِصْبَتها أو فوقَ تاجها.. لتبدو فائقة الجمال..

والوشاح الكامل عند العرب يدعى الرداء، لكنّه لا يوضع على الرأس وهو غير الخمار.. بينما كانت كاهناتُ تَدْمر يلتحفن.. وبأناقة تامة بأوشحتهن.. داخلات.. خارجات من معبد (بل) أو (بعل).

كان ذلك قبل زنوبيا.. قبل الرومان.. فطبيعة البلاد.. الرملُ.. الحرارةُ.. الشمسُ اللاهبة.. والقرُّ المفاجئ.. كلُّ ذلك جعل الشرقيةَ، وبحشمتها الفائقة، وخوفاً على صحّتها وجمالها.. تسعى إلى الحفاظ على جمالها وصِحّتها وحشمتها.. فإذا ثارت عواصف الرمل.. المدعوةُ (الطوز) في بلاد الشام.. أخفت الشرقية أنفَها بخمارها ليكون غربالاً للرمل.. غربالاً للريح.. وإذا مرَّ مارّ أحكمت خمارها.. وإذا دخلت المعابدَ رفعت وشاحَها فوق رأسها.. كان ذلك في كلِّ الديانات السماوية وحتى في بعض المعابد الوثنية.

فالشرقية امرأة تحب الحشمة.. وتحب أن تكون مُحترمَةً وغيرَ مزيفة..

وعندما طلب النبي ﷺ من الناس أن يخاطبوا نساءه (من وراء حجاب).. فما كان ذلك إلّا تبجيلاً واحتراماً لنساءٍ لسنَ في المقام كالباقيات.. وتأكيداً على ضرورة مساهمة المرأة في الحياة العامة والسياسية والدينية بوساطة الخطاب وأخذ الرأي والقرار..

وبحكم تقدّم الحضارات والمدنية والفتوح الإسلامية تيسر التنقل بالنسبة للمرأة.. بوساطة الهودج والوشاح والخمار الذي أصبح مردوداً على الجيوب بأمر الإسلام.

أما في قرى بلاد الشام الجبلية والبعيدة.. فلكل قرية زِيّها.. وكم طرزت النساء أوشحتَهن البيضاءَ التي يرمينها على رؤوسهن منسدلةً..

وكم أخفت نساءُ بعضِ بلادِ الشام شفاهَهن عن أعين الغرباء.. للاعتقاد التراثي بأن الفم هو رمز الفتنة.. وهذا هو اعتقاد جماعي لدى بعض مناطق البلاد وطوائفها، وكم انتقت نساء القُرى المحيطة بالمدن

أزياءَهن الخاصة بهن.. فكان المُقلّم والمطرّز والبرتقالي والإزارُ الأبيض والمَلاءة السوداء.. والمنديل الشفاف (البُرُنْجُكْ) (والتربان) وهو خمار يخفي الشعر دون بقية الرقبة.

۞ ۞ ۞

وكم انتشرت في مناطق الينابيع (العصائب الملفوفةُ) والموضوعةُ فوق الرؤوس لحمل جرار الماء.. فقد كانت المرأة هي التي تحمل الجرّة.. تحملُ السلّة.. تحمل الطفل مربوطاً على ظهرها.. تحمل عصا الرعيان، تقود القطيع.. تحمل الحطب.. لكن المرأة الشرقية كانت تتحلّى.. وتتغندر.. وتتزيّن..

تَشْكل الوردةَ الجوريةَ وهي تستعد لاستقبال زوجها..

وتلبسُ الألماس في الأعراس، ولو كان استعارة من قريباتها..

وتتيهُ بقبقابها الشبراوي المصدّف..

وتضع الكُحْلَ المدقوقَ بيديها.. على حواف أجفانها..

وتتحنّى.. وتصبغ شعرها..

وتتعطر بعطر الزنبق.. وتسكب ماءَ الورد والفلّ على جسدها..

وتعمل عمل الكادحين.. تقطف الزيتون مع القاطفين.. تجني الثمار مع الجانين..

وترى زهرَ الرمان.. فتقلد لونه لشفتيها..

ووردَ البستان فتسحقهُ وتجففه وتحفظه لصباغ خديها..

وتغلي ثيابها البيضاء الناصعة (بالنيلة)..

وتدهن كعبيها بمرهم الخيار.. ومرهم اليقطين.. ليكونا ناعمي الملمسِ كريش الحساسين..

وتنظر في المرآة.. وتحاول المستحيل لإخفاء تجاعيد الهموم والسنين.. مقلّدةً أطوار الرياحين..

إنها تعمل.. منذ الألفيات الأولى للحضارة..

برزت حيناً.. واختفت حيناً آخر.. لكنّها اكتسبت المهارة..

وعند هجوم المدنيةِ.. تأقلمت، وأثبتت بكل عمل تقوم به.. بأنها المختارةُ الجميلةُ العقل.. الطموحةُ.. الذكيةُ المغوارة.. لم يوقف تقدّمها دثار أو خمار..



وشاح كاهنات تدمر

تبدو.. منقوشةً على لوحة حجرية كبيرة في مقدمة هيكل (بعل) أو (بِلْ) في تدمر.. لوحةٌ فنيةٌ رائعة لثلاث كاهنات للمعبد.. يختمرن ويلتففنَ بأوشحة تبدأ من الرأس ثم تنحدر حتى القدمين.. فلا يبدو من الكاهنات الثلاث إلّا وجوهُهُنّ.. بينما ينسدل القماش الناعم ذو الثَّنْيات على هياكلِ أجسادِهنّ مُشكلاً لوحةً من أجمل لوحات العالم جمالاً وتقنية.

■ أمّا خمار التدمريات ما قبلَ المرحلةِ الرومانية

فكان يوضع فوق عِصْبة الرأس أو ما يشبه القبّعة.. أو الطربوش.. ثم يسدل فوق الثوب..

إنه خمار الشمس.. خمار الصحراء.. خمار الرمل والعجاج.. خمار الستر.. والعِزّ.. الخمار الذي ساير الحضارات في المِنْطقة..

تغيَّر الخمار وتبدَّل في شكله حتى أواسطِ القرن العشرين.. ليغدوَ التزاماً ورمزاً للمرأة المسلمة في أغلب البلاد العربية والإسلامية وهو ما يُسمّى "بالحجاب" فلا يجبرها على ارتدائه إلّا الالتزامُ المطلقُ وحريةُ اختيار المبدأ والامتثالُ الديني دون التعرّضِ لمفهوم العمقِ الروحي المفترضُ وجودُهُ مع التُّقى والزهد والورع.. ليكون الحجاب مُشكّلاً عجينة متراصة مع المبادئ والقيم والأخلاق.

لكن.. ما نريد قولَه.. إنَّ الخمار لم يكن في يومٍ من الأيّام هجيناً على الطبيعة الجغرافية والسكانية الديموغرافيةِ لشعوبٍ المِنْطقة.. في أي يوم كان. ولا كان فاصلاً بين الأديان.. ولا واقفاً ضدّ تفاهم الشعوب

وحرّيتها في إبداء طريقةِ طقوسِ معتقداتها مع احترامها لمعتقداتٍ أخرى.. ولطقوسِ أديانٍ أخرى.. ومع إيمانِها التام بتطوّر المدنية والحضارة لا بتوقّفِها وجمودِها.



الخمار قبل الإسلام

وهو غطاء رقيق شبه شفّاف.. تتعدّد ألوانه يوضع على الرأس وينسدل إمّا مغطياً الجيد والرقبة.. أو يبقى سائباً.. وكان معروفاً كزيّ منذ أيّام الجاهلية.. في سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية وفي أصقاع ومدن بلاد الشام وما بين النهرين..

وقد اختلفت أنواع الخُمُر واختلف نظام وَضعِها، سواء في مقدّمة الرأس أو في قمّته..

لكن هذا لا يعني أنّ النساءَ جميعاً كُنَّ يختمرن.. فقد قالت السيدة عائشة (رض) في نساء الأنصار: إنهن عمدن إلى حجوز مناطقهنّ فشققنها وسَوّين بها خُمُراً واختمرنَ بها عند نزول الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، أي إنهنّ لم يكنّ يختمرن حتى نزول الآية وذلك بعد الهجرة.

■ الخِمار

الخِمار للمرأة هو النصيفُ. وقيل: ما تغطي به المرأة رأسَها.

■ ترتيب الخمار عند الأئمة

البُخْنُقْ: خرقةٌ تلبسها المرأة فتغطي رأسها.. غير وسط رأسها.. بل ما قَبُلَ وما دَبُر..

الغفارة: فوق أو دون الخِمار.. (الحطّة أو العصبة)..

الخمار: وهو أكبر منها..

النصيف: وهو كالنصيف من الرداء..

المِقْنعة: وهو ما تتقنّع به المرأة من ثوب تغطي رأسها ومحاسنها..

المِعْجز: وهي المنطقة بلغة اليمن، سميت لأنها تلي عجز المتنطق بها.

ثم الرداء: وهو الغِطاء الكبير(١).

من المؤكد أن المرأة لم تكن ترتدي كلّ هذه الأشياء بعضها فوق بعض.. إنما هي أنواعٌ من اللباس.



(١) فقه اللغة للثعالبي، ولسان العرب لابن منظور.

خمار المرأة في البادية السورية

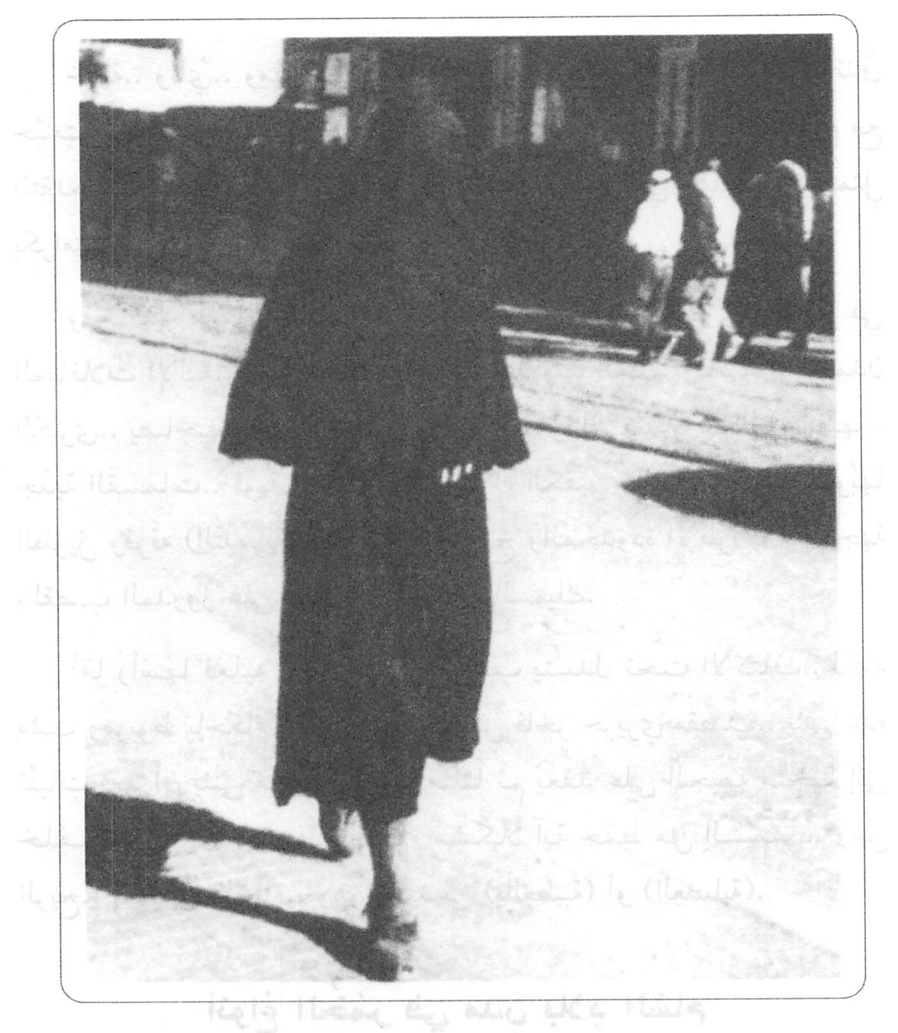
خيمة.. ونايٌ.. ومِهْباج يدُقُّ حبّاتِ البُن.. وامرأة البادية الممشوقةُ تدقُّ حبّاتِ الزمن.. الزمن الماضي.. والزمن الحاضر، متلائمةً كلَّ التلاؤم مع التقدم الآلي.. ومحتفظةً بمعتقداتها وتراثِها الغارقِ في القدم.. والمتمثلِ بكرامتها التي لا تتنازل عنها قط.

وفي كثير من الأحيان.. تترك الرَّبْعَ مع رجلها.. البَدَوي.. تتنقّل في الحافلات الآلية.. تضع أغنامها أمانةً عند ولْدِ العم.. وتأتي إلى المدن الكبرى.. يصاحبها رجلُها.. وفوق رأسها خمارُها.. وتبدو في أثناء تنقّلها.. جدّيةَ القَسَمات.. قويةَ الشخصية.. سمراء الكفّين والوجه.. ينسدل ثوبُها الطويل وفوقَه (التُّدْمُريّة) المحشوةَ بالتاريخ والمحدودة الأطرافِ والواجهة بالقصب المدروز على القماش الجوخي السميك.

أمّا رأسها فعليه خمارٌ نصفُ شفيفٍ ينسدل تحت الأكتاف.. لكنّه مثبت ومربوط بإحكام على الرأس بقماشٍ فاخرٍ حريري مقصب.. يثنى عدّة ثَنْياتٍ بعد أن يثنى مربّعُه ليصبح مثلثاً ثم يُعقد على الجبهة متجهاً إلى خلف الرأس.. ومعقوداً بإحكام مشكّلاً آية حفظٍ من الشمس.. ومن الريح.. ومن برد الشتاء.. وهو ما يدعى (بالعِصْبة) أو (العِصابة).

أنواعُ الخُمُر في مدنِ بلادِ الشام وأريافها القريبةِ أو البعيدةِ عن المدن

مع آليات التطوّر.. واختلاطِ الأمم والحضارات.. وُجِدتْ أنواعٌ كثيرةٌ من أغطية الرأس لدى المرأة.. منها ما اقتصر على الرأس.. ومنها ما تعدّاه..



الملاءة الزّم

■ الإزار

كانت ترتديه نساء المدن الشاميّة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وهو أبيضُ اللون يغطّي القامةَ والرأس.. وعلى الوجه مشاقةٌ شِبْهُ شفافةٍ وبيضاء. وهو ما كان يُدعى بالعاميّة "الإزار".

■ الإزار الأزرق

تلتف به النساء من قِمّة رؤوسهنّ حتى أقدامهنّ.. وكان يُلبس في دمشق في القرن الثامن عشر.

■ المُلاءة

وهي سوداءُ اللون.. ارتدتها نساءُ بلادِ الشام في أواخر العهد العثماني.. وهي خمار كثيف تُعقَدُ عِصْبَتُهُ السوداءُ ثم يُعقد الخمارُ الأسود بطريقة معيّنة دون أن يَحْصِر العِصْبة من الخارج، ويكون المنديل ممسوكاً تحت القماش الثخين.. وغالباً ما يكون بطبقة أو طبقتين قد تُرفع إحداهما.. وما يزال هذا النوع من اللباس مستعملاً في بعض المدن والقرى.

■ المُلاءة الزَّمّ

ومن الأردية ما يُسمّى (المُلاءة الزَّم) وهي تُلْبَسُ مع تنّورة مزمومةٍ تَصِلُ حتى القدمين. وقد تكون المُلاءة ممسوكة تحت التنّورة.

■ المِنْديل

بعد عهد الملاءة السوداء والإزار الأبيض والمُلاءة الزَّمّ تقلّص نوع الخمار والتستر إلى ما يُسمّى (المِنديل)..

وهو أنواع:

- المِنديل ذو الطبقتين.. ترفع السيدةُ إحدَهُن لترى طريقها.
- المنديل نصفُ الشفّاف.. يصل حتّى أسفل الرقبة ويغطّي الوجه.
- المِنديل (البُرُنْجُكْ) وهو غطاءُ وجه شديدُ الشفافية كانت تضعه نساء المدن في أواخر عهد الانتداب الفرنسي ويوضع تحت خمار الرأس ويصل إلى ما تحت الذقن.
- الإيشارب (Echarpe) وهي كلمة غربية الأصل عُرِّبت بلفظة عاميّة هي: (إيشار) في بلاد الشام.. وهي خمار غيرُ شفافٍ يوضع على الرأس ويعقد تحت الذقن.
- منه ما يُظهِرُ مقدِمةَ شعرِ المرأة.
- ومنه ما يخفي الشعر، وهو مختلف الألوان.
- ويعدُّ مقدمةً للحجاب الحالي.

التوربان

وهو خمارٌ عثماني درج في البلاد المصرية في العهد العثماني والخديوي.. وارتدته بعضُ سيداتِ بلاد الشام..

وهو من (الشيفون) أو من الموصليّ (الموسلين) الشفّافِ الذي يتعاطف مع الطّي والثني.. مؤلف:

إمّا من عمامة صغيرة من القماش نفسِه، يرافقها خمار، إمّا يُلَفُّ حول الوجه ويدعى (اليَشْمَكْ).

أو هو يخفي بعضَ معالمِ الفم والأنف التي اعتبرت أهمَّ ميزات الجمال في بعض المناطق.

التوربان

■ منديل بو أوية

تعقده المصريات على رؤوسهن في المنازل أو تحت الملاءة.. وله في مقدمته طُرَرٌ ملوّنة.. أما في الأرياف فتضع المرأة العِصْبة السوداء وفوقها الملاءة الطويلة حتى القدمين.

■ غطاء الرأس الأبيض

وهو خمار من الكتان يرمى فوق الشعر الذي يظهر منه الغرّة المعقوصة.. وكانت تدعى (العقرب) ثم يُلفّ ساتراً للفَمّ.. وغالباً ما كان شائعاً في جبل العرب.. ويعدُّ من الألبسة المنزلية.. أو من ألبسة الخروج وذلك حسب المناطق.

■ الغطاء الغساني والطربوش

كانت تضعه أميرات الشوف وجبل العرب، وهو مؤلف من طربوش يُلفّ حولهُ غِطاء أبيض تتلثم به المرأة.. والتلثم.. صفة من صفات النساء الدرزيات..



مناديل الحزن في المدن السورية

للحزن طقوسٌ وتقاليدُ تتمسكُ بها نساءُ المدنِ الشاميةِ.. وهذه الطقوس الأشدُّ احتراماً لم يتخلَّ عنها المجتمع، وخاصةً في مدينة دمشق وسائرِ المدن الرئيسة..

- تضع زوجة المُتوفَّى إذا كان شاباً مِنديلاً أسودَ ترميه على شعرها دونما أي حطّة تحته، ذلك في أثناء أيام التعزية، ومن ثم في المدّة المحددة للحزن.. وتضع هذا المِنديل الذي يكون شفافاً خاصة أمام الزائرات.
- تضع زوجة المُتوفَّى إذا كان كهلاً ولها أولاد ذكور أو إناث في طور الشباب غِطاء رأسٍ أبيض في أثناء فترة التعازي وما بعدها.
- تضع ابنة المُتوفَّى العزباءُ الصغيرةُ السنّ غيرُ المتزوجةِ مِنديلاً شفافاً أسودَ اللون.
- تضع ابنة المُتوفَّى المتزوجةُ أو الناضجةُ مِنديلاً أبيضَ شفافاً.
- تضع جميع سيداتُ الأسرةِ والصديقاتُ والجاراتُ الموجودات في أيّام التعزية المسماة (العصرية) التي تكون من بعد أذان العصر حتى أذان المغرب.. يضعن أغطية شفافة بيضاء متناسقةً بينهن، وتكون الثيابُ داكنةً تتراوح بين الأسود والكحلي والرمادي، مع احتمال ارتداء الأبيض تحت الأسود.
- تضع الزائرات (الإيشارب) المعقود تحت الذقن أو يبقين في لباسهنّ الشرعي وقد كنَّ في الماضي يبقين في الملاءة والمِنديل يدخلن إلى التعزية دون أغطية للرأس.

- تتراوح مدة الحزن حَسْبَ درجة القرابة..
- تضع النساء في بعض المناطق السورية ذاتِ الطابع المسيحي غِطاءَ الرأس الأسودَ بشكلٍ دائم.. مع الاحتفاظ بارتداء الثياب السوداء.. وقد يدوم هذا الأمر سنينَ طويلة.
- تبقى المرأة في الأرياف الصغيرة وفي البادية بلباسها المعتاد.



الخُمُر في الأرياف

ما زالت نساء الأرياف في بلاد الشام حتى اليوم تستعمل الخُمُر، (وكلّ منطقة لها زِيّها الخاصّ بها).. فمنها البسيط ومنها المعقّد الشبيه بتيجان النساء التدمريات القديمات..

ولكلِّ ريف وشاحُه الخاص.. ولكلِّ منطقةٍ ألوانُ خُمُرها..

والملاحظ أنّ أجمل أنواع الخُمُر هو ما تعقده النساء الجبليات بخاصة في مناطق القلمون، وجبل سِنْجار، وجبلِ الحِصّ. وسنأتي على ذكر بعض الخُمُر منها.

ملاءة وخمارُ ريفِ دمشقَ الشّمالي الشّرقي منطقة دوما وما حولها

كانت النساء يرتدين حتى منتصف القرن العشرين وما بعدَه بقليل.. ما يُدعى (بالمُلاءةِ السوداء) وهي مقلمة بلونٍ خمريّ عِنابيّ داكن.. تنحدر من الرأس حتى القدمين.. ويرخين على وجوههن منديلين.. أحدهما لتغطية الوجه تماماً.. والثاني يرفع فوق قِمّة الرأس فوق المُلاءة.. أو هما يُسدلان معاً..

أمّا اليوم فترتدي العزباء الحجاب الشرعي بينما ترتدي المتزوجة المنديل الأسود مع المعطف الأسود.

أمّا في المنازل فيضعن الأغطيةَ البيضاء.. وتكون من قِماشٍ أقرب إلى الرقّة.. ويلف (الغِطاء) حول الوجه، لينحدرَ حتى الخصر.. غير مُخْفٍ ما كان يُسمّى (بالسَّرْكسْ) وهو الثوب المورد أو المعرّق الطويلُ الأكمام..

والذي يصل إلى ما تحتَ الركبتين - منتصفِ الساق مظهراً سراويلَهُنَّ المكشكشةَ بحيث لا تَظْهَرُ إلّا الأقدامُ الغارقةُ في القباقيب الخشبية.

ولعل كلمةُ (سركس) أتت مما كانت ترتديه نساء (الشركس) أو (الجركس) وهو تحريف شعبي متعارف عليه.

أمّا السراويل فلعلها قدمت من آسية الوسطى والجنوبية.

مُلاءة وخمار الريف الغربي لدمشق

يقترن الغروب بشكل عام بنوع من التلوّن، وكأنّه يتماشى مع ألوان ظلّ الشمس وقت العصر.. ولهذا اشتهرت مُلاءات نساء ريف دمشق الغربيّ باللّون البرتقالي المقلّم بخيوطٍ شديدةِ الرقّةِ ذاتِ لونٍ أسود.. وتكون المُلاءة الغربيّة أكثرَ لمعاناً وأرقَّ نسيجاً من المُلاءةِ الكتّانيةِ للمِنْطَقة الشرقيةِ والشّمالية..

أمّا المِنديل فيرمى على الوجه.. وكانت بعض النساء لا يحجبن وجوههن بل يكتفين بالمُلاءة البرتقالية يلففنها على جميع أجسامهن..

وقد اشتهرت نساء المزّة القديمة بلباسهن البرتقالي هذا..

الإزار الأبيض والأساطير

يدعى الإزار في بلاد الشام (إيزار)، ومما يروى أنه في قرية صغيرة من قرى غوطة دمشق تُدعى (الريحان) وهي قرية صغيرة متطرفة في منطقة دوما كان يَشُقّها خندق هو بقايا لترعة كانت جاريةً في يومٍ من الأيام.. وكان الخندق بعيداً إلى حدٍّ ما عن القرية.. وعلى ما يبدو كانَ أهلُ القرية يهابون المرورَ من هناك ليلاً لسماعهم المستمرِ أصوات (بناتِ آوى) اللاتي تعوين في الصيف والشتاء..

الإزار

وكان من المستحيل لأي خيّال شجاع أن يمرَّ قربَ الخندق.. لهذا تطورت أصوات التردد هناك من أصوات طبيعية إلى أصوات فراغ أسطورية..

وقيل: إنّ جنّية تسكن في الخندق تُدعى (أم إيزار) تظهر للمارّين والخيّالة لتخيفَهم وتخيفَ أفراسَهم..

وبالفعل فقد جمحتْ ذاتَ مرّةٍ فرسُ خيّال، وهو شاب صغير في السابعةِ عشرةَ من عمره، عندما وصلت إلى خندق الريحان.. فرَمَت خيّالها في الخندق، وأصيب جراء ذلك بكسر في رأسه، ترك معه عاهة مستديمة وقاسية إلى أن توفّاه الله..

هل ظهرت أم إيزار للفرس والفارس؟ أم كان عِواءُ بناتِ آوى بعدَ أن التهمت عناقيدَ العنبِ الدوماني..

وهل كان الإزار الأبيض مرعباً إلى هذا الحدّ في الليل؟..

هل هي أسطورة؟..

هل هي صدفة؟..

هل هو ابن آوى؟..

أم هو عنقود عنبٍ أحمرَ دومانيٍّ انقرض مع تلك الكروم الجميلة انقرض وأصبح شبحاً أبيضَ يدور في البرّية؟..

عِمامة نساء القلمون

جلست قربي.. تربعت كاليمامة..

لتعقد العِمامة..

أمسكت مربعاً أسودَ من حريرِ القَزّ..

قالت لي: هو غالي الثمن..



لثام الأنف والفم

طوت المربع إلى مثلثٍ ثم طوته فظهر تطريزٌ فضيّ دقيق كأنّه تشعباتُ ورقةِ نبات..

عقدت المِنديلَ الأسودَ حول جبينها..

ممسكة طرفه بفمها..

عصرته.. وعقصته فوق الأذن اليمنى..

وتركت طُرَّته تتدلى على وجهها..

قالت.. نعقِد المِنديل الحريري فلا تصيبنا آلامُ الرأس..

ثم أمسكت بالطَّرْحة السوداء.. بالخِمار الأسود..

وبدأت تتعاون مع الفن.. مع الإتقان التراثي..

فإذا أمامي رأس يحمل عِمامة كعِمامة النساء التَّدْمريات..

فالمسافة شديدة الإمكان بين تراث نساء تدمر.. وبين نساء القلمون..

فكل شيء باطن.. إلّا الوجه..

هكذا مضت المرأة..

وكانت قد جلست قربي كالنَّعامة..

لتعقد العِمامة.

أغطيةُ الرأسِ والطرابيشِ للمرأةِ الدُّرْزيّة

تختلف أغطية رأس المرأة بين كونِها صبيّةً صغيرة.. أو امرأةً ناضجةً أو كهلة..

تضع النساءُ الميسوراتُ الطربوشَ الأحمر مع الاكتفاء بوضع (الحطّة) أو (الفوطة) ثم يضعن العِصْبة وتكون بيضاء اللون..

لكنّها قد تكون بلون (المسك) ويُدعى هذا اللون باللون (المِسْكِيّ) وهو لون أبيض شديدُ الجمال.. يقترب من لون العاج ولون المسك..

تستخدم (العصْبة) في أثناء العمل سواءَ كان منزلياً أم حقلياً كما تستخدم في حالات الحزن..

والمعروفُ أن العملَ تحت الشمس أو قُربَ التنّور.. أو الخروجَ المبكّر في البرد واختلافَ حرارةِ الجسم قد يُعرِّضُ لآلام الرأس التي تُخَفِّفُ (بالعِصْبة) وذلك بالضغط على الصدغين ودائرة الرأس كي يتخفف الرأس من شدّة وصول الدم إليه في حالات الألم..

والأكيد أيضاً أن العصْبة توضع في الحزن للغايةِ نفسِها.. وهي التخفيفُ من آلام الرأس المترافقةِ مع التوترِ والبكاءِ والحزن.. لكن هذا الاستعمال تطوّر وأصبح تقليداً وعادة..

أمّا لباسُ رأس الصبايا فهو أكثرُ زينة وأكثرُ ألواناً.. وتكون (الفوطة) أو (الحطّة) التي توضعُ فوقَ الطربوش الطريّ.. المعالَج؛ ناعمةً ومن الحريرِ الخالص..

ويحلو لبعضِ الجميلات تطريزَ هذه الفُوَط لتبدو أكثرَ أنوثةً..

ثم تتزيّنُ الفتاةُ بالذهب أو الفضة.. ويكون الذهب ليراتٍ أو أنصافَ ليراتٍ أو ربما ما يُدعى بالمخمّسات الذهبية.. ويتفاوت وضع الذهب أو الفضة أو مجرّد "الشناشل" بحسب ثراء الفتيات..

وتحاول المرأة الدرزية التلفّح بالمِنديل بحيث يغطّي فمها.. ويُظْهِر عينيها.. وقد اشتهرت نساء الجبل بجمال العينين..

ويضع بعضُهن مِنديلاً أسودَ مع (حطّة) أو (فوطة) أو (قمطة سوداء) إذا كُنّ في المراتب الاجتماعية العليا.. محتفظات (بغُرّة) تُظهر قليلاً من الشعر من تحت الحطّة، وقد يكون المنديل أبيض.

نساءُ الجبالِ السورية

■ الشملة

هي طربوش نسائي أسود، يُلفّ عليه ما يُدعى (بالشملة) وهي من حرير الصاية مشغولةٌ يدوياً.. وتكون سوداءَ مطرزةً برسوم من القصب الفضي توضع حول الطربوش..

ثم يوضع غطاء الرأس "الشاش" المنسدل.. أو يوضع الخمار الأسود الطويل المنسدل..

■ مِنديل الحرير القَزّ في جبال الساحل السوري

تختلف المرأة بين أن تكونَ متزوجةً أو عزباء.. هرمةً أو شابة.. فالسيدة المتقدّمةُ بالسن تضع المنديلَ المصنوعَ من حريرِ دودِ القزِّ الطبيعي دون مشغولاتٍ على الجوانب..

أمّا الشابةُ فتضع المنديلَ بطريقتين:

إمّا قطعةً واحدةً مشغولةً بالإبرة.. بتخريمات جميلة في كلِّ الجوانب.. ويوضع المِنديل مباشرة على الرأس ويُرمى طرفُهُ الواحدُ برخاوة فوق الكتف..

أو هو منديلٌ مشغولٌ بكاملهِ بصنّارةِ (الكروشيه).. وقد أصبح اليوم من الحِليّ النادرةِ الباهظةِ الثمن.

وقد تخلّت الشابات اليوم عن هذه المناديل الحريرية أو المشغولة إلّا مَنْ بقي منهن مقيماتٍ في الجبال الباردة الشامخة.. المطلة على المتوسط..

معاملُ الحرير في الدريكيش

داخلَ الخضرةِ المتراميةِ في منطقة (الدريكيش) في سورية.. تبدو للعيان أشجارُ التوت التي تتكاثر هناك. ومن خلالِها.. تظهرُ السطوحُ القرميديةُ لمعمل الحرير السوريّ هناك. حيث تُنْتَجُ أجودُ وأجملُ أنواعِ الحريرِ المأخوذ من شرانق ديدان (يرقات) القزِّ التي تعششُ فراشاتُها التي تكون ديداناً تتغذّى وتتشرنق وتنسِج خيوطَها الحريريةَ ضمن الشرانق.. لتتحوّلَ من ثمّ، وبعدَ انتهاءِ عملِها الحريري إلى فراشاتٍ تذهب بعيداً..

وقد انتشرت تربيةُ القَزّ في بلاد الشام منذ عهودٍ قديمة.. وانتعشت في العصر الأموي حيث كانت أنوالُ دمشقَ تنسِجُ أفخرَ أنواع الحرير (الدِّمقس) المعروفة اليوم (بحرير البروكار) المشهور في كلِّ أنحاءِ العالم.. والمعروفُ أنّ عدداً كبيراً من الفراشات الناسجة التي تُفرِز الشرانقَ يمكن حَلّها والاستفادة منها في صنع الحرير.

تتغذّى اليرقاتُ (بأوراق التوت) وشجيراتِ (الخروع) ونباتِ (الفول) وأشهرها (فراشةُ أطلس) وهي ذاتُ جناح أبيضَ عاجيٍّ وشفّاف. أمّا بيوض فراشات القَزّ فكرويةٌ ذاتُ غلافٍ مزركش.. وتبيض الأنثى من ٨٠٠ - ١٠٠٠ بيضة.. ثم تتغذّى اليرقات على أوراق التوت.. وتتعذّرُ داخلَ الشرنقةِ الحريرية سبعةَ أيام!

تنسِج اليرقة خلالها خيطاً من الحرير بطول ١٢٠٠ م.

وبعد أن تنسلخَ اليرقةُ عن البيضةِ تتحوّلُ إلى تلك "العذراء المكبّلةِ بالحرير".. ثم تتحوّلُ إلى فراشة..

والغريب.. أن البيوضَ تبقى على شجرة التوت حتى وصولِ ورقِ التوت إلى حجم ٥سم وذلك بدرجة ٢٦° فتفقِسُ.. ويستمرُ فقسُ البيضِ بقدرة الله تعالى سبعةَ أيام أيضاً.

وهكذا.. تتمدّد اليرقاتُ.. وتكبَرُ.. وتَقرِضُ أوراقَ التوت.. لتتشرنقَ وتصنعَ الحرير فالمعروف.. في كلّ أنحاءِ بلادِ الشام بمناطقها الساحليةِ والداخلية.. أنَّ نساءها يضعنَ خُمُرهنَّ من الحرير الخالص..

أمّا معامل الدريكيش فتلتقط الشرانق.. ثم تفْرِز خيوطَ الحرير وتُعدها لتُنْسَجَ في الأنوال.. وأفخرُها ما يدعى "الحرير الشاب"..

امرأةُ الجولان ولباسُ الرأس

تتلفّع.. وتدعو غطاء رأسها "المَلْفَع"..

هو خمارٌ أسود طويلٌ تضعه المرأة على رأسها لينسدلّ حتى ركبتيها.. ويكون من القماشِ الأسودِ الليّن الثخين..

ثم تربط فوقه "العِصْبة" وهي سوداءُ اللّون..

وبعدها.. تنطلق إلى الحقول.. إلى الهضبةِ الرائعةِ الخصبةِ كعيون الغزلان الباكية.. أمّا إذا شاءت الاحتفال.. فهي تضع عِصْبةً مطرّزة تدعى "الحَطّة" لتميسَ من ثمّ في ثوبها الطويلِ الذي يُدعى "الشرْش".. ثوبٌ قد يكون أسود اللون أو مطرزاً.. ذاك التطريزُ القريبُ من مطرّزات فلسطين..

أمّا الصبايا فيلتحفن بالغِطاء الأبيض.. المعقودِ عند الأذن ومارّاً تحت الذقن..

المرأةُ في حَوْران ولباسُ الرأس

لا فرق في حياة الحقول.. في جنوبيّ سورية بين خمارٍ وخمار.. عِصْبةٍ وأخرى.. لكن الفروق تبدو واضحة في الخصوصيات وأثناء الاحتفالات..

فللمرأة في حوران (شَبَكٌ) من الفضّة مزنَّرٌ بزنّار من الذهب تضعه على رأسها.. وتتدلّى من الزنار الذهبي المتلألئ على الجبهة المخمساتُ "الليراتُ الذهبيةُ" العثمانيةُ.. ولا تكتفي المرأةُ الجميلةُ بالشبكِ والزنار.. فلهذا الزيّ شباشيلُ من الحريرِ تُدعى "السفيفة"..

وكانت المرأة تربطُ مفتاحَ دارها إذا خرجت.. بواحدة من هذه الشباشيل واحدةٍ من "السفائف"..

أمّا في الحقل أو خلف التنّور.. فالخمار الأسود والعِصبة السوداء..

أخذت المعلومات من الأستاذ سليمان طعمة.. أبو خالد

العضو في مجلس الإدارة لجمعية المعوقين جسدياً..

غطاء الرأس الكتانيّ والقمطة

وهو خمارٌ مصنوعٌ من الكتّان.. يوضع فوقَ قطعةٍ تُمسِكُ شعرَ الرأسِ وتدعى (القمطة) وكانت ترتديه السيداتُ اللواتي يَقْطُنَّ في البيوتِ الكبيرةِ المتعددةِ الأقارب.. والقمطةُ تكون من القماش القطنيّ الناعم.. مثلثةَ الشكل تُرْبَطُ من أعلى الجبهة وتُعْقَدُ في قفا الرأس ممسكةً الغِطاء الأبيض الكبير.. وتوضع القمطةُ لعدّة أسباب..

- لعدم تسرّب الشعر وتساقُطِهِ في أثناءَ عمليةِ الطهي..
- لمنع تلوّثِ الشعرِ برائحة أبخرةِ الطعام..
- وللإمساك بالغطاء الأبيض الكبير..
- ولستر الشعر بطبيعة الأمر..

ولقد كان خمار النساء حتّى أواخر خمسينيات القرن العشرين يختلف بين مدينة وأخرى.. قريةٍ وأخرى.. فلكلِّ مِنطقَةٍ ألوانُ أُزُرِها.. وتشكيلُ خُمُرِها..

ومن ألوان الأزر:

البرتقالي - الأسود - الكحلي المخطط - الأزرق - الأحمر المخطط الداكن - إلخ..

البرقع

هو موجود في شبه الجزيرة العربية وبعضِ بلدان آسية.. وقليلٌ في بلدان أخرى..

وله أنواع تختلف من مِنْطقة إلى مِنْطقة.

- فمن البراقع ما هو تامُّ السوادِ يُتَّخذ فوقَ الدرّاعةِ ويُخفي كُلَّ الوجه.
- ومن البراقع ما أظهرَ العينين والحاجبين.
- ومنه ما أظهر العينين وشُدَّ فوق الأنف بجدائلِ الحريرِ حتى الجبين.
- ومن البراقع ما أخفى (الخشم) (الأنف) وأظهر العينين.
- ومنه ما كان مصنوعاً من المَعْدِنِ المشبوكِ مع الخِمار بجدائلَ من القطن.
- وللبرقع ألوانٌ متعددة.

قال الشاعر الهندي الشهير بيهاري لال (١٥٩٥ - ١٦٦٤م) عن البرقع:

عيناها المرحتان

من خلف البرقع

سمكتان تثبان

في ماء الغانج الصافي

وقد جاء في قاموس لسان العرب لابن منظور: البرقُعُ وجمعُهُ براقع وتلبسها نساء الأعراب وفيه خِرقان للعينين.

قال توبة بن الحُمَيِّر:

وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى تبرقعت   فقد رابني منها الغداةَ سُفورها

■ معانٍ للبرقع في القواميس العربية

البرقع الموصوص: صغيرُ العينين.

المُبَرقَعة: الشاةُ البيضاءُ الرأس.

المبرقِعة: غُرّة الفَرَس إذا أخَذت جميعَ وجهه غير أنّه ينظر في سواد، وقد جاوز بياض الغرّة إلى الخدّين من غير أن يصيب العينين.

■ البرقع الممسوك بالحرير أو الخزّ أو القصب

وترتديه بعضُ نساءِ الخليجِ العربيّ والجزيرةِ إلى اليوم..

وحسب ما ذكر الشاعر بيهاري لال.. فإن البرقعَ كان موجوداً في الهند قبل خمس مئة عام نتيجة التمازج الحضاري والديني بين أمم وقوميات آسية.

■ العِباءة

استطال الخمار إلى العَباءة.. التي تكون سوداءَ اللون غالباً.. وهي غيرُ الرداء..

توضع العَباءةُ:

إمّا على الكتفين لتُشْبِهَ الرِّداءَ.. ويُلَفُّ الخمارُ المتعدّد الألوان مستقلاً عن العَباءة، حولَ الرأس..

أو توضعُ العَباءة من قِمّةِ الرأس حتّى القدمين.. تُظهر جزءاً من الشعر أو تخفيه فيكون الخمار والرداء موحّدين.

أو هي عَباءة توضع فوقَ منديل أو خِمار قصير ينسدل على الوجه.

■ عَباءة مناطق الجزيرة السورية

ترتدي بعض نساء المناطق الشّمالية السورية العليا العَباءةَ السوداء.. يضعنها على رؤوسهن حتّى القدمين.. وقد يتركن مقدمةَ الرأس مكشوفةً أو يضعن عِصبةً سوداءَ ومقصّبةً يحزمنها تحت العَباءة.

■ الشادور

لعلّ الكلمةُ حضرت من (شادر)، والشادور كلمة فارسية لم أجدها في القاموس. وهي نفسُها ما يدعى "العَباءة" في سائر الجزيرة العربية وبلاد الشام..

والشادور يعني كلّ ما غطّى المرأة.. بقطعة واحدة، عدا الوجه..

ترتدي الإيرانيات الشادور.. كذا ترتديه نساءُ بعضِ قبائلِ أفغانستان والبشتون وهناك.. يكون متعدّد الألوان.. وأكثرَ اتساعاً.. وقد يكون مترافقاً مع البراقع.

■ اليشمك

ارتدته النساءُ التركيّات والمصرياتُ أيامَ حكمِ محمَّد علي باشا والأسرةِ الخديوية..

وهو مؤلف من "التربان" و "الخمار"..

وقد جاء ذكر التربان الذي يُشْبه القبعة أو العِمامة، وعليه قماش

الموصلي (الموسلين) المثبت بالثنيات المتلاحقة.. والتربان يخفي الشعر والأذنين..

أمّا الخمار الملحق.. فيكون من لون التربان نفسهِ ويغلِب أن يكونَ من قماش الموسلين الرقيق الذي يُلفّ مرّتين..

وهو اليوم يشكّل لوناً من "الحجاب الشرعي" بقماش أشد ثخانة..

■ الكاكوشنيك Kakochnik

غِطاء رأس بشكل التاج.. مأخوذ عن لفظة (كاكول).. والتاجُ مرصّعٌ له شكلُ هلالٍ يكاد أن يُكَوِّن نصفَ دائرةٍ مفرغة.. وغالباً يكون التاجُ ذهبياً أو فضّياً مطروقاً بالنمنمات والزخرفات، ويتدلى خلفَ هذا التاج خمارٌ طويل رقيق.. ارتدت هذا الزِّيّ النساء الروسيات والكرجيات والقوقازيات والجركسيات.. وغالباً ما تكون فكرة الخمار قد وصلت من منطقة "ما وراء النهر" حيث اتخذت كلّ قومية مسلمة زِيّها الخاص بها..

اللّاروس

■ قبعات الطوطوز العثمانية

كانت نساء الحريم في قصر يلدز أيامَ حُكم السلطان عبد الحميد الثاني يضعن على رؤوسهن قبعاتٍ تدعى الطوطوز، تتناسبُ ألوانُها مع ما يرتدين من ثياب.. وتكون هذه القبّعات قواعدَ لترتيب التسريحة..

أما خارجَ القصر.. فكان حريمُ السلطان وبقيةُ نساء القادة يضعن اليشمك الرقيق مُخفيات أفواهَهُنَّ.. بينما لم تكن النساء في عهد محمد علي باشا.. يخفين أفواههن بطرف اليشمك[١]..

(١) رسائل الأميرة زينب الحسنية.

■ الإزار الكتّاني الأبيض والنِّقاب لنساء لبنان في القرن السادس عشر إلى الثامن عشر

إذا خرجت المرأة من بيتها تأزرت بإزار من الكتّان الأبيض أو من القطن أو الحرير الأسود يَحْجِبُها حتّى يديها عن الأنظار..

وكانت تقنِّعُ وجهها بقطعة من قماش أبيضَ أو أسود..

أما الشعر فكانت تُلَفُّ حولَه شبكةٌ تمسك الذوائب(١).

■ لباس النساء المارونيّات اللبنانيات كما وصفه (الأب دنديني) موفد الحبر الأعظم عام ١٥٩٦م

الثياب طويلة بيضاء، أو زرقاء، أو بنفسجية.. والرؤوس تُستَرُ بمناديلَ تغطّي شعورَهُنّ.. وإذا صادفن غريباً سترن وجوهَهُن بتلك المناديل..

وكنَّ يلبسن العَصْبات المزيّنة بالحجارة الكريمة، أو نصف الكريمة..

وبعضهن يلبسن عرقيات في رؤوسهن رُصفتْ عليها نقود وقطعٌ ذهبيةٌ محكمةُ الصنع.

وقد يلبسنَ القلنسوات الطويلة (الطناطير).

ولم يكنَّ يخضبن شعورهن.. ولا يجعّدنها.. ولا يتخذن الشعور المستعارة..

وقد حملن أزياءهن من شمالي سورية معهن(٢).

---

(١) أميرات لبنان ص ١٢٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٨.



الطنطور

■ طُنطور الأميرات المَعْنيّات والشهابيّات اللبنانيات

اشتهرت الأميراتُ المَعْنيّات وزوجاتُ الأمراء المعنيين.. والشيخاتُ.. والمثرياتُ بوضع الطُنطور فوق رؤوسهن..

وهو حِلية أسطوانيةُ الشكل، أشبه بالقرن الطويل.. محددةُ الأعلى ولها صورةُ قمعٍ نحيل.. ويكون ارتفاعها عند العاديات ثلثي الذراع.. أمّا عندَ الأميرات فيكون على ارتفاع ذراع.. وغالباً ما كُنّ يحتفظن به في أثناء النوم والاضطجاع..

أمّا كيف يُلبس هذا الطنطور؟ يلبس فوق "طُربوش" من الفضّة أو الذهب المنقوش أو غير المنقوش.. وللطُربوش والطُّنطور ما يربطهما تحت الذقن.. أمّا في سمت الطُّنطور فيُطْرَحُ ما يُسمّى "الشنبر" وهو الملاءة التي تكون شفّافةً عند وجود النساء في المنازل.. وسميكةً عند خروجهن.. وتكون في الحالتين فضفاضةً مُهيبة. (نساء فينيسيا وشمالي إيطالية).

ويقال: إن الطُّنطور أُبْطل عام ١٨٤٨ وأبدل (بطَربوش خمري) يوضع عليه قرص من الذهب أو الفضّة..

تتدلى منه ثلاثُ عقائصَ (جدائل) أو (ضفائر) مشبوكةٍ بالفضة.. وتصل ذوائب الفضّة مع الشعر إلى عراقيب الأرجل فتطرِقُها بصوت خشخشات ناعمة!! في أثناء السير.

ويوجد نوعٌ من القرون أو الطناطير كان يُلبس من الرأس وعلى جانبه فيستُر الأذن ويتقدّم بصورة بارزة إلى ما بعد الكتف!!

وقد أصبح القرن شعاراً ولباساً لكلِّ المتزوِّجات من النساء اللبنانيات بعد أن انتشر..

ولا شك أنّه يعطي المهابة والجمال والطول والهفهفة للنساء بالرغم من ضريبته الثقيلة الرابضة فوق الرؤوس(١).

وقد وصف الأب "ماري جوزيف ده جيرامب" في كتابه "زيارة لأورشليم وجبل سيناء عام ١٨٣٢ ووصف طنطور الأميرة (بَدْر) كريمة الأمير قاسم نجل الأمير بشير الشهابي..

وهي التي صارت زوجة الأمير قيس بن قعدان شهاب قال:

ابنة الأمير قاسم في السادسة عشرة من سنها، نادرة زمانها في الجمال والتهذيب، تضع على رأسها قرناً طويلاً(٢)..

وصف رستم باز

طنطور زوجة الأمير (خليل الشهابي) وطنطور زوجة الأمير أمين (المير أمين) ابنتي الأمير بشير الشهابي قال:

لبستا الطاسة المنقوشة والطنطور الذي بطول ثلثي ذراع.. بل ذراع وهو بثخن ساق الرجل؟! ثم يستدق تدريجياً فيكون في ثخن ذراع رجل معتدل..

وفوق رأس الطنطور زرّ كبير مدبّب مصنوع من خيوط محوكة.. فيكون بذلك مشابهاً للمزارق.. ثم يصاغ له (شمسة فضّة كسر) (أي شرابة فضّية مخرّمة) طولها مقدار شبر.. تطلى بالذهب وتُرصع بحجارة كريمة أو بزجاج أحمر وأخضر وأصفر وأزرق! ثم كل ذلك فوق الجبهة.. وللطاسة (زناق) من نسيج تُشدّ تحت الحنك، وهو من قصب أو حرير يشتغله (العقّادون) ويربط تحت الذقن.

لم ينته رستم باز فيقول:

(١) أميرات لبنان ص ١٣٠.
(٢) أميرات لبنان.

■ الفأرة

ثم تربط (فأرة) وهي (مُنطر) أي نسيج من نقوش ملوّنة من (الأطلس).. طولها شبر محشوّة قطن.. تُمسكها شبكة من الحرير..

وفي رأس الفأرة، تربط كلّ واحدة بحلقة من الحلقتين فوق قفا الرأس..

وفي الطرف الثاني (قيطانتان) أخريان تربطان في ضفيرة الشعر.

■ الصفا

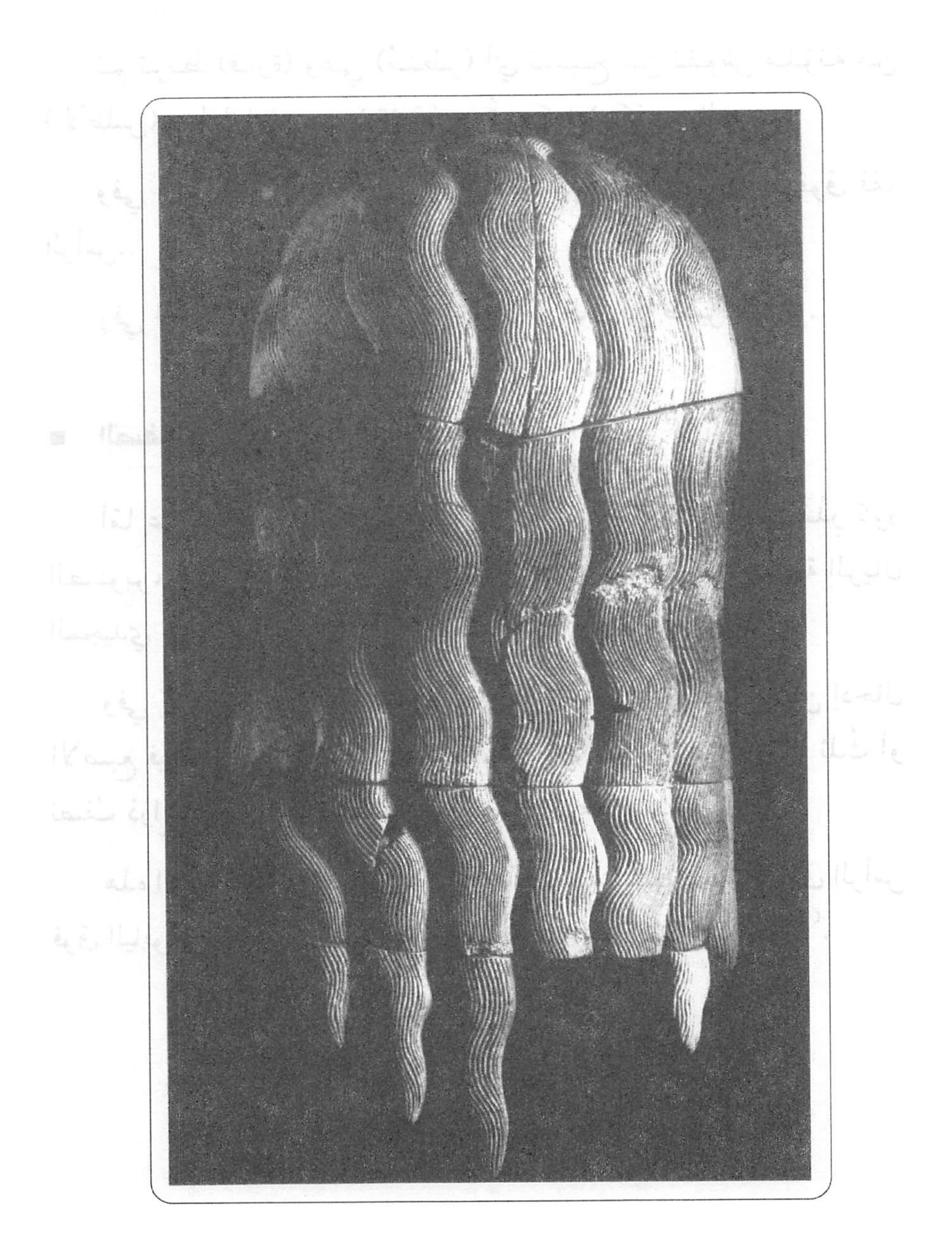
أمّا عن الطاسةِ - فيلتحق بها ثلاثةُ عقوصٍ، كل واحدٍ بقَدْرِ كوزِ الصنوبر، وهو من الفضّة المفرّغة، وله فم من أسفل من سعة الريال المجيدي ويُسمى (الصفا).

وفي كلّ فروة من هذه العقوص زر طويل مفرّغ "ثقيل" يمكن إدخال الأصبع فيه.. وتتدلّى ثلاثةُ بنودٍ من الحرير الأحمرِ القاني طولُها ثلثُ أو نصفُ ذراع.. وفي كل بند وشرابته خمسون درهماً!!..

هذه البنود يُجدل بها الشعر وتربط (الفأرة) فتثبت (الطاسة) فوق الرأس فوق اليافوخ.. ثم يُعْصَب منديلان مطرّزان بحجارة كريمة أو عادية[١].



(١) أميرات لبنان ص ١٣٦.



نحتيّة لجدائل شعر

شعر الأميرات الشهابيّات

كان الشعر يُقسم إلى قسمين أو فرعين:

فرع ينسدل على العنق..

وفرع يترامى جدائلَ تتدلّى حتى كعاب الأرجل..

وتنحدر مع هذه الجدائل أهداب حلزونية الشكل من الذهب أو الفضة..

وبالطبع.. تتمايل الجدائل وتتثاقل على طول القامات.. بينما تكون الرؤوس مزروعة بأسماط من اللؤلؤ وبنقود. وبأزهار طبيعية مختلطة معها ومنثورة بشكل بديع على تلك الشعور اللّماعة.

ولا يُعرف.. أهو أريج نباتات الجبال الشامخة التي تبخّ العطر البريّ باستمرار.. أم هو أريج المرأة المنبعث من عطرها ومن الأزهار العبقة التي تزيّن شعرها المزيّن باللؤلؤ والورد..

كتب هذا الوصف الشاعر الفرنسي (لامارتين) نقلاً عن أحاديث زوجته التي واكبت الأميرات والنساء في الشوف..

ولم يكتف لامارتين بل أتمَّ بأنَّ فتنة الزينة تظهر على صبايا الخامسة عشرة والعشرين إذ يضعن (طاسات الذهب)..

فما هي طاسات الذهب[1]؟..

---

(١) أميرات لبنان ص ١٣٢.

طاسات الذهب على رؤوس أميرات لبنان

هي طاسات مخرّمة تخريم أحقاق الفناجين الفضية.. تترامى منها سلاسلُ قصيرةٌ دقيقة عُلِّقت فيها (بلّوطات) من الفضة أو الذهب.. وعذبات من اللؤلؤ المنظوم تتماوج فوق أقفية الرؤوس!

ويمشين في دريبات الجبال.. أذرُعُهنَّ مثقلةٌ بالأساور.. واللؤلؤِ المنظوم.. وصدورهن مُجَيَّدة بالعقود المضفورة من أسماط اللؤلؤ والذهب..

وينابيع الجبال الشوفية داخل قصورهن.. والجبال ودروبها بين جناح وجناح..

فالأميرات لم يكنَّ يبدين زينتهن إلّا في بيوتهن سواء كنّ معنيات أو شهابيات أو سيفيات أو لمعيات أو أرسلانيات..

وكُن يذهبن إلى الحماميم في "دير القمر" تحت أسراب من السراديب الحجرية ذات الأقواس حتى بنى الأمير بشير الشهابي حمام قصر بيت الدين الشهير ذي التسع مقاصير(١).

الصنوبريات لشعر الأميرات

تغيّر زي الشعر فيما بعد إلى ما يُسمّى (الصنوبريات) وهي ضفائر من ذهب في شكل (السجق) والسجق كناية عن عذبات صغيرة من الحرير على شكل السُّجُق.. وهي تعلق على دائرة (السَّلْطة) وهي معطف نسائي ويشكل طرف المعطف بالطاسة أو الطرطور..

(١) أميرات لبنان ص ١٣٥.

تبدلت الأزياء بعد عام ١٨٦٠

فأصبحت الضفائر الطويلة الثلاث تُلَفُّ حول طَرْحات الرأس التي وضعتها كلّ نساء لبنان والطرحات بيضاء أو سوداء من (التول) أو المَلَس (الحرير).

واستقرّ الكهرمان واللؤلؤ فوق الصدور..



اليَشْمُك الزهريّ اللون

عند التوثيق.. لا يجوز إدخالُ الذكرياتِ في حيّز العلم أو القلم.. لكنْ "يشمك" جدّتي الزهري اللون.. يناديني كلّما تشرق الشمس فوق أزهارِ القَرَنْفُل.. لذا سمحتُ لنفسي بتسجيل وتوثيق هذا اليشمك الجميل..

كثيراً.. ما كانت تزورنا جدتي وهي القاطنة في بيروت (تركية الأصل) وكثيراً ما كانت تطلب مني مرافقتها إلى سوق (الحميدية).. فأقفِزُ مسرورةً، لأختار ثوبيَ الموردَ من بين الثياب.. ثم أتقدّم إليها معبِّرةً عن شكري بِلَثم ظاهرِ كفِّها.. وقد كان لثمُ ظاهر كفّ جدتي واجباً رسمياً لكلّ من يلقاها أو يودعها..

وبعد أن تكمل عادلة هندامَها.. أذكرُ أنها كانت تنتقي يشمكها الملفوف بشكل عمامة من قماش الموسلين الناعم والأكثرَ من الناعم.. كان الموسلين زهري اللون.. مطابقاً للون خدّيها.. وكانت طياته تتلاحق بشكل متناسق لتشكّل جماليةً لا وصف لها.. فوق قماشِ اليشمك.. أو ما كان يُسمّى (التوربان) عند جدتي، لأنّه دون نقاب أو خمار مسدول.. وكم كنت أتيهُ فخراً وأنا ممسكةٌ بيدها.. ونحن متجهتان نحو سوق الحميدية.. وبين حين وآخر كنت أرفع نظري لأتمتع بمرأى هذه المرأة التي كانت على ما تذكر طفولتي، شديدةَ بياضِ البَشَرةِ وسمينةَ القوام ببعض اكتناز..

ويُدهشني.. كان يدهشني هذا اللون الذي كان على رأسها.. لون يتنقّل بين أزهارِ الدّراق.. وأزهارِ المشمش..

وأمسك بيدها.. أخافُ أن تَفْلِتَ، هي ويَشْمكها منّي.. وتمسك "عادلة" جدّتي بيدي.. تخاف أن أفلِتَ منها مع طفولتي!! حتى مرَّ بنا الزمان.. فأفلتت جدتي العزيزة من يدي.. وذهبت، وأفلتّ أنا من بين يديها بعد أن أصابني التّرْكُ.. وراح اليشمك الذي يشبه زهر الدرّاق ولون خدّيها..

قُلْ للمليحةِ في الخمارِ الأسودِ ماذا صنعتِ بناسكٍ مُتعبِّدِ
قد كان شمَّرَ للصلاةِ إزاره حتّى قعدتِ له ببابِ المسجِدِ

الدارمي



الأختام

والتزيّن بالخاتم





الختم والخاتم

كان خاتم النبي ﷺ من الحديد الملويّ عليه بالفضّة.

الخاتم

كفّ الرسالة ليس يخفى حسنها وتمام حسن الكفِّ لبس الخاتم

عن كتاب فقه اللغة - للثعالبي

■ قيل في الخواتم

الخواتم أربعة:

الياقوت للعطش

الفيروز للمال

العقيق للسنّة

الحديد الصيني للحرز، وهو أمان من الخوف

۞ ۞ ۞

ذكر السلاقي أنّ رسول الله ﷺ كان يتختّم في يمينه، وقد تختَّم الخلفاء الراشدون في يمينهم بالخواتم.. من بعده إلى أن نقل معاوية التختّم إلى اليد اليسرى.. وأخذت الدولة الأموية بهذا التقليد.

ثم جاء السفّاح فنقل التختّم إلى اليد اليمنى، وبقي ذلك حتى أيّام هارون الرشيد، فنقله إلى اليسرى، وأخذ الناس بذلك.

❀ ❀ ❀

كان خاتم علي ﷺ من ورقٍ خاص، نُقِشَ عليه: «نعم القادر».

وكان لعليّ ﷺ خاتم نُقِشَ عليه: «الله الملك.. وعليٌّ عبده».

❀ ❀ ❀

ولما بلغ عمر بن عبد العزيز أنَّ ابنه اشترى فص خاتم بألف دينار كتب إليه: عزمت عليك إلّا ما بعت خاتمك بألف دينار، وجعلتها في بطن جائع.

وكانت نساء العرب تتزيّن بالخواتم كما الرجال.

❀ ❀ ❀

■ خاتم النبوّة

هو إشارات إعجازية تتمثّل في مجموعة مما يُسمّى (الخال) تكون موجودة تحت غضروف كتف الأنبياء في منتصف كواهلهم.. وتكون بشكل الخاتم في مواضعها، وتوحي بأن الله اصطفى نبيّه بهذه الظاهرة، فأُسميت هذه الوحمات.. أو الشامات الظاهرة المعقودة كالخاتم تحت الكتف (بخاتم النبوّة).

وفي حديث الترمذي الذي رواه عن أبي موسى في قصة الراهب بحيرى أنه قال لجماعة من قريش: إنكم حين أشرفتم على العقبة لم يبق

من شجر ولا حجر إلّا خرّ ساجداً.. ولا يسجدان إلّا لنبيّ.. وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل غضروفة كتفه، مثل التفاحة.

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال: رأيت خاتماً في ظهر الرسول ﷺ كأنه بيضة حمام[١].

۞ ۞ ۞

حدثنا يحيى بن يحيى.. أخبرنا عبد الله بن نُمير عن عبيد الله (ح) وحدثنا ابن نمير قال: حدثنا أبي عن عبد الله عن نافع عن عمر قال: اتخذ رسول الله خاتماً من الورق[٢] فكان في يده، ثم في يد أبي بكر، ثم كان في يد عمر، ثم في يد عثمان، حتى وقع منه في بئر أريس، وقيل: سقط من يد معيقب في بئر أريس. وكان نقشه (محمد رسول الله) على ثلاث أسطر تقرأ من الأسفل إلى الأعلى[٣].

حديث مسلم (٢٠٩١) في الخواتيم.

وحدّث ليث عن نافع عن عبد الله: اتخذّ رسول الله خاتماً من ذهب، فكان يجعل فَصّه في باطن كفّه إذا لبسه، ثم إنه جلس على المنبر فنزعه، فقال: إني كنت ألبس هذا الخاتم، وأجعل فصّه في داخلْ.. ثم رمى به وقال: «والله لا ألبسه أبداً»[٤] فنبذ الناس خواتمهم الذهبية.

وهكذا أجمع المسلمون على لبس خواتم الفضّة.

وقد قال النبي ﷺ إنّي اتخذت خاتماً من فضّة، ونقشتُ فيه «محمد رسول الله» فلا ينقش أحد على نقشه، وقد اتخذه حين أراد أن يكتب إلى

---

(١) الموسوعة الإسلامية الميسّرة ٥/ ٩٧١.
(٢) الورق: الفضة.
(٣) رواه البخاري رقم ٥٥٢٧ و ٥٥٢٨ في الجهاد والسير. وهو في سيرة ابن هشام.
(٤) شرح صحيح مسلم للإمام النووي، د. مصطفى ديب البغا رقم ٢٠٩١.

الروم (أو العجم) وهم لا يقرؤون إلا كتاباً مختوماً[١]. وكان ذلك حين رجع ﷺ من الحديبية.

وقال العلماء.. لم يأمر النبيّ بذلك.. لكن سبب النهي هو منع للتقليد، وإثارة قول لم يقله ﷺ.

وعن أنس: اتخذ ﷺ الخاتم حين أراد أن يختم كتابه إلى كسرى وقيصر والنجاشي.

كان الخاتم في الخنصر[٢]

وكان فصّ خاتم الرسول ﷺ حبشياً[٣]

كان لرسول الله خاتمٌ من فضة في خنصره الأيمن (وقيل: في الأصبع اليُسرى).

وفي حديث آخر كان الفصّ من العقيق.

وقد نُهِي عن التختّم بالوسطى.

قصة الخاتم والختم

بل هي قصة الختم.. والخيتام.. والأختام.. والخواتم والخواتيم

ورد ذكر الخاتم في القرآن الكريم في ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠]

وورد ذكر الختام في ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٨٣/ ٢٦].

ووردت كلمة مختوم في ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٨٣/ ٢٥].

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) صحيح البخاري رقم ٥٥٣٦ من حديث أنس.

(٣) أي: جزع أو عقيق.

فمن أين بدأت قصة الخاتم؟..

هذه الكلمة التي تحمل في معناها الرمزي البداية والمعرفة من الداخل.. وتحمل معنى النهاية التي لا تتوقف، بل تستمر هي نفسها معلنة عمّا قبلها.. ومتفردة عن غيرها بصفة الدائرة.

صحيح أن الخاتم يوضع في أصابع اليد.. اليد المتحركة التي تضبط حواس من يقابلها.. نَظَراً إليها.. لكن الخاتم يعدّ اليوم الحِلية التجميلية الأكثر شيوعاً في العالم.. بحيث يتفنن بأشكاله المصممون.. وتتراكض في إثره نساء الأرض ورجالها، وهم يحمّلون خواتمهم بالأحجار الكريمة، ويصوغونها من الذهب والفضة والبلاتين وغير ذلك من المعادن..

هذا الخاتم الذي عرفته الحضارة المصرية الفرعونية، وعرفته حضارات ما بين النهرين، وحضارات بلاد الشام والجزيرة العربية، بل عرفته بوضوح حضارات الشرق الأقصى، ومن ثم عرفته إسبارطة والرومان.. دون أن تتخلّى عنه أيّ حضارة سابقة أو لاحقة، فما قصة الخاتم.. ومن أين بدأت؟!

ماذا عن الخاتِم.. عن الختام.. عن الخيتام.. وعن الختم؟؟

في **القاموس المحيط** ..وفي فعل (خَتَمَ) جاء تعريف الخاتم على لسان أبي إسحاق. قال:

معنى خَتَمَ و طَبَعَ في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من ألّا يدخلَه شيء!

والخاتَم: ما يوضع على الطينة (يقصد هنا بالطينة طينة الآجر الصلصالي).

والخِتام: الطين الذي يُخَتَمُ به على الكتاب)، فهو الطابع والعلامة.

وجمع الخاتم: خواتم و خواتيم

والخاتم.. مانع الأعراض والعاهات.. لأنه يصون الكتاب ويمنع الناظرين عمّا في باطنه!

۞ ۞ ۞

يتقدم ابن برى من عمق التاريخ منشداً:

يا هند ذات الجورب المنشّقِ أخذت خيتامي بغير حقٍّ

فلنحاول إيجاد صلة وصل بين المعاني العربية في القاموس وكلمة (الخاتم) التي هي حلقة مستديرة من معدن عليها فصّ، أو هي من دون فص.. توضع في الأصبع.

الأختام

إن التطور التاريخي للحضارات البشرية يفسّر لنا الأمر بمنتهى الوضوح.. فقد بدأ استعمال (الأختام) مع بداية الحضارات المُنَظّمة التي تعتمد على إفراز السلطة ضمن نظام حكم معيّن.. وبدا ذلك واضحاً في حضارات بلاد الشام وبلاد الرافدين، وأشهرها عدّاً لا حصراً: حضارة إيبلا.. حضارة ماري.. وحضارة أوغاريت، وحضارات ما بين النهرين العليا والسفلى، وبما أنه كان من الضروري أن يكون لكل أمر أو رغبة ملكيّة سريّة تامّة وأهميّة قصوى.. ونهائيّة تنفيذية.. فقد اتخذ الملوك القدامى أختاماً خاصة بكلِّ مَلِك.. كانت تُختم بها الرسائل الملكية التي تُظَهَّر وترسل إلى الملوك الآخرين أو إلى الأمراء القائمين على الممالك أو إلى الكهنة والوزراء.

وعند وصول الرسالة وفَضِّ خَتْمِها يكون محتواها مُلْزِماً وقطعياً ومعمولاً به دون نقاش.

وهكذا وجدت الأختام الأسطوانية التي كانت قوالبها مصنوعة من الصلصال المشوي (حضارات بلاد الشام) أو من (الطينة) كما عرفها

العرب.. ثم تطوَّرت وصغرت مع الأيّام حتى أصبحت خواتم توضع في اليد عليها نقش ختم معين..

بل أصبح لكل مملكة أو إمارة «خاتم مخصص» يدعى «خاتم المُلْكِ» أو «خاتم الإمارة» أو حتى «خاتم الأُسَرِ النبيلة» يتناقله الآباء عن الأجداد، و الملوك الجدد عن الملوك القدامى.

في الحضارات القديمة كان لكلِّ ملك ختمه الخاص.. بل لكل مسوؤل عن طعام أو قمح أو غير ذلك، ختمه الخاص..وكان حامل أختام الملكة حتشبسوت يسمى (نحبسي) وعلى سبيل المثال[١]..

وبحكم التبادل التجاري والثقافي والحربي بين ممالك الخابور.. وممالك بابل وأوروك كان موضوع الأختام متعارفاً عليه في تلك الممالك.. وذلك قبل (العصر الحديدي) التي عرفت فيه أوّل أبجدية.

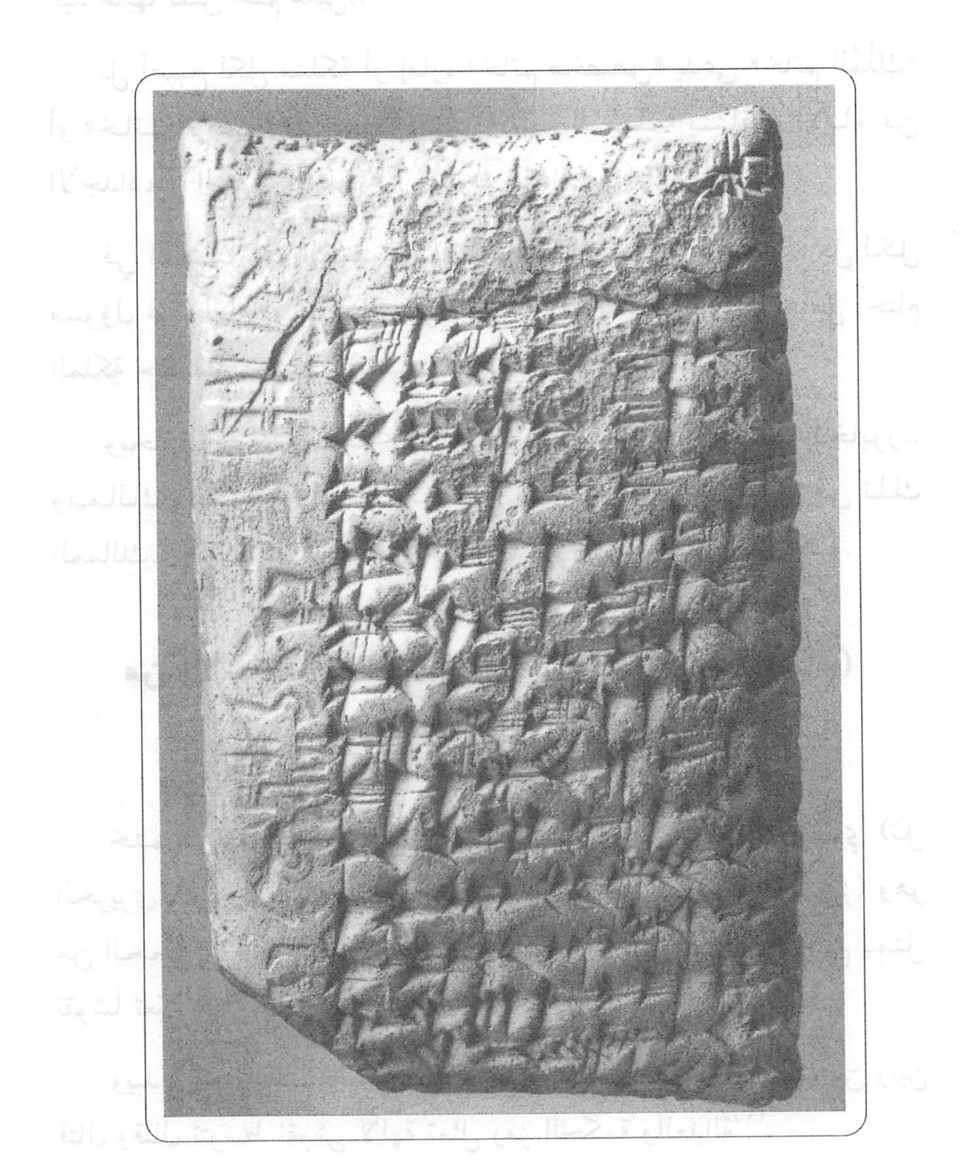
من الأختام المكتشفة في سورية (بلاد الشام) وفي بلاد الرافدين

ختم موجود في متحف دمشق اكتشف في ماري أو معري (تل الحريري). ويعود إلى العصر XXIV - XXIII قبل الميلاد (عصر البرونز) وهو من الحجر الأبيض بطول ٣,٥ سم وعرض ٢,٣ سم. هذا الختم يمثل نقوشاً تعبّر عن أساسيات القوة التي تحكم العالم.

ويبدو على الختم نقوش لقتال الحيوانات والأبطال الأسطوريين وبين قتال وقتال تتوسط نقوش لآلهة تمثل رمز الحكمة والعدالة[٢].

(١) كتاب: زوجات الفراعنة، ليونارد كونرمل.

(٢) كتاب: Syrie - uune patrimoine inedit معهد العالم العربي -باريز- فرنسة ١٩٩٥م: لا شك أن هذا الختم كان ختماً ملكياً في ماري.. تُمهر به الأحكام =



الختم

■ ماري (مَعْري)

كان ختم الملك يستخدم في الموافقة وعدم الموافقة على أحكام الإعدام.. ولقد كان الكهنة يتجاوزون أحياناً الرسائل الملكية المختومة.. وعلى سبيل المثال الرقيم الصلصالي الصادر عن كهنة معبد (حيت) بإيقاع (عقوبة النهر الإله) L'ORDALIT على من مارس السحر. ولقد أُرسل اللوح الصلصالي إلى الملكة (شيبتو) زوجة الملك (زمري ليم) في ماري وقد حَمَل هذا اللوح.. فيما بعد الرقم ٧٥٣ كأثرٍ قديم.

أمّا نهاية اللوح فتقول:

ولو وصل إليَّ زمرة من الناس يتوجب عليهم الغوص، لا يجب أن يصلوا إلى هنا دون لوح من طرفكم(١).

■ ختم أو خاتم السلطة في المبادلات التجارية

لاحظنا أن الختم الأسطواني الذي يمثّل السلطة الملكية هو الذي كان يستعمل في البداية:

- تُخْتَم به الرسائل الملكية
- تختم به عمليات البيع والشراء

وعلى سبيل المثال كان (لأخت ملكو) زوجة الملك نقمد الثاني في أوغاريت، وهي أمّ الملك عمّيشتمرو الثاني ختمها الخاص تشتري به غراس الزيتون والمعاصر. وتُصدر به أوامرها الملكية..ورسائلها.. وأهم

= القضائية والمالية. والجرمية والإدارية والاقتصادية.. وكلّ ما يصدر عن القصر الملكي.

(١) من قصة «نساجة ماري» للمؤلفة.



ختم من العقيق

هذه الرسائل تلك التي أرسلتها إلى ابنها مختومة بختمها، وكان من جرّاء ذلك عملية طلاق كبرى بين الملك الابن وزوجته بنت ملك عمّورو.

۞ ۞ ۞

■ والختم تختم به جرار الزيت

وعلى سبيل المثال الجرار التي أُرسلت بالمراكب النهرية من أوغاريت ومملكة يمحاض (حَلَبو) إلى زمري ليم ملك ماري (معري).. وكانت الجرار مختومة كي لا تسرق ولا تبّدل.

- تختم به جرار الجعة والنبيذ المرسلة كتجارة بين الممالك القديمة
- وبطبيعة الأمر كانت المعاهدات والأحلاف تختم بأختام الملوك..

الختم والخاتم الأسطواني الجميل في إيبلا الألف الثانية ق.م

أمراء وملوك وملكات

أحبوا الذهب في إيبلا

ولعلّ أحدهم أو إحداهن كان حجر خاتمه من العقيق أو اليشب

لكنّه حجر أسطواني عليه نقش متواتر

يمثّل نجوماً.. وشموساً متكرّرة

وكان يستعمل كختم خاص لهذا الأمير

أو تلك الأميرة

أو لذاك الملك[١].

(١) الخاتم موجود في متحف حلب / سورية ١٠٥٩٢

▪ ختم مملكة قَطْنا. عاصمة العاصي

اكتشف في مملكة (قطنا القديمة) العديد من طبعات الأختام بالإضافة إلى الختم الأسطواني في قطنا.. والأختام الأسطوانية هي الأقدم. وختم قطنا ختم وحيد يحمل تصاوير لملك في وضعية الوقوف وأمامه وثنان بينهما جذع من النخيل ورمز للقمر، كذلك هنالك تصاوير لأبي الهول. ويتوسط التصاوير أسد كبير[١].

في الختم

- عُرف آل مخزوم بالثراء في الجاهلية وفي الإسلام. وقد مرَّ عثمان بن عفان (رض) بمجلس لبني مخزوم وقد تخَتّموا، فسلَّم عليهم وقال: إنّه ليعجبني ما أرى من جمالكم ونعمة الله عليكم.

- وزعموا أنّ قوماً قعدوا يذكرون الأغنياء من قريش فقال أحدهم: (المغيرة بن عبد الرحمن) فقال له القوم: وهل للمغيرة من مال؟ فقال الرجل أليس له أربع بنات وأربع أخوات.. وكان المغيرة يقول: لا أزوج كفؤاً إلّا بألف دينار.. فكان إذا خطب إليه الكفؤ أحضر المال فيزوّجه بعد أن يأخذ المال ثم يقول له:

اختم عليه بخاتمك.. وكان كلّ طلبه عند تزويج بناته مع نفقة سنة دفع صداقها مختوماً بخاتم الزوج، ثم يقول الأب لابنته:

هذا لك.. هذا مالك، وما جهزناك به صلة منّا لك..[٢][٣]

---

(١) عاصمة العاصي - فنون وآثار مملكة قطنا القديمة. موقع المشرفة. التعاون السوري - الإيطالي.

(٢) أي إنّه كان يجهّز بناته.. ويعطيهن مهرهن كاملاً يتصرفن به.. وذلك من ماله الخاص.

(٣) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي، الجزء السابع، ص٤٤٣، ط أولى، بيروت ١٩٧١.

هي قصة قابلة للتحليل من عدّة نواح.. لكننا سردناها لتثبيت وجود (الخاتم) أو (الختم) لدى بعض المتنفذين والأثرياء.

فما بداية التختّم؟ هل كانت في سبيل التعريف أو كان تثبيتاً للملكية.. أو كان السبب الأول (للأختام) التزاماً يُثَبِّت هيبة الحكّام.. أو كانت الأختام توضع لحفظ ما ختمت به. أو كانت تعني الانتساب إلى دولة ما أو قبيلة ما؟

وما علاقة الوسم.. أو الوشم بالختم؟

وبعد.. كيف انقلبت كل تلك المفاهيم إلى حِلّي تزينيّة.. أو حلّي للهيبة والسلطان أو إظهار للمال والجاه.. أو هي في بعض معانيها وأشكالها الحصريّة - كما في خاتم الزواج - تمثّل التزامات يقرّها المجتمع.. ويحميها الإنسان.. فيكون الخاتم هو البداية ووصولاً إلى النهاية.

وكان الخاتم.. أو الختام بمثابة التوقيع اليوم. ويتمثل بحفر رمزٍ أو كلمة أو عبارة صاحب الخاتم..

أختام الأمراء والأميرات

كما ذُكِرَ سابقاً.. فقد اتخذّ الأمراء والأميرات وكبار رجال الدولة، كلّ منهم ختماً خاصاً به للضرورة.. ثم تقليداً للملوك، وحرصاً على كتمان الأسرار وتأكيداً على صكوك التمليك. فقد ختمت على سبيل المثال والدة «الملك عميشترو الثاني» ملك أوغاريت وتدعى «أخت ملكو» بعد شرائها لحقل شاسع من الزيتون - ومهرتْ عقد البيع بخاتمها الخاص.. وكان ذلك في أوغاريت عام (١٢٦٠-١٢٤٠ ق.م) وقد سيّرت «أخت ملكو» الدولة بعد وفاة زوجها «نقمد الثاني» بل استمرّت باستعمال ختمها حتى في مدّة حكم ابنها الذي كان ما يزال صغيراً.

وقد ورد في الوثيقة الصلصالية: (PRU. 111. 10. 44) ما يدل على أنَّ ختم الملك يدّل على إرادة الملك..[١]

وبالطبع فإن الختم كان يعمل على عدّة أشكال؛ منها الختم أو الخاتم المستدير في الأصبع ومنها الختم (السلندري - المستدير - الأسطواني)..

❀ ❀ ❀

■ الناس يقلّدون ملوكهم

ثم.. قلّدت الطبقات الاجتماعية ملوكها وأمراءها.. حتّى انتشر الخاتم فيما بعد، وأصبح حلية للنساء والرجال معاً. بعد أن تحول من الخاص إلى العام.. وبهذا التحول فقد أهميته الرمزية ليتحول إلى حلية.

خاتم رسول الله ﷺ[٢]

ذكر أنَّ خاتم رسول الله ﷺ كان من الحديد الملوي عليه فضّة، ولقد نهى رسول الله ﷺ الرجال عن التختّم بالذهب. وفي الحديث: «التختّم بالياقوت ينفي الفقر».. بمعنى أنَّ الياقوت يساعد، بثمنه المرتفع، وقيمته النادرة، إذا بيع، على التخلّص من الضائقة المالية.

وقيل في الحديث: إنه ﷺ نهى عن لبس الخاتم إلّا لذوي السلطان.. أي: إنه نهى لبس الخاتم لغير حاجة وللزينة المحضة.. أو للتفاخر بالثروة..

ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يتختّم بخاتم من الشَبه فقال ﷺ: «ما لي أجد فيه ريح الأصنام» (والشَبه هو السَبَج obsidiane) وذلك لأنّ

---

(١) «مجتمع أوغاريت» شيفمان
(٢) جامع الأصول ٥/ ٤٠٢

الأصنام كانت تتخذ من الشبه أو السبَج، وهو أسود جيد الصقل. وقيل: إنّ خاتم عليّ (رض) كان من الورق.

والخاتِم.. والخاتَم من أسماء النبي ﷺ[1].

الختم، الخاتم الصغير
ختم الفلّاح والمحراث والبقرة

يغلب أن يكون قد جاء من حضارة قديمة في سورية.. ولعلّه وجد في أطراف مدينة حمص.. وهذا يعني أنّه ينتمي إلى مدينة قَطْنا القديمة..

«تقدّم الفلّاح من الرجل.. كان الرجل مهتماً ومندهشاً من هذه الدكاكين الصغيرة المنتشرة في السوق القديم.. دكاكين تحتوي على كل حكايا ألف ليلة.. وتنحصر فيها كلّ العصور التي تلاحقت على هذا المكان الشرقي..

تقدم الفلّاح.. هل تشتري خاتماً صغيراً أيّها السيد؟..

ونظر الرجل إلى الخاتم يتفحصه فوجده قطعة أثرية تستحق الاهتمام.. تمّت عملية الشراء والبيع بسهولة.. واحتفظ الشاري بهذا الخاتم القديم.. القديم قدم المدنيات والحروب والثورات والمجازر.. والجديد الباقي مع زروع القمح والشعير.. لأنّ الخاتم لم يكن خاتماً، بل كان ختماً..

أخذنا البلورة المكبّرة ونظرنا.. فإذا الختم يَبْرُز ويتجلّى.. موّضحاً صورة مزارع وراء محراثٍ تقوده دابّة قد تكون بقرة أو غير بقرة.. ممّا يُسمّى في بلاد الشام «بغلاً»، وتبدو سنبلة قمح ترمز إلى الخصب والمدى.. وكلّ هذه اللوحة الجميلة منقوشة على دائرة من الحديد ملصقة بدائرة الخاتم الصغير الذي يدل أنه كان إمّا لسيدة ذات أطيان وسهول

---

(١) المستطرف في كل فنٍ مستظرف - للأبشيهي المحلى ١١٢/ ٣٠

قمح.. أو كان يوضع في خنصر كاهن ملكي يمهر بهذا الختم ما يرد مملكته من ناتج قمحها.. «إنه ختم الفلاح والمحراث والبقرة» المُكتشف صدفة في قرية من قرى حمص.. والمصنوع برمزية وسذاجة الإنسان آنذاك.. وبجمالية تفوق الوصف».

نزعنا المكبّرة.. وأعدنا الخاتم إلى صاحبه.. لنقفز من جديد.. نحو الألفيات الجديدة الحضارية السورية القديمة(١).

ختم الوعل

احذروا الاقتراب من غابتي

فمئات الوعول تتجوّل فيها..

فأنا.. مالك الأرض.. مالك الغابة.. مالك الوعول..

ها هو ختمي الحديد الأسطواني الصغير النحيل

يمثل حقّي في امتلاكي لكلّ ثمار غابتي

فلقد نقشت على ختمي هيئة وعل يأكل من شجرة..

وجعلت ختمي شديد الصِغَر بحيث لا يقلّد(٢)

وإنّي أحذركم.. ولا أحذّر الوعول..

فكل صادر من مملكتي.. مدموغ بختمي الأسطواني هذا.. يكون من نتاج غابتي وثمري وصنوبري..

فاحذروا الاقتراب.. فأنا أعرف ختامي جيداً(٣).

---

(١) الختم من مجموعة الأستاذ أديب الصيداوي.

(٢) ٣سم هو طول الختم الأسطواني

(٣) من مجموعة الأستاذ أديب الصيداوي.

الختم الجاحظ للعينين

شبيه بتمثال إيبلا الشهير «الثور الإنسان»، لكنّه ليس من طينة التمثال الشهير.. وليس من معدنه.. ولا هو دقيق كدقته.. فهو الأقدم.. الغارق في القدم.. الداخل في العصور الحديدية. والمار في العصور البرونزية.. والمخبأ في العصور الذهبية.

كم يخفي هذا التراب؟

الإنسان والعظام والمجوهرات وحَبّ القمح وجذور الأشجار الضخمة.. كم يخفي من الأسرار والتفسخات والآلام والخُطا.. ويخفي اللُقى!

وها نحن أمام واحدة من هذه اللقى العجيبة.. فالثور الصغير الذي لا يبلغ أكثر من ٣سم جالس على قوائمه.. أمّا رأسه فشديد الاستدارة قد يشبه رأس الإنسان، أمّا العينان المنحوتتان منهما فجاحظتان.. كتلتان ملتصقتان.. في رأس هذا الكائن الذي صُمّم كختم يختم بقوائمه الأربع وهو جالس.. وعيناه الجاحظتان تلاحظان في كلّ الاتجاهات[١].

ختم رُسْتَمْ

فتح (بيجن) الرغيف النظيف الذي يغلّف الدجاجة المشوية التي أحضرتها (منيجة) ضمن قماش أبيض.. ثم بدأ يأكل.. وقلبه مليء بالأمل وهو في سجنه.. لكن قلبه كان مليئاً في الوقت نفسه بالترقّب والحذر.. حتى وجد السكين (anneau) المخفي داخل الدجاجة. وعندما تفحص الختم (sceou) قرأ الاسم الذي يحمله.. فابتسم من الفرح والدهشة..

(١) مقتنيات الأستاذ أديب الصيداوي.

كان ختماً من الفيروز، كان (رستم) قد نقش بخيوط دقيقة من الحديد.. اسمه عليه[١].

«منيجة.. صديقتي وزوجتي.. إن هذا التاجر الصائغ الذي أعطاك هذا الختم.. قدم من إيران إلى طوران خصيصاً من أجلي».

■ خاتم شاوشتار

إنها شمس مجنحة يحملها اثنان من الإنسان - الثور. منقوشة على [خاتم شاوشتار] الشهير، وهو ختم ظهر مثله على **أختام (كركوك)، وعلى أختام حجرية وجدت في (تل حلف)**[٢].

- وأبقى الملوك والأمراء معهم بشكل دائم خواتم فيها (الفاذِ زهْر) وهو حجر مضاد للسموم، قيل: يتكون من مرائر الأيائل. وإن مسحوق هذا الحجر يسحب السُّم من الجسم ويمتصه.. فكان الملوك إذا أحسّوا بالتسمّم تناولوا سحالة حجر (الفاذِ زهر).

- ولعلّ النقيض وارد إذ إن الكثيرين من الملوك والوزراء والقوّاد القدامى كان لهم خواتم مليئة بالسُّم الزعاف، يتناولون منها السُّم إذا أهينوا أو تعرضوا للتعذيب وامتهان الكرامة..[٣]

■ خاتم أوروك «الأمير الراعي»

عثر عليه خلال أعمال التنقيب في مدينة (أوروك) (الوركاء) وهو عبارة عن ختم نقش عليه رسم بقرة، يُقدَّم لها سنبلة من القمح أو الشعير. وإلى

(١) ترجمة عن كتاب Le livre des rois وانظر الفردوسي.
(٢) تموز لأنطون مورتكات ٢٣٦.
(٣) المصدر نفسه ٢٣٦.

جانب البقرة سنبلة ما زالت منتصبة فوق الأرض.. أمَّا من كان يُقدم السنبلة للبقرة فهو «الراعي الأمير» أو «الملك الراعي» ويرافق الأمير الراعي خادم بتنورة قصيرة. والختم هو ختم ملكي.. مليء بالرموز.. إذ يصبح الملك هو الراعي لِشِياهِ الربّة إنانا أو إي - نانا.. وقد نقل الختم إلى متحف بغداد[١].

■ خاتم جمدة نصر

ختم من أجمل الأختام.. يمثّل شجرة الحياة، بين حيوانين.. وقد نُقِشَ الختم بشكل نافر على حجر أسطواني الشكل.

■ من أختام حضارة ما بين النهرين الجنوبية

قاهر الحيوان: ختم يمثّل قاهر الحيوان بين سَبْعَيْن، أو هو قاهر الحيوان بين بقرتين وحشيّتين، وهو أسطواني/ كما نقش سبع وثور في صراع على ختم آخر أسطواني الشكل.

هذه النقوش تمثّل غالبية أختام حضارة ما بين النهرين السفلى.



■ مجموعة نِؤِّيل NEWEEL

وهي مجموعة من الأختام.. أهمّها ختم تبدو لنا فيه نعجتان واقفتان متقابلتان تمسكان بجذع شجرة الحياة.. وضمن هذا الختم نقش لزهرتين ثمانيّتي البَتَلات.

---

(١) تموز لأنطون مورتكات ١٠١.

كانت الأختام تُدحرَجُ في الصلصال الطريّ قبل وضعها لتجفف.. فتصبح الرسائل غير قابلة للكسر إلّا من قبل من توجهّت إليه.

إنها تعابير واضحة داخل رموزها.. الأرض.. الشجرة.. الحياة والرغبة في استمرار البقاء.. إضافة إلى الفنّ المتمثّل في الزهرتين اللتين تمثّلان الازدواجية.. والثمانية في الاتجاهات. ورسم هذا الختم موجود في كتاب «تموز»..[١]

الختم الالتزام

■ حلف المُطَيَّبين

لمّا هلك عبد مناف نافس أبناؤه بني عمّهم في مناصب الإشراف على مكّة والكعبة.. وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً.. أمّا بنو عبد مناف وأحلافهم فأحضروا جفنة مملوءة طيباً فوضعوها عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، وتعاقدوا وتحالفوا ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم فسمّوا بالمطيَّبين[٢].

■ حلف لَعُقَة الدم

أخرجت بنو عبد الدار ومن كان معهم جفنة من دم فغمسوا أيديهم فيها، وتعاقدوا ألّا يتخاذلوا فسُمّوا الأحلاف أو «لَعقَة الدم». وتهيأ الطرفان للقتال.. ثم تداعوا للصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة وأن تبقى الحجابة واللواء والندوة بيد بني عبد الدار فرفضوا

(١) المصدر نفسه ١٤-١٥.
(٢) أسواق العرب. محمد عرفان جتمور.

ذلك. وبقيت الرفادة، والإنفاق على الكعبة في يد هاشم، ثم المطّلب بن عبد مناف، ثم عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف جدّ النبي ﷺ.

والرفادة: طعام كان يصنع للحاج على سبيل الضيافة.

والسقاية: جمع الماء من آبار مكّة، وحمله على الإبل، وسكبه في حياضٍ من الجلد توضع في فناء الكعبة، وتُحلّى بشيء من التمر والزبيب ليشرب منها الحجيج.

الحجابة: هي حجابة الكعبة، وحمل مفاتيحها.. وظلّت بيد بني عبد الدار ثم عثمان بن طلحة حين فتح النبيّ مكّة المكرّمة[١].

■ الرَنْك

لفظ فارسي معناه اللّون.

والمقصود بالرنك ما اتخذه الفرسان والسادة الإقطاعيون من «شارات» واحتفظت بها أسرهم (شعار الأسرة) أو الإمارة أو المدرسة.

استعمل اللفظ في مصر والشام والشرق الإسلامي في العصور الوسطى. بمعنى الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له. للدلالة على وظيفة الإمارة التي تعيّن لها. فيكون

رنك الدوادار (الدواة والمقلمة) أي رنك الكاتب.

رنك السلاح، دار القوس (السلاحدار).

ويجعل الأمير ذلك الشعار دهاناً على باب داره والأماكن المنسوبة إليه - كشون الغلال - والأملاك - والمراكب - وعلى قماش خيله - وجِماله[٢].

---

(١) مختصر الجامع في السيرة النبويّة. سميرة الزايد ١/ ٨١.

(٢) انظر القاموس المحيط ولسان العرب (رنك).

■ رنك السلطان قايتباي:

فهل لنا أن نعود إلى القرن الخامس.. وإلى الديار المصرية لنعرف أن السلاطين المماليك كانوا يستعملون (الرَنْك) شعاراً لهم؟

ومن الرنوك الشهيرة رنك السلطان قايتباي. ولقد اختار السلطان من جملة ما اختار لتثبيت شعاره.. بلاطة مستديرة بقطر ٣٠سم.. ذات لون أزرق عميق.. محاطة بإطار أبيض يحيط به إطار ناعم أسود.. مكتوب ومنقوش عليه بما يسمّى (القاشاني) رمز شعار قايتباي: **(عزّ لمولانا السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي عَزّ نصره)**[1].

يقول الكتاب: ابتدع الرنك السلطان ناصر الدين محمّد حوالي ١٣٢٠م، ويُقصد بذلك الرنك المنقوش، وقد استعمل المماليك الرنوك حتى أنها نقشت ورسمت على أردية مالكيها وأذرعتهم.. وسلاحهم.

قد يوصلنا وضع الرنوك على الأذرعة إلى استعمال ظاهرة الوشم على الذراع.. بينما كان الوشم الصحراوي رسوماً نباتية على الأكف والوجه رمزاً للانتماء الجمالي إلى البادية أو إلى قبيلة معيّنة.

ويوازي الرنك.. ظاهرة (الختم) لكنّه هنا يصبح شعاراً ظاهراً في كل مكان يعلن أهمية حكم المماليك.. بينما يكون الختم خاصاً تماماً بصاحبه.. فالرنك للعامة! ولتظهر خصوصية شيء ما للملأ. والختم للخصوصية! ليبيّن فردية ملك أو حاكم أو شخص في حرية استعمال تصرّفاته وسرّيتها..

❁ ❁ ❁

---

(١) صورة البلاطة موجودة برقم ٦١ في كتاب «الفن الإسلامية ورعايته» كنوز الكويت.

أختام شهيرة

■ الختم بالشمع الأحمر

قال أبو إسحاق: معنى خَتَم وطَبَع في اللغة واحد. وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أنه لا يدخله شيء.

الختم هو المنع في هذا المجال.. فأي رسالة مختومة لا يفضّ ختامها إلّا مَنْ توجهت إليه.. وغالباً ما تكون الرسائل المختومة عليها طبعة تمثل رمز ملك أو سيّد أو جهة من الجهات.

هذا «المنع» تطوّر ودخل في صلب الإجراءات القانونية الإدارية في الدول الحديثة، فإذا وقع منزل في شبهة عليه خُتم بالشمع الأحمر. وإذا صودر مكان ما بأثاثه ورياشه خُتِم بالشمع الأحمر.. وإذا حُجز على عقار لسبب من الأسباب الوجيهة كإصدار التُّهم الكبرى على صاحب العقار ففرَّ أو اختفى أو كان قيد المحاكمة خُتم على عِقاره هذا بالشمع الأحمر.

هذا الختم.. لا يُزال إلّا من قِبَل واضعه.. أي من قِبَل الدولة أو الجهة التي وضعته.. إنّه ختم أحمر.. مرعب يخاف منه الناس.. بل يعدونه عاراً وانتقاصاً من الهيبة والكرامة.

■ الخاتم والانتساب

لا شك أن فكرة الختم أو الخيتام أو الخاتم كانت للحصر الفردي والانتساب، ثم تطورت فأصبح الختم حصراً قَبَليًّاً كما حدث في الصحراء العربية.. وتقلّصت الأختام الأسطوانية الحجريّة ليحلّ محلّها الخاتم.. في الحضارات العليا والصحراوية. وغلب على العرب استعمال (الخاتم)

لعدم وجود التراب الصلصالي أو الأحجار التي كانت تستعمل في صناعة الأختام الأسطوانية.

تقول العرب: وكان لكل قبيلة ختمها الخاص بها. ويكون عائداً لملكية رئيس القبيلة.

❀ ❀ ❀

■ الوشم

كانت الأعراب تسم أغنامها ونعاجها بوسم القبيلة حتّى لا تختلط الأغنام في المراعي.. وحتى تُعرف النعجة المسروقة أو الضالّة فتعاد إلى أصحابها، وهذا ما يدعى بالوسم.. أو الوشم.. وهو نوع من (الختم) الموحي بالتملك.

■ الوشم للمرأة للتفاخر القبلي

انتقلت ظاهرة الانتماء القبلي إلى النساء.. فكان لكلّ قبيلة من القبائل طريقة خاصة بها في وشم نساء القبيلة.. هذه الظاهرة نقلت رمزية الوشم.. أو الختم الأبدي من مملكة التّملك إلى عالم التباهي فالتفاخر.. فكانت النساء المنتسبات إلى القبائل أو الأُسَرِ الغنيّة يفخرن بوشمهن الخاص وينقلنه بحذافيره إلى بناتهن. وما تزال ظاهرة الوشم تبدو لدى بعض القبائل البدوية بالرغم من أنها توشك نهائياً أن تنقرض.

■ عودة ظاهرة الوشم في الغرب

من الملاحظ أن ظاهرة الوشم بأشكال الحيوانات والتنين والأشجار بدأت تشاهد لدى بعض المتحذلقين المحبّين للظهور.. وهي ظاهرة هجينة بلا شك.

- كان للفرَس الأنثى حلقة في طبيها تدعى «الخاتم».

ولقد أصبح الختم الأسطواني فيما بعد خاتماً صغيراً يوضع في اليد كما ذكرنا.

مخدّة ابن عَمّي

في بلاد الشام.. في الشرق المتوسطيّ الآسر.. في جموع العشائر التي تتنقل بين صحارى الجزيرة العربية وربوعها وصولاً إلى شرقي العاصي وشواطئ الفرات.. في هذه البوادي، حضارات تعاقبت منذ آلاف السنين.. وتعاقبت مع الحضارات أعرافها ومفاهيمها الاجتماعية وتراثها التقليدي.. بل تعاقبت أساليب حُبِّها.. وخطوات عِشقها.. لتجد كلّ ما جَدّ عليها هجيناً وتافهاً.

فللصحراء في أهلها عادات.. وفي طُرقها متاهات.. ربما توصل إلى الحقائق. وربما توصل إلى السراب.

ليبقى المنقّبون والأثريون يسجّلون ما اكتشفوا وعرفوا من (المادة التراثية) أمّا (الروح الشرقيّة) فتبقى كنوزاً بديعة، لن يتعرّف عليها إلّا من خاض هذا العالم الوجداني المتألّق الفوّاح، لأهل وسكان بلاد العرب.

يتعلّم الناس طُرُق العشق وأساليبه في المدارس البعيدة. لكنَّ العشق الشرقيّ شيء آخر.. له سحر آخر.. فهو بوح الذي لا يبوح، وهو المشهد الحلال الذي لا يُصوَّر ولا يُدرَّس.

أمّا التراث الاجتماعي الوجداني العاطفي فقد عَلَّم المرأة البدوية كيف توسّد رأس زوجها.. ذراعَها.

والمعروف لدينا.. نحن أهل بلاد الشام أن نردد المثل الشعبي «فلان

ينام على يد زوجته» دلالة على استماع الزوج إلى همهمات زوجته ورغباتها، فينفذّها.. كذلك من الممكن أن «تنام الزوجة على يد زوجها» فمن أين أتت هذه المقولة؟؟

تَشُبُّ المرأة الصحراوية كنبتة فجائية أدركها الربيع. وتشبُّ الصبايا متشبّهات بعيدان نباتات الفستق الساحلي التي تنبت بعيداً عنهن.. لكنّهن يكن متشبّعات بدهون الفستق وزكاوته.. تشبُّ الصبايا متلونات بألوان السّماق.. متمايلات كزهور الأقحوان.. وسرعان ما يتعرفن على الخيول وفرسانها ويعرفن أسماءَهم وأسماءها..

يتجولن في المرابع البدوية.. ويشربن القهوة الزكيّة.. ويدركن أهمية الخيام الأصيلة، وهُنّ يستمعن إلى بعض موّال.. أو صوت حدّاء.. أو عتابا.. وقد يلمحن نظرة إعجاب صافية، فتعرف الواحدة منهن أن هذه النظرة تبشِّرُ بزواج قريب سعيد متكافئ.. وهكذا بين استشارة الكبار.. وبعد الطلب والإيجاب بالقبول.. تصبح الفتاة البدوية مهيأة لزواج قريب.

تتعلّم.. وتتفهّم الموروث الشعبي الذي يدعوها إلى مساعدة زوجها، وإلى القدرة إلى دخول غياهب نفسيته ليكون الزوج بِكُليّته لها.. مستمعاً إليها.. مؤمناً بأقوالها.. ملبياً لطلباتها..

تتعلم.. كيف تسند رأس زوجها إلى ذراعها.. وبحكم الرغبة.. بحكم الطاعة وحسن المعاملة التي تجلب السعادة.. بحكم معرفة الأمهات.. وحنكة الجدّات.. وبأهمية الوشامين أيّام الوشم.. تذهب الصبايا البدويات إلى الواشم أو الواشمة يرفعن عن سواعدهن.. ليشم الواشم على الذراع وشماً مستطيلاً قد يرسم داخله «زهرة سوسن» وقد يبقى وشماً مستطيلاً دون كتابة لكنّه يعرف «بمخدّة ابن عمي».

والمعروف أنَّ لَقَب «ابن عمي» أو «ابنة عمي» لا يزالان يعتبران كناية عن الزوج أو الزوجة. لأن الزواج في الماضي، بل في غابر السنين، كان

يتمّ بكثرة بين أولاد العمّ أو العمومة حتّى عُرفت مضاره اليوم.. فابتعد الناس عنه إلى حد ما.

لكن المهم.. أن والد الزوج (الحمو) يصبح (عَمّ الزوجة) كذلك والد الزوجة بالنسبة إلى الزوج.. يصبح الحمو (عمًّا) مهما بعدت درجة القرابة أو انتفتْ.. ومن ثمَّ يصبح الزوج هو (ابن العم).. ولو كان من رَبْع آخر.. أو من أسرة أخرى.

تتعلم العروس في بوادي الشام كيف تُركِنُ ذراعها تحت رأس زوجها.. فيركن الرأس فوق «مخدّة ابن عمي» الموشومة على الساعد بحيث تبقى مسافة بين الرأسين تسمح بتبادل الكلام ولهفات القلب وطلبات العيد وأساور الزنود والخلاخيل.. والوعود.

في البادية السورية

بدأت مظاهر الوشم بالانقراض تماماً اليوم.. لكن المرأة الشرقية الحقيقية هي التي توسّد رأس زوجها المُتعب فوق ذراعها.. تذرُّ على كلامها العسل.. وعلى أصابعها الرقة.. لتكون الآمنة.. لا المأمورة.. ولا تكون قاهرة أو مقهورة..

إنها أسرار «مخدّة ابن عمي»

أمّا كيف تتم عملية الوشم.. فيكون بوخز الجلد بالإبر المعقّمة بالنار.. حتى يثقب الجلد ويخرج الدم.. حينئذ يذر الواشم مسحوق «النيلج» في أماكن الوشم.. فيصطبغ الجلد باللون الأزرق بحيث يبقى الصبغ ثابتاً لا يزال، وقد أصبح اليوم يزال بشكل جزئي بوساطة المعدّات الحديثة.

والنيلج هو (النيْل) indigo والاسم سنسكريتي الأصل. ولم تكن العرب تمايز بينه وبين الصباغ المسمّى الوسمة pastep ويكون النيلج

بسحق أوراق النِيْلة التي تستخرج منها المادة الزرقاء. وهي في الأصل مادة رباعية بيضاء تتأكسد وتزرّق في الهواء. واللون (النيلي) لون معروف وهو الأزرق الداكن[1].

■ «مخدّة ابن عمي» هي إذن قصيدة مطرزة بالأزرق.

لقد اكتسب البداة اليوم الكثير من «أسباب المدنية» اشترى بعض أثريائهم سيارات «الرانج روفر» «فورويل درايف» واستعملوها بدل الإبل.. لكنّ النوق ظلّت رمزاً للصحراء.. رمزاً للحلِّ والترحال.. رمزاً للصبر على العطش والجوع.. وبهذا فهي تمثّل المفهوم النفسي للموروث الحقيقي لشعوب المنطقة. فما استعملت السيارة إلّا لأنها الأسرع في الترحال، أمّا الترحال البدوي فظلّ على ما هو حافزاً.. وعادة.. وعرفاً.. وتقليداً قديماً.. متوافقاً مع عدو الغزلان النحيلة.. ومع الشعور الدائم بالخطر.. وبالحذر.. الذي يرافق العربي بشكل دائم.. ولعلّه قد اكتشف منذ القِدم أهمية المنطقة التي عاش فوقها وولد فيها.. فخاف عليها وعشقها.. وحذّر من الغرباء..

- الأرض معشوقة.. والبشر عاشق
- الوطن معشوق.. والإنسان متيّم بوطنه
- والعشق داء جميل.. فما بال العشق إذا عشقت الصحراوية؟!

حين تعشق المرأة عشقاً عميقاً حقيقياً. تتحوّل إلى صمّاء.. بكماء.. عمياء.. وتنتابها أعراض العشق الواضحة من الخفقان.. والهيمان.. والنحول.. والعناد والغيرة.. ولذا فهي تسعى بكل ما تملك من قوّة البقاء كي تحتفظ بمن تُحِب.. وخبرة المرأة الصحراوية كخبرة أيّ غزالة تعرف طريق الأفق.. وطريق العودة منه.. وقد تناقلت الصحراويات خبرات

---

(١) لسان العرب لا بن منظور.

الأمّهات والعمّات والجدّات، فغرفنّ الكثير من أحوال الحب في ملاعق من سعف النخيل.. وأكلن التمور الحلال.. الحلوة حتى أعماق أكوار العسل.. وعرفن الوشم.. كان مرة تميمة.. وكان مرة دواء.. وكان أخرى انتماء.. وفي حالات العشق كان أداة للاحتفاظ بالرجل..

ومن هنا عرف التراث الشعبي القصيدة السحرية التي تدعى «مخدّة ابن عميّ» قصيدة من الوشم. قصيدة تجعل العاشقة تتعلم كيف تفتح أذنيها.. وتنظر بعينها.. وتتكلّم بالشعر والغزل.. بحيث تتفتح مسام حبّها.. وتهبط إليها صفات وعيها.. فيذهب عنها البُكم والخرس والصمم.. ليبقى الحب.. والعشق.. ممهوراً بوشم القصيدة السحرية.. قصيدة «مخدّة ابن عميّ»[١].

■ خُتُم الخيل

من زمن نحو زمن آخر، من حكاية نحو حكاية، من الانغماس المطلق مع الطبيعة حين كانت الشرقية تتختّم بأوراق الدوالي وبأغصان اللبلاب، ومن الوصول إلى أزمنة الجواهر الخلّابة واللآلئ الجذابة، حيث أصبحت الشرقية تتختّم بأجملها.. وأندرها.. وأفخمها.

لكنّ مفاصل الخيل النبيلة عند العرب ما زالت تُدعى «الخُتُم» والعمائم الجميلة ما زالت تُشبَّه بالخواتم، ليبقى الخاتم في الأيادي الشرقية.. نساء ورجالاً. ذهباً كان أو فضة بسيطاً كان أو مُحلّى بزينة الجواهر.

ربما لن تنتهي قصة الخاتم - الختم - الخاتام - الخيتام..

خَتْم الزَرْعُ: فختمُ الزرع سقايته. وختام الزرع.. الانتهاء من السقاية مصحوباً بالرجاء. وخِتام البذور في الأرض.. طيّها تحت التراب، ثم ختمها الماء. والخَتْم أفواه خلايا النحل.

---

(١) أخذت المعلومات من الفنان الأستاذ محمد الوهيبي.

ختم الفَرَس: والخاتم أصل وَضَح القوائم. وفرس مُخَتَّم: أيّ بأشاعره بياض خفيّ.

خُتُم الخيل: والخُتُم: فصوص مفاصل الخيل وأحدها خِتام وخَتام.

خاتم الأصابع: وخاتم الأصبع جمعه خواتم وخواتيم.. وخاتم أصابع القدم هو الفتخ.

بصمة اليد - الختم الرباني لكلّ شخص

ملايين السنين مرّت.. مئات ملايين السنين وما تطابق وجه إنسان في سماته مع وجهٍ آخر.. ملايين البشر مروّا في هذه الحياة.. مئات ملايين الناس..

قد يطابق أنف شكل أنف آخر.. قد يطابق لون قزحية لون قزحية أخرى أو قد تتماثل القدود.. وتتشابه الخدود.. لكن بصمة الإنسان - أي إنسان.. لا يمكن أن تشابه بصمة الآخر.. إنها ختمه.. ختم شخصيته الوحيدة ووجوده المتفرّد.. مثبّتا عليه أفعاله.. وشاهداً على أسراره.. فهو ليس «توقيعاً» يتأرّج يساراً أو يميناً، ليس توقيعاً ينفعل بانفعالات صاحبه أو يقلّد ويُزوّر من قبل المتخصصين في التزوير..

ختم الإبهام لن يتغير.. ختم السبّابة لن يتغير.. فهو الهويّة.. والخصوصية.. هو أنت.. أنت الموجود بكاملك في قمة سبّابتك.. أو في استدارة خطوط إبهامك..

حين عرفت «البَصَمات» وفي الأزمان التي لم يكن الكثير من الناس يقرؤون أو يكتبون.. كانت «سندات التمليك» «صكوك الملكية» تثبّت بالبصمات.. تغرق الأصبع في الحبر الأزرق وفوقه قطعة من النشّاف ثم يضغط الأصبع.. يضع الإنسان خاتمه الذي هو من خلقة ربّه.. ليثبت ملكاً أو زواجاً.. أو بيعاً.. أو شراءً أو إقراراً.

أو.. لعلّ مئات ألوف الجرائم اكتشفت من بصمات القتلة أو السارقين.. فوق الضحايا.. معلنة أن المجرم هو.. هو بالذات.. وأنّ السارق هو.. هو بعينه..

بعد سنوات وسنوات أقبل عهد الإشعاع والتقنيّات.. أصبح الضوء الأحمر الغريب الأطوار.. يلتقط خيتام الأصابع ويثبّت البصمات الأبدية التي خلقها الرب.. معلنة أنّ هذه البصمة هي بالذات لهذا.. وأن تلك هي بالذات لذاك.



الختم الإلهي لكل كائن حي..
المكتشف حديثاً في الطب والعلم

ختم الخلية الفردية
الحمض النووي D.N.A

من أنا؟ من أنتَ؟ من هو أيّ إنسان؟ سواء كنتُ أم لم أكن؟ وسواء أنت.. فنحن.. كلنّا لنا في خلايانا خياتيمها الخاصة.. فكل خلية منسوبة لإنسان معيّن لتكون معجزة ربانيّة اكتشفها العلم حديثا.. ليعلن عن انتساب كل خلية إلى صاحبها وكل واحد إلى خليته D.N.A!! إنّه الحمض النووي الخاص بكل مخلوق.. وها نحن.. نسمع تسبيح كلّ المخلوقات الحيّة.. والميّتة.. والله يحيي العظام وهي رميم.

فلكلّ خليّة حيّة خطّان متعرّجان بداخلها يعلنان عن هذا الإنسان المعيّن.. عن هويته المخلوقة.. وكل خلية فيه مشابهة للخلية الأخرى، ومن الأعاجيب أن هذه الخلية تحتفظ بمكوناتها.. بخيتامها الإلهي حتى ولو في الهياكل العظمية بعد موت الإنسان..

تُرى.. ما هدف البوذيين من إحراق موتاهم؟

أهي كثرة العدد؟.. أم هو إعلان باندثار «الحمض النووي» الذي سوف يجمّع الله العلي العظيم الرماد والشظايا والأجساد في الأجداث منه.. لخلقٍ جديد في يوم معين لا لبس فيه..

❁ ❁ ❁

أمّا خواتم المشاهير فقد خصصت للحفلات والمراسم كحفلات التتويج، وقد كان ذلك مع بدء القرن الرابع الميلادي ويروى أن أوجيني حملت خاتم نابليون للتتويج وكان مصنوعاً من الذهب تزينه قطعة ضخمة من الزمرد انتقاها نابليون من بين مجوهرات ملوك فرنسة، وأرسلها إلى براغ حيث حفر شعاره عليها، وقد اختفى الخاتم عام ١٧١٤ مع هروب زوجته الثانية ماري لويز.

أمّا خاتم **ملكة بريطانية فيكتورية** فكان بسيطاً مزيناً بالعقيق الملوّن بألوان العلم الإنكليزي.

وكانت هناك الخواتم المسمومة أشهرها خاتم ماري أنطوانيت الذي أهدته إلى إحدى صديقاتها ووضعت فيه خصلة من شعرها[١].

■ الخُرتون

هو من بلاد الترك.. خزغيز (قرقيزيا) وهو عبارة عن قرن ثور كان يوجد في الصين أو هو قرن (الكركدن) وكان يتخذ من هذا القرن خواتم للأصابع. ومن محاسنه أنه إذا كان هناك سمّ في الطعام ظهرت على (الخوتون) أو (الختو) علامة.. أو هو يعرق كما يقول أهل الصين. وقيل: الخوتون هي خواتم مصنوعة من قرن حية عمرها ألف عام!![٢]

■ خواتيم الانتساب للجامعات

يعد لبس خاتم معين.. من معدن معين.. مصاغ بشكل معيّن.. وله فَصّ محدّد الجواهر انتساباً لبعض الجامعات المهمّة المشهورة في العالم

(١) عن جريدة تشرين ٢٨٣/ ٢٠٠٥
(٢) نخب الذخائر ٧١

الحديث.. وكل من يلبس هذا الخاتم.. ويتخرّج يبقى هذا الخاتم الشهير دائم البقاء في أصبعه.

■ ماذا بقي من الأختام اليوم؟

لقد بقيت أختام الدوائر الرسمية في الدول ..فلكلّ دائرة ختمها.. ولا ندري من أين وصل اسم (سطمبة) إلينا معلناً معنى ختم دائرة ما..

أمّا الخواتم فقد اشتهرت.. وانتشرت وصار للمشاهير خواتم خصصت للحفلات الرسمية والمراسم وحفلات التتويج، وقد كان ذلك مع بداية القرن السابع الميلادي في أوربة..

■ شعار الكشافة

بعد أن تحدثنا عن شعار الجامعات الكبرى في العصر الحديث.. حيث يرتدي المتخرجون خواتم نُقِشَ عليها (رنك الجامعة) ليقودنا الحديث عن شعار الفِرَق الكشفية.. حيث يُقسّم الكشافون أو الكشافات إلى فئات.. ويخاط على أكمام كلّ بذلة كشفية «شعار» أو «رنك» الفرقة التي ينتمي إليها الكشّاف، وغالباً ما تُقسم الفرق الكشفية إلى أربع فئات.. ولقد كانت الرنوك أو الشعارات الكشفية في خمسينات القرن الماضي.. وفي فِرَق البنات ترمز إلى الأزهار.. التي كانت تُطرَّز على ما يدعى (badje) وكانت تمثّل أزهار البنفسج والورد وزهر الليمون.

❁ ❁ ❁

■ واليوم

تكاثرت الأختام وتنوعت.. لم تعد كما كانت في الماضي.. فقد أصبح لكل دائرة حكومية ختمها، ولكلّ إدارة ختمها، ولكل دائرة بنكية ختمها على دفاترها، بل أصبح لكل مودع ختمه الخاص به، ولكل شركة تجارية ختمها، ولكلّ صيدلية ختمها، ولكلّ طبيب ختمه، ولكل محكمة ختمها.



عن الخاتم

قال ابن بريّ

يا هند ذاتَ الجوربِ المُنْشَقِّ

أخذتِ خيتامي بغير حقّ

للخاتم سحر في الشرق.. يوصله إلى حيّز الأسطورة.. وهو يُعَدُّ ربطاً بين الجمال والفنّ والروح والتقاليد والأعراف والالتزامات، متماشياً بشكل متوازٍ مع الغموض الذي تمثله الأسطورة المنسوبة للحكايات.. أو المنسوبة للحكماء.

قديماً.. كانوا يتختّمون بأوراق الشجر، ثم أصبحوا يتختمون بالمعادن في العصر الحديدي، ثم صاروا يحلمون بقدرة الخاتم على تحقيق الأماني، أو يعقدون رباطاً التزامياً بين الخاتم والمحبوب وبعد أن اخترعوا الأختام للضرورة وبعد أن تحوّل الخيتام إلى «خاتم» أصبح الخاتم متداولاً ثم أصبح حلية وتغندرت الحلية وازيّنت وما زالت.. توضع في أصبع اليد أو توضع في أصابع القدم فتحمل اسماً آخر.. هو «الفَتْخ».

كما ذكرنا في البدء.. عند نقطة البدء..

كان الناس يتختّمون بأوراق الشجر يجعلونها في أصابعهم.. ولربما حول خصورهم..ثم.. أصبح الإنسان يتختّم بالأحجار، ثم بالمعادن.. ويقدِّر قوّة المعدن على تحقيق الأماني.

لكن الأيّام تعود بنا إلى الماضي السحيق، لنتحدث عن أصل الخاتم.. عن الختم.. عن الخيتام.

■ حكاية الخاتم

يعود اكتشاف ظهور الخاتم إلى عصر الحجر المصقول ثم تطوّر مع عصر اكتشاف المعادن.

ويُعتقد أن أصول الخواتم شرقية.. ظهرت لأول مرة في مصر وبلاد ما بين النهرين، ثم انتقلت إلى الغرب، وقد عبّر الخاتم عبر العصور عن معتقدات شعبية وعادات من خلال الرسوم والرموز التي كانت تنقش عليه. والشرق الأوسط هو أوّل من عرف فَنَّ معالجة المعادن ولا سيما في الألف الرابعة ق.م وقد استطاعت هذه الشعوب تطوير هذا الفن بشكل مذهل بحلول عام ٢٥٠٠ ق.م إذ كان الصناع في مصر والرافدين قد تعلموا مختلف أساليب معالجة المعادن.

ويعود أول قانون باستعمال الخواتم إلى الرومان حيث نص القانون أن تكون الخواتم من حديد، ولم يسمح باستعمال خواتم الذهب إلا للسفراء في أثناء تأدية واجباتهم الرسمية، وقد ألغي هذا القانون عند اتساع رقعة الإمبراطورية الرومانية. لكن هذا القانون لا ينفي استعمال الخاتم من قبل الرومان بآلاف السنين.

خواتم من الطبيعة

فلنبدأ بالطبيعة.. ولنتحدث عن العرائش، كيف تعلّقت وخَتّمت نفسها مع الأشجار التي تحميها.

هل نحن في الحقول؟ ها نحن في الحقول بالفعل. نحن في الجبال.. في السهول.. بل حتّى داخل باحات البيوت التي تعانقها الدوالي، وعند تلك الزاوية من ذاك الطريق عند المنحدر المتعرّج..

تعشَّق اللبلاب أشجار الصنوبر - التي يُعتمد عليها تماماً - وسَكَن..

مُثبِتاً نفسه بناميات نحيلة تلتف كالخواتمِ على اللّحاء.. أو حول الأغصان.. فخَتّمت اللبلابة نفسها واتكأت بخواتمها حول شجرة الصنوبر، والصنوبرة كانت مرتاحة من الأعماق لهذا الثوب الأخضر الذي يلفّها..

وعند ذاك الظّل.. في تلك الخضرة.. وقرب ذاك العشب وفوق ظلّ الدار شاهدنا «الدالية». كانت حبلى قد نضج حملها فتزنرت بشهوة الأعناب، وما كان أجملها!

والورق أخضر.. رقيق ونديّ، وقد بدت من خلاله ناميات نحيلة مستقيمة كاللوالب تتباهى.. وتساعد الدالية على التمسك بالأشجار أو بالأحجار والشبابيك.. عند عريشة العنب.. عند ألوان الدالية تكون الطبيعة جميلة إلى أبعد حدّ.. حيث تبدو نقاط الاستناد (الخاتمية) متوهجة ومتوجّهة نحو الضياء.

وبحكم المتعة الضوئية الفتيّة التي تجتاح الصبايا الصغيرات.. يتجهنّ نحو التجمل.. فيحاولن.. بعد أن اكتشفن تلك الناميات التي تشكل خواتم متلاحقة للدالية أن يقطفن ويتزيّن بها خواتمَ خواتم.. بينما تتضاحك الأمّهات قائلات: سقى الله ذكرى الأيّام الخوالي.. حيث كانت.. خيوط الدوالي.. وما زالت.. حِلّياً من الزمرّد، وقتها.. كان كلّ شيء ثميناً.. مثلما هو ثمين في كلّ حين..

هل تملّ عذارى البساتين.. بعد حين؟ من خواتم الدوالي والياسمين؟ أم لعلّه قدوم المساء.. فينزعن خواتم الدوالي الناحلة.. ليتذوقن طعمها الحامض أو هُنّ يضعن خواتمهن العشبية.. قرب الفسقيّة.. لساعة العشيّة حيث تبتهل الأمّهات أن تحوّل جنيّات الحظّ والرزق.. هذه الخواتم مع مرور الأيّام إلى خواتم من الجاد والزمرّد.

■ إنّه الاكتشاف الأول لخواتم الزينة..

وتنطلق الضحكات الشرقية.. تتساقط على سجاجيد من السندس. وعلى أَسِرَّة من الحزن تتخالص مع غابات الورد.. تمتص العطر كالنحل.. ثم تنغلق في قلب فستقة.. والخاتم أخضر.. في الخنصر أخضر.. في البنصر أخضر.

■ تحول الخاتم إلى حلية

وهكذا تشبهت الحضارات بملوكها..

الحثيون - كركميش - بابل - ماري - إيبلا - العرب - الفينيق - الفرس.. الهند في أثناء الحكم المغولي، وانتشر «الخاتم» لينفصل عن «الختم» وليصبح حلية عاديّة.

والخواتم.. توضع في أصابع اليدين، وفي أصابع القدمين.. وتدعى عندئذ الفَتْخ للصغار والكبار.. وهي تصنع من الذهب والفضة والحديد وبعض المعادن الأخرى. ويغلب الذهب والفضة على صياغة الخواتم.

■ خواتم الملوك المحمّلة بالأحجار الكريمة النادرة أو بالسم الزعاف

كما ذكرنا لقد كان الحكّام والملوك القدامى في آسية وغيرها يجعلون لخواتمهم مخبأً.. يضعون فيه إمّا أحجاراً ثمينة أو يضع بعضهم سماً زعافاً يقضي به على نفسه حفاظاً على كرامته.. وقد حرّم الإسلام كما نعرف: قتل النفس. ولقد استخدم سمُّ الخواتم لأغراض أخرى في دول شرقيّ آسية كقتل الملوك والأمراء[١].

---

(١) معجم اللاروس.

■ خواتم شهيرة

تَخَتَّم الرجال.. وتَختّمت النساء.. وأصبح الخاتم عالمياً.. ولكن قبل أن نذكر شيئاً عن أهم أنواع الخواتم «خاتم الزواج» سنتحدث عن بعض الخواتم المشهورة:

- في التقويم الذي أصدرته دار الآثار الإسلامية /لعام ٢٠٠٦/ شهر مارس/ رَسْمٌ لخاتم رائع من الذهب مُصاغ بتقنيّة التخريم، يعرض تفصيلاً لِلفظ الجلالة بالتخريم والتحبيب باللؤلؤ. وهو من مصر - القرن الخامس الهجري - القرن الحادي عشر ميلادي.
- كانت الخواتم تستعمل في أصابع المحاربين لتركيز أمكنة النبال عند إطلاقها، وكلّما علت المرتبة الاجتماعية علا معدن الخاتم وأحجاره.
- يلبس الخاتم في كلّ الأصابع، أمّا في الإسلام فلا يُلبس في الوسطى.
- ويلبس في أصابع القدمين ويدعي [الفتخ] ولعلها عادة قادمة من الهند والسند[١].
- ولقد كان الرومان يلبسون الفتخ في أصابع القدمين.
- قال علي (رض) عن النبي ﷺ: «تختموا بخواتم العقيق فإنّه لا يصيب أحدكم غمّ ما دام عليه».
- قال جعفر بن عبد الرحمن ؓ: «ما افتقرت يد تختّمت بالفيروز»[٢].

(١) فقه اللغة للثعالبي ٢٧٦
(٢) المصدر نفسه ٣٢٥

- كان للرشيد خاتم من الياقوت يدعى «الجبل» اشتراه بأربعين ألف دينار، وآخر بمئة ألف.
- وكان مع الرشيد خاتم «المنصور» دفعه إلى ابنه «المأمون» عام ١٩٥ هجرية قبل غزو الروم مكتوب عليه «الله ثقتي.. به آمنت»[(١)].
- نقش الرشيد على خاتمه «لا إله إلّا الله»[(٢)]
- أُهْدِي الفصّ الياقوتي «الجبل» فيما بعد لصلاح الدين.
- كان لأبي نواس خاتمان.. الأوّل من العقيق مربع الشكل مكتوب عليه

تعاظمني ذنبي فلّما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

أمّا الخاتم الآخر فكان من الحديد الصيني وعليه «أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمداً رسول الله»

لقد وضعت فصوص الفيروز والعقيق والياقوت لترصيع خواتم الرجال. أمّا النساء فتختّمن بكل أنواع الجواهر.

حكاية عن خاتم هارون الرشيد

كما ذكرنا.. ففي العصر العباسي.. كان الخليفة هارون الرشيد يملك خاتماً من الياقوت الأحمر يُسمّى (بالجبل) نقش عليه اسمه، وقد اشتراه بأربعين ألف درهم[(٣)].

وكان للرشيد خاتم آخر أهداه إيّاه والده (المهدي) الذي اشتراه بمئة ألف دينار، وقد سقط الخاتم مرّة في نهر دجلة عند الجسر.. عندما ألقاه

---

(١) تاريخ المفصل ٣٠٨

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٢١٤

(٣) هارون الرشيد. د. شوقي أو خليل.

هارون إلى رسوله عندما استدعاه الهادي.. فلم يشأ أن يدخل به على الهادي لكن الخاتم وقع في النهر. وبعد حين.. طلب الرشيد من الغواصين إحضار الخاتم عند جسر بغداد فغاصوا إليه وعادوا به.. فَسُرَّ سروراً عظيماً.[١]

وكانت العادة قد جرت على التختم باليمين في عهد الرسول ﷺ غير أنّ النقش على الخواتم لم يكن مستعملاً، وأوّل من اتخذه صاحب الشريعة الإسلامية حين كتب إلى ملك الفرس كما أسلفنا..

■ الفَصّ الوردي لخاتم المقتدر

انتقى المقتدر لخاتمه فصاً وردياً من الياقوت الوردي، وقد قُدِّر بعشرين ألف درهم..

■ ياقوتة يمين الدولة

كان يملك ياقوتة تُدعى حبَّة العنب، وهي ياقوتة نقية ممّا يدعى (دم الحمام)، وهو أروع أنواع الياقوت، وكان شكل الياقوتة كحبّة العنب، وتزن اثني عشر مثقالاً، وقد قُدّرت بعشرين ألف دينار.

وكما ذكرنا **كان أهل** (إسبارطه) يلبسون خواتم الحديد وبعدهم الرومان.

لربما كان القانون الروماني أوّل قانون مسنون.. لكن الواقع أنّ مناطق بلاد الشام وما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية هي التي كانت السبّاقة إلى استعمال الأختام الأسطوانية في الحضارة الأوغاريتية وحضارة

---

(١) المصدر نفسه.

إيبلا ولارسا وكارانا كما حضارة ماري.. وغيرها من الحضارات. كما كان عرب الجاهلية يستعملون الخواتم والأختام[١].

يكون الخاتم من المعدن العادي أو الفضّة أو الذهب ويحلّى بالحجارة الكريمة في الغالب. وكان يستعمل للختم بدلاً من التوقيع، وذلك بحفر رمز أو كلمة صاحب الخاتم على الخاتم. وما زال الختم سارياً إلى اليوم، وختم الملك يدّل على إرادته وتوقيعه فهو: خاتم المُلك[٢].

- أحب العرب التختم بالياقوت واشتراه الخلفاء. وعُزي إليه صفات كثيرة: فهو يجلو البصر، ولا يصيب المتختّم به آفة أو عرض[٣].

ومن صفات الياقوت: أن الملوك تلبسه، وهو يورث لابسه مهابة وقدراً، ويسهّل قضاء الحاجات، ويقوّي القلب. ويبتعد المسلمون عن التختّم بالسبابة لأنهم يتشهدون بها[٤].

أمّا التختم بالذهب: وما أجمل الذهب.. فقد كانت العرب تسميه (الأَنْضَر) وكانت تدعو السبيكة منه (النَّضِرة) لكن الإسلام نهى الرجال عن التختّم بالذهب منعاً من التكبّر والتباهي[٥].

■ قرن الخرتيت

ونكرر ما ذكرناه عن (الخُرْتون) في بلاد قرقيزيا، وهو من قرن ثور كان في الصين، لعلّه (الكركدن) أو (الخرتيت)، أو (الخرتون)، وكان يتّخذ من قرن هذا الثور خواتم كثيرة للأصابع. ومن محاسن هذا النوع من الخواتم

---

(١) معجم لاروس.
(٢) جامع الأصول ٥/ ٤٠٢
(٣) المستطرف ١٦٤
(٤) المصدر نفسه ١٦٣
(٥) تاج العروس (نضر)

أنّه إذا كان هناك سُم في الطعام أو المكان ظهرت على (الخُرتون) أو (خاتم الخُتُو) علامة. أو ظهر عليه عَرَقٌ كما يقول أهل الصين.

■ قرن الحيّة

ولقد كانت قبائل آسية تتّخذ من قرن حيّة عمرها ألف عام خواتم عديدة[١].

- **تحولت الخواتم مع نمو الحضارات** من خواتم من حديد إلى خواتم ذهبية وفضية تزينها الأحجار الكريمة: الماس - الياقوت - الزمرد - الزبرجد - اليشب - الجاد - الزمرد الريحاني (الأكوا مارين) - الجزع - اللازورد.

- **وكان لسيدات البلاط الفرعوني (الأسرة الثامنة عشرة) خواتم زرقاء.**

- وقد ذكرنا أن الملوك والأمراء معهم بشكل دائم خواتم فيها (الفاذِ زَهْر) وهو حجر مضاد للسموم قيل: يتّخذ من مرائر الأيائل. وإن مسحوق هذا الحجر يسحب السُّم من الجسم ويمتصه.. فكان الملوك إذا أحسّوا بالتسّمم تناولوا سحالة حجر (الفاذِ زَهْر).

ولعلّ النقيض وارد إذ إن الكثيرين من الملوك والوزراء والقوّاد القدامى كان لهم خواتم مليئة بالسُّم الزعاف يتناولون منها السُّم إذا أهينوا أو تعرضوا للتعذيب وامتهان الكرامة..

■ خاتم إيبلا الرائع الذي وُجد في مدفن الأميرة

وهو جميل جداً.. مزيّن بأزهار اللوتس، وعلى وجهيه شكل الخنفساء، وهو من المجوهرات المصرية، هدية إلى إيبلا[٢].

---

(١) المستطرف

(٢) باولو ماتييه - إيبلا الصخرة البيضاء / تعريب قاسم طوع، و(إيبلا: الصخرة البيضاء).

■ خاتم سليمان

ذكر أنه لسليمان الحكيم خاتم من أجمل خواتيم الدنيا، وكم درجت الأمثال بتشبيه ثغور النساء بخاتم سليمان.. وقيل: كان لهذا الخاتم قدرة عجيبة على الاستحضار. ولعلّ ذلك يعبّر عن قدرة الخاتم السحريّة حسب الاعتقاد، ممّا يجعله زينة وسلطة وثروة ومانعاً من الحسد.. ملبيّاً للرغبات.. وبانياً للعجائب.

- **وسبق أن ذكرنا خاتم النبي** ﷺ كان من الحديد الملوي بالفضّة **ومحمد** ﷺ هو **(خاتم الأنبياء)** وهذا القول ينقلنا إلى معنى آخر للختم أو الخاتم.. سنورده في حينه.

كتاب ﷺ إلى ملك الفرس

ولقد جرت العادة أن يكون التختّم باليمين. غير أن النقش على الخواتم لم يكن مستعملاً في شبه الجزيرة العربية، وأوّل من اتخذه صاحب الشريعة الإسلامية حين كتب كتاباً إلى ملك الفرس - فالفُرس لم تكن تقبل كتاباً غير مختوم. فاتخذ ﷺ خاتماً من الفضّة نقش عليه (محمد رسول الله) يختم به رسائله، وانتشرت بعد ذلك عادة التختّم حتّى أصبحت من شارات ملوك العرب والمسلمين.



الخاتم والأسطورة

أشهر خواتم الأساطير خاتم علاء الدين، فهو خاتم معجون بالحكايا القديمة.. معجون بالسحر.. بشخصيات الخيال الجامع التي تُحقِّق المعجزات.. خاتم معجون بحكايا ألف ليلة وليلة.. المنطلقة من الشرق

الغامض.. ينقلب تارة مصباحاً سحرياً.. وتارة ينقلب قمقماً يقذفه مَدُّ البحر، وفيه المارد الذي ينتصب قائلاً: «شبيك لبيك.. أنا عبدك بين يديك». أو يبقى خاتماً ما إن يفركه لابسه حتى يلبّي له كلّ مستحيل في طلباته.. هذه المستحيلات التي أصبحت حقائق في أيامنا هذه..

ومَنْ مِنْ بلاد الشرق أو الغرب لا يعرف علاء الدين.. مع خاتمه وقمقمه وفانوسه؟.. مَنْ من أمهات الشرق القديمات لم تجلس بتنورتها الفضفاضة لتنسج حكايا المساء لأولادها وأحفادها.. بينما الأطفال يستمعون إلى أمّهاتهم.. يغفون وهم يتعلّمون ألف طريقة وطريقة لتحقيق طموحاتهم.. إنهم ليسوا كأطفال اليوم الذين يشربون حليب بقرة واحدة.. ويسمعون كلّ حكاياتهم من أمّ ضخمة تتربع بشكل دائم في طرف الغرفة لتلتقط الحكايا والأنباء.

شرح عن خاتم الزواج

إن الاتحادّ بين الزوجين يتمثل بيدين تتصافحان وتلتحمان بشدة - بمعنى الإصرار والاتفاق والرغبة - فالزواج اتحاد ومشاركة وسند.. لإتمام مسيرة العُمر، والاتفاق على الزواج له مراسم وطقوس أهمها (خاتم الزواج).

واستعمال خاتم الزواج قديم، وله جذور شديدة القدم في بعض الحضارات، تقاليد الزواج تتطلب وجود خاتمين يضعهما كلّ من الزوجين إشارة إلى الارتباط، ويعد وضع الخاتم في البنصر الأيمن إشارة إلى الخطوبة إلى أن ينقل عند الزواج إلى بنصر اليد اليسرى، ويقال: إن في بنصر اليد اليسرى عرق نابض مباشر إلى القلب!! وهذا التقليد أو مفهومه يُعَدّ رمزاً وختماً عالمياً يعلن عن قيام الزوجية، بعد إجراء الطقوس المناسبة.

وقد ذكر في المعجم الفرنسي أن (دوق نورماندي) في أثناء احتفاله تلقى الخاتم كما لو كان يتزوّج من (الدوقة) في غيابها، وذُكر أن الزواج الرمزي (لدوغ فينيسيا) مع (البحر) كان بوضعه خاتماً رمزياً في أصبعه!!

■ دائرة الرمز في خاتم الزواج

الختم العادي يصون «الكتاب» أو «الرسالة» أو «الوديعة» وهو يمنع «الناظرين» من النظر إلى داخل هذا الكتاب أو هذه الوديعة، وهو وسيلة «الاستيثاق» و «التغطية» وهو اسم له رمز سامٍ لأنّه من أسماء النبي ﷺ (خاتَمُ) الأنبياء لهذا، ومع التطور، دخل مفهومُ الختم... الخاتم في عالم الرمز من كونه قيداً للطابع الملكي.. إلى كونه قيداً للطابع الحكومي.. ثم تحول إلى كونه تقليداً لشرائح اجتماعية متعددة تقلّد الشرائح الأعلى.. ثم تحوّل.. بكل جماهيريته إلى (حلية).

لكنّ قوة الرمز جرّته ليكون رمزاً ظاهراً للارتباط الروحي والجسدي، الارتباط الشرعي والقانوني والاجتماعي.. حين يدخل كلّ من الزوجين في «دائرة الآخر» معتبراً هذا الخاتم «رسالة رمزية» للاستيثاق.. والحفظ والانتماء للآخر.

لذا أصبح خاتم الزواج «طابع المتزوجين». وهو «علامة دالّة» على زواج اثنين. وهو «حاجز» يصون مِنْ تدخل الفضوليّين. ويمنع الراغبين ويبعدهم.. وهو الذي يصون لابسه.. «ويمنع الناظرين من النظر إلى باطنه» أي إلى حياته الخاصّة.

وهو كما تدل كلّ التعاريف «وسيلة تغطية اجتماعية» تؤكد وجود الأسرة، وتؤكد تأسيسها. لذلك كان طقس (لبس الخواتم) في أغلب الحالات طقساً اجتماعياً يعلن الارتباط والسريّة بين اثنين (ويختم) عليهما بالصدقِ والقبول من قبلهما ومن قبل الأهل.

«وخاتم الزواج»: «يختم» حياة الطفولة وعدم المسؤولية لتبدأ حياة الالتزام والمسؤولية ووحدانية الشريكين.

ولقد اختير (البنصر) الأيسر لتوضع فيه خواتم الزواج، لأنّه وكما يقال يوجد شريان مباشر بين القلب والبنصر الأيسر. والقلب.. يرمز إلى الحب.

«هو الخاتم».. «هو خاتم سليمان»

«هو ختم الملك».. «هي الأختام الأسطوانية».. «هو خاتم الزواج».

■ من أين أتت فكرة هذا الخاتم إذن؟..

لاشك أنها وصلت مع الرموز.. والترميز.. أنا أحبك.. أنت تحبني! أنا أرتبط بك.. أنتَ ترتبط بي! أنا أتملكك.. أنتَ تتملكني! أنا أتختمكَ.. وأنتَ تتختمني!..

فهل يستطيع هذا الطوق الصغير أن يصمد تجاه أعاصير الحياة ومشكلاتها؟ أو يبقى هو الرمز الاجتماعي الذي يُعلن «الارتباط» الدينيّ والمدنيّ لشخصين في المجتمع؟! وهل الارتباط الأصيل هو هذا الخاتم؟

بالطبع لا.. فالخاتم هو «الطقس» واحد من عدة طقوس اجتماعية تبتدئ من الزغرودة حتّى الثوب الأبيض!

حتّى النهاية.. حتى الختام.. حتّى مسك الختام..

وهنا تكمن أهمية خاتم الزواج.. فهو يوضع في البداية.. ليعلن الاستمرار حتّى النهاية.. ومن الناس من لا يقتنع به فلا يضعه، ومنهم من يضعه حتّى بعد فقدان الشريك.. إنّه خاتم المعادلة الصعبة.. والسعادة الفائقة والأولاد.. وهو أيضاً خاتم الهجر والفراق والذكريات.. ما أحلاه.. وما أصعبه.

خواتم الزواج في شبه الجزيرة العربية قبل ١٥٠٠ عام

إذا عدنا إلى ألف وخمس مئة عام خلت، وإلى قلب الجزيرة العربية، بل إذا توقفنا في عصر النبوة فإننا نجد أن استعمال الخاتم كان ممكناً في الزواج يؤكد ذلك قول محمد ﷺ لصحابي أراد الزواج وكان فقيراً: «التمس ولو خاتماً من حديد»(١).

وقال: «اتخذ ولو خاتماً من فضة» وذلك كمهر للعروس.. مهر يوضع في اليد، ويصبح خاتم زواج..



(١) متفق عليه.

علبة الخواتم الخديوية

صدفة ملساء.. ملساء كحُلُم ليلة صيف، صدفة ملوكية.. كانت بملك «الهانم» زوجة الخديوي توفيق.. «برلنطة» أو «خديجة» اللامعة كالقَطْع الماسي الثمين، ولسوف نتخيّل أن الخديدي دخل ذات يوم إلى جناح «برلنطة هانم» ببزته المطرزة وطربوشه الأحمر.. وملامحه الألبانية الجميلة.. يحمل علبة قدّمها لِمَنْ أسماها بنفسه «برلنطة» لشدة جمالها.. لروعة وجهها الذي رُبي وهو ينظر إلى نواعير نهر «العاصي» في حماة المدينة السورية التي تحمل اتساع البادية وخصوبة السهول المترامية.. قدّم الزوج الكريم هديته للزوجة الكريمة.. كان مساء.. وكانت صدفة ملساء.. تلمع بألوان حقيقية غير محدّدة من ألوان قوس قزح مُطبقة بقفل شديد الصِغَر.. ما إن فتحته برلنطة حتى انشرح منها الصدر.. وافترَّ الثغر.. فقد كانت الصدفة مشغولة بحيث بُطِّنت برقة متناهية بطبقات من القطيفة الممزوجة «بالساتان» ذات لون بنفسجيّ يميل قليلاً إلى لون الليلك. مشكلة هذه الطبقات جيوباً متعددة لتضع فيها زوجة الخديوي توفيق بعض خواتمها.. ومما لا شك فيه أن الصدفة كانت مليئة بالخواتم.

أمّا هذه الحلية الصدفية النادرة الملساء.. فتقبع في مكان أمين من بيت من بيوت دمشق.. خفيفة كالعافية على الجسد، وثمينة كالماضي، وغزيرة كالحضارة، إنها الصدفة الصغيرة الملساء، التي رأيتها ذات مساء بنفسجية الطبقات..

ولا تزعج قط بحجمها البيضوي الذي يقيس ١٠سم أياً من أنامل «برلنطة هانم العظم زوجة الخديوي توفيق».

الأحجار المستعملة في فصوص الخواتم وسائر الحِلي في الشرق

يبدو لنا في كتاب الأحجار الكريمة رسم لقالب ختم من «الهيماتيت» أو حجر الدم، واسم الهيماتيت مأخوذ عن (الخُماهان) وكانت العرب تتخذه للختم به، فهو إذا سحق ووضع مع ماء يلزج[(١)].

وتصاغ فصوص الخواتم من أحجار لا حصر لها، انتقينا منها:

- الماس (DIAMOND) أحبّه أباطرة الهند المغول، ومنعوا إخراجه من البلاد.
- الياقوت (RUBY) ومنه الأرجواني (باد بارادشا)، وهو حجر السلاطين والخلفاء والقادة، جيء به من جنوبي آسية، وأهمه (دم الحمام) ويأتي بعد الماس في الصلابة. ومنه الياقوت الوردي (الحُكام) اليَنْع.
- الزمرّد (EMERALD) وهو حجر ثمين يعادل الياقوت في الشرق العربي والإسلامي.
- الزبرجد (BERYL) يكثر في مصر، وقد استعمله الفراعنة ثم العرب، وهو غير الزمرّد..
- الفيروز (TURQUOISE) حجر الحضارة الساسانية والعثمانية
- السَبَج (OBSIDIAN) أحبّه العرب والفراعنة.. واتخذه الرجال فصوصاً لخواتمهم، وهو أسود اللون.

(١) نخب الذخائر في أحوال الجواهر، للأنصاري السنجاري ص ٨٢

- العقيق (TREE - AGATE - CORNALINE (AGATE حجر شبه الجزيرة العربية.. وعقيق اليمن المبارك. ومنه ألوان مختلفة.
- اللؤلؤ (PEARL) درة الخليج العربي، وبحر الهند.. وهو أكثر أنصاف الكرائم انتشاراً، وأحبّها إلى نساء المشرق والمغرب.
- المرجان (CORAL) تحفة البحر الأحمر المرجاني، ومنه العقيقي والمزهر والأبيض والأسود.
- السفير (SAPPHIRE) يعتبره العرب من أنواع الياقوت ويسمونه «الياقوت الأزرق»
- الزمرّد الريحاني (AQWA - MARINE) وهو من أجمل الأحجار الكريمة، وقد أحب العرب هذا الحجر، وألحقوه بالزمرّد مع اختلاف اللون (والصلابة والنوعية).
- (الينع) الياقوت الوردي (CORNALINE) أحبه الملوك واستعملوه فصوصاً للخواتم.
- المَرْو (TOURMALINE - QUARTZ) وهو من أجمل الأحجار الكريمة إطلاقاً.. يتمتع باللون الزمردي وبداخله اللون الأحمر الليلكي.. وقد استعملته حضارات بلاد الشام.
- الياقوت الأصفر (TOPAZ) وقد استعمله العباسيون والعثمانيون..
- الجاد (JADE) حجر الهند والصين الجميل، ذو اللون المحيّر بين الأخضر والأخضر الزيتوني، وهو حجر كتيم نصف كريم.. وقد رصعت به تماثيل المعابد وأبوابها، ومنه لون رائع يشبه اللون التوتي الشفاف وكان يتخذ للملوك.
- اليشم (JADEITE) استعملته حضارات إيبلا، وتاجرت به،

واستقدمته لملوكها، وهو زيتوني اللون، ومنه ما هو توتيّ اللون نصف شفاف.

- اليشب (JASPER) وهو أيضاً من أحجار إيبلا وماري وحضارة ما بين النهرين القديمة ومنه «الهليويرون» الأخضر المسمّى «بدوار الشمس» ومنه المُحْمَّر المرقّط وهو حجر إيبلا.
- حجر الدم أو السب (HIMATITE) ويأتي اسمه من (الخُماهان) وكانت العرب تتّخذه للختم به كما أسلفنا.
- اللّازورد أو العوهق (LAPIS - LAZULI) حجر يأتي من بلاد ما خلف النهر وما فوقها.. يملك ألوان البحر وقت الغروب وهو يمتاز بوجود بلّورات النحاس فيه بحيث تعطيه تلألؤاً ذهبياً مذهلاً.. وقد رصعت به «إيبلا» خواتمها وحليها بل وأخشاب مقاعد ملوكها..
- الجزع الحبشي (ONYX) استعمل في بلاد (البونت) وفي شبه الجزيرة العربية.. ومنه الجزع اليماني المخلوط بالعقيق، ويقال: إن السيدة عائشة (رض) كان عقدها من الجزع اليماني.

أمّا بلاد (البونت) فهي القرن الإفريقي.

- عين النمر (TIGER'S/ EYE) أحبته بلاد الشام، واتخذت منه المسابح.
- عين الهر (QUARTZ/ EYE'S CAT) حجر غير متبلور يتحرك داخله، وألوانه بين البرتقالي والقرميدي والأسود الثمين.
- الخلقدوني (CHALCEDONY) من أشهر الأحجار الكريمة التي أحبها ملوك بني عباس.. ويمتاز بصلابة وكثافة نوعية عالية..

- البادِ زَهْر (BEZOORD)
- الفاذِ زَهْر (MOON - STONE) وهو حجر القمر، وله أوصاف غريبة سوف ندرجها في بحث الحِلّي في كتاب لاحق.
- الكهرمان (AMBRE) أحبَّه الفرس والعرب واتخذوا سبحاتهم منه وجعلوه فصوص خواتم ومنه الأسود (JET) أمّا الذهب (GOLD) والفضّة (SILVER) والنحاس (COPPER) فقد استعملت للصياغة في كل الحضارات، كما استعملت لاستعمالات حربية وعمرانية.
- الدَهْنَجْ (MALAKITE - AZURITE - MALACHITE)
- المغناطيس (MAGNETITE - MAGNETIS) استعمله البحارة العرب والهنود.
- حجر النار بوريط (PYRITE)
- در النجف (CRISTAL. DE. ROCHE) أرقى أنواع الأحجار الشفافة البيضاء
- الجَمَشْتْ (AMETHYST) ذو اللون الوردي الليلكي البنفسجي الرائع.. وقد أحبه السلاطين والأثرياء.
- السُهْم- مخاط الشيطان (FILANDRE) مادة قيرية سوداء لمّاعة تلتهب كالفحم الحجري.

لقد أصبحت الصياغة مهنة من المهن الدقيقة الصعبة.. أمّا تعريف الصائغ في العربية فهو: مَنْ يحترف الصياغة، ويشتغل في صياغة الذهب والفضة ومن أشهر الصياغ: «أبو رافع»[1].

(١) تاج العروس ٥٦١

■ خواتم الرجال

لقد اختار الرجال التختم بالياقوت والعقيق والفيروز فمن صفات العقيق: أن حمله يورث الحلم والأناة.. وهو يبارك في الرزق ويحمي في الحياة.

ومن صفات الفيروز: إنه يمنع الحسد.. ويردّ العين عن المعيون[1].



(١) المستطرف ١٦٣-١٦٤



التاج



التاج

ذاك جيدٌ يزهو على كلّ عقد

وجبين يزهى على كلّ تاج

البحتري

■ التيجان

التاج للعروس

التيجان للملوك

التيجان للمنتصرين

التاج لهدهد سليمان

والتيجان للراقصين في الغابات

التاج الشوكي للسيد المسيح

والتيجان للقصور

التاج مروحة

والتيجان مظلّة

الحكمة تاج

الصحة تاج

العقل تاج

والكتاب تاج العيون

■ تاج العروس

من أعظم المعاجم العربية.. ألفّه الإمام الزبيدي

أمّا العروس فلها تاجها

تاج من الياسمين للعاشقة

تاج من اللؤلؤ للعروس المدللة

تاج ياقوت يُمسك ذاك الخمار الشفيف الأبيض الذي يرفعه المعرس أو «العريس» ليشاهد لأوّل مرّة وجه عروسه. فالتقاليد في بلاد الشام قديماً كانت لا تسمح برؤية العروسين بعضهما لبعض إلّا يوم الزفاف، لينكشف اللغز المقدّس.. ويتلألأ الدُّر والماس في تاج العروس..

❀ ❀ ❀

فالزوج تاج رأس الزوجة

والزوجة تاج الرجل.

■ إكليل وتاج السيد المسيح عليه السلام

كان تاج يسوع عليه السلام من «الشوك» عندما صُلب كما يعتقد النصارى. أمّا نوع الشوك فكان من أشواك الصنوبر وأشواك الأرض.

ويُقال: إن تاج الشوك الذي صلب به المسيح وصل إلى الإمبراطور بودوان الثاني عام ١٢٣٨ فأعطاه هدية إلى «سانت لويس» وكان الإكليل مكتشفاً منذ عام ١١٠٠م متنقلاً بين الأديرة والكنائس الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية.. وقيل: نقله القديس لويس إلى فرنسة.

■ الصليب

وكان الصليب من خشب الأرز ومن خشب الزيتون[١].. والزيتون رمز للبقاء والتجدّد والأرز رمز للخلود.. وروي أنّه صُنع من خشب أرز لبنان (أجمل وأقوى أنواع الصنوبريات) ويروى أن الصليب قد وُجد في وادٍ قرب أسوار القدس على بعد ٢٥ متراً من غولغوثا GOLGOTHA من قبل «سانت هيلانة» والدة الإمبراطور قسطنطين وذلك عام ٣٢٦م.

«شوك المسيح»

يعرف الناس أن الصليب المقدس الذي صلب عليه المسيح عليه السلام (كما يعتقد النصارى) كان من خشب الزيتون، وقيل: معه خشب الأرز كما أوردنا.. أمّا الإكليل فكان من الشوك؟

فما هذا الشوك؟ هل هو من نبات «شوك الجمل» أم هو من «القنطريون المصفرّ» وهو ذو شوك خماسيّ ينبت في الأرض البور. أو هو مجموعة من أشواك المناطق المحيطة بالقدس؟

ولكن!!

يتناقل الآباء عن الأجداد.. في دمشق الشام.. أُصُصاً لنبتة تدعى «شوك المسيح» وتتناقلها الطوائف المسيحية غالباً.. والغريب أنها تزدهر

(١) الإنترنيت: جان لوك دوبار [خشب الصليب وإكليل الشوك].

ووروداً حمراء بلون الدم في أسبوع الفصح الشرقي.. ومما يميّز النبتة أشواكها الحادة!! فلماذا سميت «بشوك المسيح» وهل لهذا الاسم.. لهذه النبتة ذاتها، دلالات شعبية ما زالت تتناقل عبر أجيال المنطقة تعلن أنها ربما كانت هي نبتة الإكليل الشوكي الذي أدمى جبين يسوع.. أم يكون الاسم تشبيهاً مرتبطاً بالدم.. وبالشوك.. وبالجمعة الحزينة الشرقية!

■ الدوم

وقد أخبرني الأصدقاء من أهل فلسطين أن شجرة شوكية تدعى «الدوم» يغلب نموها في كلّ الأراضي الفلسطينية.. ويغلب أن يكون الإكليل من شوك هذه الشجيرة. ولعلّ (الدوم) من الدم).

■ شجرة الكَفّ - كَفّ مريم - وردة القدس

(Rose of. Jericho Anasta Tica - Herohunticao)

يقال عن هذا النبات: إنّه نبات بريّ ينبت في أنحاء فلسطين وسيناء، حتّى إذا ما أتَمَّ نموّه وجَف تقتلعه الريح وتذهب به حتّى إذا صادف مكاناً رطباً عاد إلى النمو.

لماذا سُمي هذا النبات (زهرة القدس) لماذا سمي (كفّ مريم) وهل من علاقة ما تجمعه بإكليل الشوك؟؟

يقول الفلسطينيون: إن شوك المسيح، عليه السلام، كان من شجرة (الدوم) ويقال: هو من الأغصان الشوكية الجافة (للسِدْر).

❀ ❀ ❀

■ تاج السيد المسيح

إن تاج الشوك الذي وضع على رأس السيد المسيح عليه السلام كان من شجيرة (العنّاب) jujbier فقد كان هذا النبات يزرع حول المعسكرات أو التجمّعات لمنع الناس من الاقتراب[١].

تيجان النصر الرومانية: وكانت تيجان النصر الرومانية من أوراق الغار.

تيجان أباطرة الرومان: أمّا تيجان أباطرة الرومان فكانت من أوراق الغار المصنوعة من الذهب.

❀ ❀ ❀

تاج توت عنخ آمون
وتاج زوجته عنخ - سن - آمون

ما تزال الشمس «آتون» تمدّ أياديها المتعددة تضيء حياة عنخ توت عنخ آمون الغنيّة والقصيرة الأمد.. حياة غمرها الذهب والعنفوان والحب والمؤامرات.. وفي الصورة الشهيرة التي تجمعه مع زوجته يبدو عاشقاً ومستسلماً إلى حنوّها ورعايتها وحبها له.. إنّه الفرعون الذهبي الأسمر الذي يحمل فوق رأسه تاجاً لم يحمله أحد غيره.. تاج ضخم لا يمكن صياغة جماله في كلمات.. فهو تاج عظيم محمّل في وجهه الظاهر من اللوحة بإحدى عشرة كرة ذهبية معلقة على ما يشبه رؤوس أفاع تحرس الملك الشاب.. والتاج محمول على قيثارة محرزة تستند إلى تاج صغير ذي كرات ذهبية يشكّل القاعدة التي تسند التاج على رأس الفرعون.

(١) الغذاء لا الدواء. للدكتور صبري القباني ص ٤١٢.

وتتربّص الأفعى ذات الرأس المثلث المسطّح فوق حاجبي توت عنخ آمون.. وهي محمّلة بنفائس الفيروز والعقيق والمرجان واليشم.

أمّا عنخ - سن آمون.. فتتّجه بكليّتها نحو الفرعون.. زوجها، تتقدم.. بثوبها الأبيض الشفاف ذي الثنيات.. مكسوّة الذراعين حتى الكوع.. يصل ثوبها حتى قدميها.. وفوق رأسها قيثارة طويلة في قاعها كرة ضخمة من الذهب، أما الحامل.. فيشبه حامل التاج الذهبي لتوت عنخ آمون.

أزهار زرقاء من اللوتس و«آتون» يرسل أياديه الحارّة الذهبية على قمح مصر.

❀ ❀ ❀

■ الأفعى الفرعونية

لقد مثلت الأفعى في تيجان الفراعنة الرمز العظيم لقوة الملك أيّام الفراعنة.. فوضعها الفراعنة على تيجانهم ذات الشكل الذي لا بديل له.. تيجان لا تشبه تيجان ملوك آشور.. ولا تيجان الحثيين المخروطية الشكل.. ولا هي تشبه تيجان أميرات الأندلس ذات السمت والتي رُكِّب خمارهن عليها.. إن تيجان الفراعنة نساء ورجالاً تتماثل في شكلها.. لكن الأفعى برأسها المتدلي على الجبين هي رمز الملك..

وقد كان تاج نفرتيتي طويلاً يذكرنا بتيجان الميتانيين.. أهلها.. وكان من الضروري أن تظهر الفرعونة أذنيها.. وتضع القلادات الرائعة على صدرها.. بينما وقف تمثال أبي الهول متحدياً مع تاجه.. ومثل أمامنا قناع مومياء توت عنخ آمون.. يعلن الزيّ الفرعوني الأمثل للملوك.. ففيه من الفيروز ما يذهل.. وفيه من العقيق الأحمر والسبج والمَرو والذهب ما يجل هذا التاج أبدياً مع أفعاه.

❀ ❀ ❀

تاج إيبلا

لنَعُدْ ألفاً وسبع مئة عام قبل الميلاد، إلى إيبلا الجميلة.. بلدة الملوك والقوة والرقي. ولنلاحظ جمال ذاك التاج الموضوع على رأس ملك أو أمير.. والمنحوت من العاج الخالص.. مع الوجه والتعابير.

من المؤكد أن التاج لم يكن من العاج، لكنّه يمثل النمط الفرعوني في الفنّ... وهذا يؤكد تبادل العلاقات الثقافية والتجارية بين الطرفين..

لقد سمّى الآثاريون هذا التاج «تاج عاطف» أو «آتف» ويمثل تاجاً أسطوانياً طويلاً موضوعاً فوق الرأس.. لكنّه مبني أو منسوج أو مصاغ بشكل سنابل عريضة متراكبة بعضها فوق بعضٍ.. ممثلةً المسافاتِ الشاسعةَ التي تزرع قمح إيبلا.. ومما لا شك فيه أنّ السنابل كانت تشكل هيكل التاج كلّه الذي يغلب (في نظرنا) أن يكون من الذهب.. وفوق التاج من الناحية الخلفية تبدو زينة أخرى تلتوي نحو الخلف تمثل وجه طائر.. فلعلّ زينة التاج كانت من الأرياش.. أو لعلّها من المادّة الأساسية التي صنع منها التاج الموضوع على رأس يبدو شاباً وحازماً.(١)



تيجان التدمريين

على المرمر.. تبدو المنحوتات النافرة لأصحاب النواويس الراقدين، وهم في أزهى حللهم وأجمل ثيابهم.. إنهم كبراء تدمر.. الذين يضعون على رؤوسهم ما يشبه الطرابيش الأسطوانية، وقد بدت مزيّنة في منتصفها بأكاليل النصر التي كانت تمثل أوراق الغار.. وتتوسط الإكليل الكهنوتي

(١) إيبلا ثقافة وحضارة.

هذا وردة سداسية.. من المؤكّد أنها كانت مع إكليلها قد طُرِّزت بالذهب الخالص على القماش اللبّادي للتاج، أو للطربوش الكهنوتي أو لعل التاج كلّه كان من الذهب يؤكد ذلك تمثال «موكيمو» المخطوط باللغة اليونانية والتدمرية، منتصف القرن الثاني بعد الميلاد[١].

❀ ❀ ❀

التاج في أفاميا

تاج فوق رأس أفاميا APAMEE عثر في أفاميا على تمثال من المرمر يمثل امرأة ترتدي الثياب التقليدية التي تصل حتى قدميها، أما رأسها فعليه ما يشبه قبعة مستديرة يمكن تسميتها (تاجاً) يبرز مفرق الشعر المتماوج المقصوص إلى الخلف والمفروق في منتصف الرأس. ومن الممكن أن تكون حقيقة هذا التاج المرمري تاجاً من الذهب.

أمّا الثوب فيحمله زنّار تحت الصدر.. وهو يصل إلى القدمين، وفوق الثوب وشاح ذو ثنيات وطبقات وضعته المرأة فوق كتفها اليسرى، لينحدر حتى الورك من الطرف الأيمن..

تاج الإمبراطور الروماني فيليب العربي

يبدو فيليب العربي في تمثاله الموجود حالياً في - روما - وهو يضع على رأسه تاجاً تشبه أوراقه أوراق الغار.. وكلّها من المرمر المنحوت. لكنّ المؤكّد أن هذا التاج الذي كان يضعه ابن «شهبا» في حوران كان من الذهب.. وقد حكم هذا الإمبراطور روما من ٢٤٤-٢٤٩ ميلادية[١].

❀ ❀ ❀

(١) سورية ذكرى وحضارة.بالفرنسية.

تاج سيدة الربيع
تيجان لوحة بوتيشيللي الشهيرة
«الربيع» ١٤٧٨ فلورنسة

تبدو ملكة الربيع وقد توجت رأسها بتاج من الورد.. تتوسطه وردة زهراء حولها نباتات الربيع.. تاج صغير يعلو رأس الجميلة التي قد تكون عشتار، أو تكون أفروديت، أو تكون عشتروت، أو تكون فينوس.

فكل عام يقبل الربيع.. تقبل سيدة الربيع المزيّنة «بالعقد الفريد» الأخضر المحبوك مع الورود المزهرة تقبل بتاجها.. وثوبها المزركش بورد الأرض والحقول.. يباركها الحب.. وتحميها الشمس.. ويعصف بتاجها هوى الريح.. وبقربها ترقص الفاتنات الثلاث الممثلات للشباب والصحة والجمال(١).

❀ ❀ ❀

تشكّل الإكليل التيجاني إلى العمامة
(تاج فيليب العربي)

سبق أن تحدثنا عن تاج فيليب العربي لكنه.. عاد تاج فيليب العربي ليتوضح أمامنا متشكلاً مع كلّ ما يحمله من أوراق الغار الذهبية ومتطوراً قليلاً نحو شكل العمامة، وقد تراكمت الأوراق الذهبية بإتقان في تاج الإمبراطور. فبدا وفي عينيه حنين نحو سهول حوران، ونحو شهبا التي سُميت باسمه (فيليبوس) PHILIPPOPOLIS

---

(١) موسوعة اللاروس عن تاريخ الفن.

نحت الإمبراطور لنفسه تمثاله الشهير.. عند أشهر النحاتين والتمثال اليوم موجود بتاجه الجميل في متحف (السويداء) جبل العرب سورية.

❀ ❀ ❀

تاج مرصع بالجوهر

أهدت ست الملك أخاها صلاح الدين تاجاً مرصعاً بالجوهر.

تيجان مغنيات خمارويه

كان خمارويه يضع على رؤوس مغنياته التيجان المرصعة بالأحجار الكريمة.

تاج كسرى آنو شروان

عندما انتصر المسلمون في «بَهْرَشير» ملكوا إيوان كسرى وحليّه، وكان من ضمن الحلِّي الرائعة تاج كسرى الشهير، وهو مكلّل بالجواهر الثمينة. ومن حلي كسرى؛ منطقته (أي زناره) وكان مرصعاً ودرعه هو درع قتال، ليس كالدروع.. فهو من المعدن الذي نظمت فيه اليواقيت والبلخش والدرر. فلقد كان من عادة الملوك أن تتزين في السلم والحرب. في أثناء الاحتفالات، أو في أوقات الحكم[1].

تاج الملك بهرام غور

تتالى على بلاد فارس عدة ملوك من الساسانيين يحملون اسم (بَهْرَام)

(١) المستطرف، نخب الذخائر.

أو (فاهرام) لكن ما ورد في الشاهنامة الفارسية للشاعر الملحمي (فردوسي) (٩٤٠-١٠٢٠) من ذكر في لوحة شهيرة من لوحات الشاهنامة، تحمل الرقم ٥٢ في كتاب (الفن الإسلامي ورعايته) هو رسم للملك الساساني الشهير: بهرام الخامس.. المعروف باسم بهرام غور (BAHRAM - GUR) ملك فارس الذي حكم من (٤٢١-٤٣٨م) وهو ابن (يازدغرد) الأوّل.. ولقد أصبح حاكماً مطلقاً لفارس بمساعدة ملك الحيرة[١].

خمس مئة عام بين بهرام غور وبين الفردوسي كاتب الشاهنامة

كتب الفردوسي ملحمة بلاد فارس والتاريخ الملحمي لإيران وطوران.. منذ فجر التاريخ حتى آخر عهد الساسانيين. والملحمة كانت قد كُتبت باللغة (الأليخانية) وفي الصورة رقم ٥٢ من «الفن الإسلامي ورعايته» وفي القول عن التيجان اخترنا تاج بهرام غور الذي يبدو أنّه تاج من الذهب الخالص.. والتاج مخرز مزخرف منقوش.. يتكوّن من قبّة ذهبية فوق الرأس.. أمّا حافته فوق الجبهة فأعلى من بقية الحواف التي تتّجه بشكل أسطواني، قاعدته أضيق من نهايته العريضة.. ويبدو أنّ التاج يبرز أربع قِمَمٍ حول الرأس، مما يزيد في جماله.

امتطى بهرام فرسه السوداء، وامتشق سيفه الفولاذي الطويل، وبدا شعره شديد السواد.. أملَس كان قوياً مبتسماً بعينيه وشاربيه المنحدرين إلى جانب فمه.. وتحت فرسه زهرة زرقاء، وفوق رأسه مظلّة زرقاء مطرزة بالذهب، يحملها تابعه الأمين الذي يمتطي فرساً رمادية زرقاء. كان ذاهباً إلى القتال، خلفه رجال بعمائم مستديرة سوداء، لها أهرامات من النحاس

(١) معجم اللاروس بالفرنسية، كتاب الفن الإسلامي ورعايته. كنوز الكويت .

مستدقة.. وأمامه الرجال الطورانيّون.. بثيابهم الملونة المورّدة؛ حمراء، وخضراء، وصفراء، وزهرية. وفي أقدامهم أحذية الفراء السوداء والبيضاء وعلى رؤوسهم عمائم الطوران بأقمشتها السوداء المعقودة حول الجبين. وبأرياش النعام والطواويس التي تحرس الشرائط المتدلية نحو الأكتاف، مشكلة جماليات وفنون بلاد قزوين، وبلاد الترك.. وفنون الأرمن إنّه الشرق الساساني المنتصر الذي ترفرف فوق جحافله رايات الحرب المشقوقة إلى نصفين.

❀ ❀ ❀

تاج رُضابة ابنة الملك مهراب[1]

عندما دخل الملك «مهراب» MEHRAB إلى دائرة الحريم.. شاهد ابنته «رُضابة» الجميلة وكأنه شاهد أمامه شجرة شربين تصل إلى السماء وعلى رأسها تاج من العنبر الكهرمان.. كانت مجوهرة بثياب الدمقس الموشاة بالأحجار الكريمة[2].

❀ ❀ ❀

تاج تيودورا إمبراطورة القسطنطينية التي حكمت من (٥٢٧-٥٤٨م)

قبل العصر العثماني كانت البلاد تحت السيطرة البيزنطية التابعة للكنيسة الشرقية.. أما تيودورا الجميلة.. التي جذبت جوستينيان قبل أن يصبح إمبراطوراً.. وكان قد التقاها وهو وريث للعرش الإمبراطوري في

(١) (ملك كابول) خَلَفَ الملك زهّاق ZAHHAK

(٢) كتاب الملوك (الشاهنامة) الفردوسي ص ٤٦ مؤسسة سندباد. بالفرنسية المترجمة عن الفارسية.

القسطنطينية، وهي في حلبة التمثيل.. فأسره سحرها وجاذبيتها وصخبها وعنفوانها.. فاتخذها خليلة، ثم تزوّجها لفرط حبه لها.. ولتأثيرها الشديد فيه ولمدى حياتها.. ثم نصبها إمبراطورة بيزنطية لتشاطره العرش..

لا شك أن ابنة حارس المدرّج البيزنطي المولودة في (منبج) كانت شديدة الجمال.. قوية الشخصية.. محبة للسلطة والتسلّط، وكانت قد لاقت في حياتها الكثير من الصعوبات والإخفاقات، لكنّ جمالها وشخصيتها جعلاها تجذب قلب جوستينيان حين عادت إلى القسطنطينية بعد اختفاء عشقي طويل.. ولفرط حبها للجاه والمال والسلطان.. كان جناحها الإمبراطوري يعج بالثروات والعطور.. وكان تاجها الذي أخلصت له ولبلدها الذي ساسته بحكمة فائقة آية في الأبهة والجمال.. كما أنها أخلصت لجوستنيان بعد الانقلاب الجذري في شخصيتها.. لكن حبّها للسيطرة والزهو.. بدوا بوضوح في الفسيفساء الموجودة في (سانت - فيتال دورافين sant - vital de ravenne الفسيفساء التي تبرز جمال تاجها الرائع.

■ وصف تاج ثيودورا

دائرة كقرص الشمس خلف رأس ثيودورا.. دائرة من الموزاييك الذهبي المشكّل من الفسيفساء النادر.. وكل أحجار الدائرة تدور كالمتاهة حول محور الرأس المتوج.. رأس الإمبراطورة ذات المنشأ الوضيع التي وصلت إلى أعلى المراكز في الإمبراطورية البيزنطية.. هو تاج أقرب إلى شكل عمامة كبيرة.. مزيّن بحبّات دُرٍّ فائقة الوصف والحجم واللمعان.. وحول التاج تبدو أحجار مرصوفة من الياقوت الأحمر، تتخلّلها أحجار الزمرّد الخضراء الخطّافة للنظر.. ويبدو الياقوت الأصفر مبعثراً في هذا التاج الغريب.. ليبدو وجه ثيودورا النحيل الأبيض المائل إلى الشحوب تحت هذا التاج، وجه ثابت مزيّن بالحكمة والإصرار والاستقرار وبُعد النظر الذي تثبّته عيناها الشديدتا الاتساع..

ثيودورا أو تيودورا.. حبيبة جوستينيان وإمبراطورة مملكته الواسعة، المرأة التي أنقذت مملكتها عام ٥٣٢م..

ثيودورا.. ذات القلادة الزمرديّة وكلّ زمرّدة في عقدها الفريد بحجم عينيها..

ثيودورا واللآلئ.. وحبال اللآلئ التي تتدلّى من تاجها حتّى كتفيها ثم تنحني نحو صدرها

كيف حملت ثيودورا جواهر الأرض فوق رأسها؟ لتُظهر أذنيها، وقد تدلّى منهما قرطان يحمل كل قرط منهما دمعة ضخمة من الياقوت الأزرق (الزفير)، إنها صاحبة التاج البيزنطي إمبراطورة القسطنطينية التي تحمل فوق صدرها صليباً من الجزع الأسود والزمرّد.. وتضع في قلبها أهداف رقيّ بلدها.. مفكرّة بخاصّة في القوانين.. ومنها ما يتعلق بالمرأة وحقوقها.. وبالزواج.. وتنظيم الأسرة.

لقد تغلبت ابنة حارس مضمار التمثيل البيزنطي، الحارس الذي ترك بناته الثلاث في مجرى الهوى واللهو.. فتغلبت ثيودورا على ماضيها الوضيع، وعاشت من أجل الدولة البيزنطية، ومن أجل جوستينيان ومن أجل الاحتفاظ بهذا التاج الفاخر الذي خلّدته بقطع الفسيفساء، تاركة خلفها مُدُناً سُميت باسمها، وإمبراطوراً عاشقاً كان تحت أمرة حبّها وشخصيتها.. تاركة فتوحات.. ورقصاً.. ونبوغاً.. وحباً.. وتمثيلاً.. وجمالاً قهاراً وملاحم تلاطمت مع بحر القسطنطينية (الآستانة فيما بعد) (استامبول اليوم)... (إسلام بوليس)... (مدينة الإسلام)[1].

❀ ❀ ❀

ذكر في كتاب: **حضارة العرب** ١١٧ الطوق - التاج - الأساور والسيوف.

---

(١) معجم لاروس.

كان الخلفاء في الإسلام يفيضون (الخلع) على من أرادوا تشريفهم بولاية.. ويلبسونهم (طوقاً) و(تاجاً) و(سوارين) و(يقلدونهم سيفين) عدا الثوب وإقامة الخطبة.

وذكر في كتاب: حضارة العرب: ١١٦ عن التاج والخرز ما يلي:

كانت ملوك الجاهلية يضعون على رؤوسهم التيجان، وأول من تتوج منهم حمير بن سبأ، وكانت الملوك من بعده يضعون في تيجانهم خرزاً، فكان الملك يزيد في كل سنة خرزة ليعلم عدد سني ملكه.

تيجان الراقصات في كمبودية(١)

هي أشبه ما تكون بكعكة العيد، لكنّها من الذهب أو ما يشبه الذهب من طلاء.. وشكلها كبرج بابل، ويقف فوق هذا التاج هرم مجنّح مطرّز. والراقصة تضع خلف أذنها زهرة بيضاء أو زهرية اللون ومن الجانب الآخر من الرأس تتدلّى ضفيرة من الحرير الأبيض المنغمش بنهايات الدانتيلّا الزهرية.. وتكون الضفيرة قد عُقدت ورُصّت مرتين في منتصفها بوساطة خيوط ملوّنة برتقالية أو مُزهرة.

وفي أثناء الرقص.. يبقى الرأس شديد الثبات حاملاً التاج.. بينما تُسمع خشخشات الأساور، ورنين الخلاخيل، وأطراف الزنانير في وقع رتيب متناغم مع الحركات المدروسة المتقنة.

تخشخش الخلاخيل وتَرِّنُ.. لتجيبها عنادل آسية وشحاريرها.. عنادل وببغاوات استوائية أبدع الخالق في رسم أرياشها..

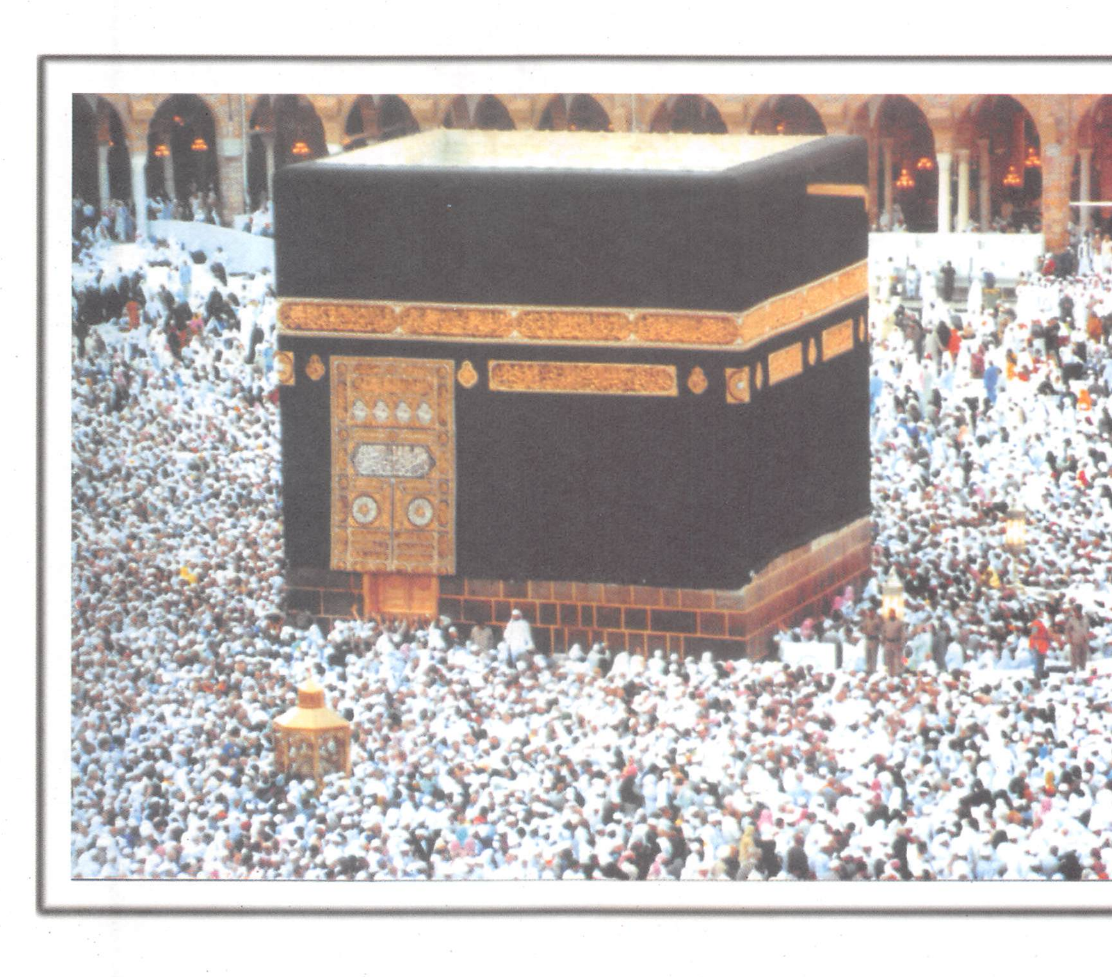
---

(١) تقع كمبودية.. جنوب شرقي آسية.. يحدّها: فيتنام - لاوس - تايلاند - والخليج التايلاندي.

وخلال الرقص.. يكون الرأس شديد الثبات، بينما تتثنّى الأيادي الرقيقة بسهولة استثنائية.. معبّرة عن مشاعرٍ مقدّسة.. يتكلّم فيها الجسد.. عن حركات الروح[١].



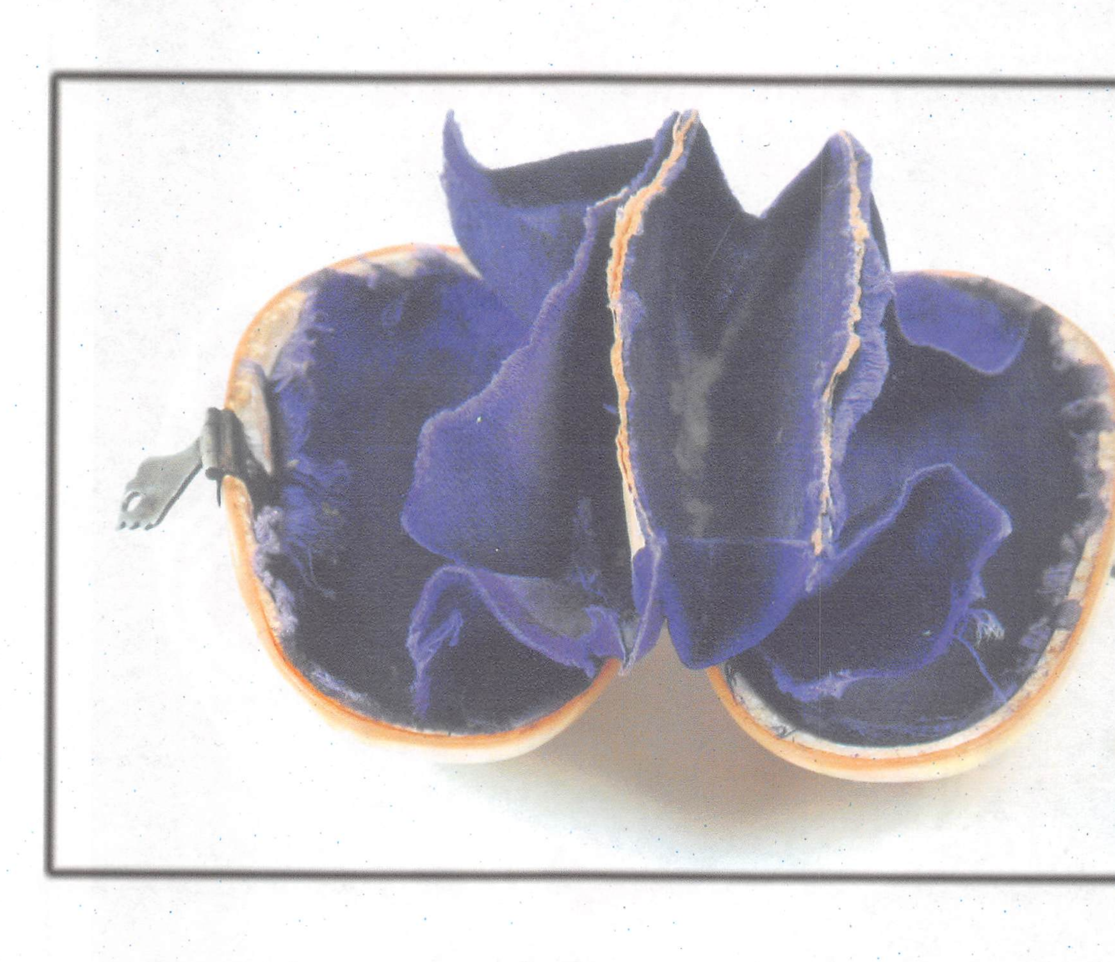
(١) وصف عن صورة لراقصات كمبوديات..





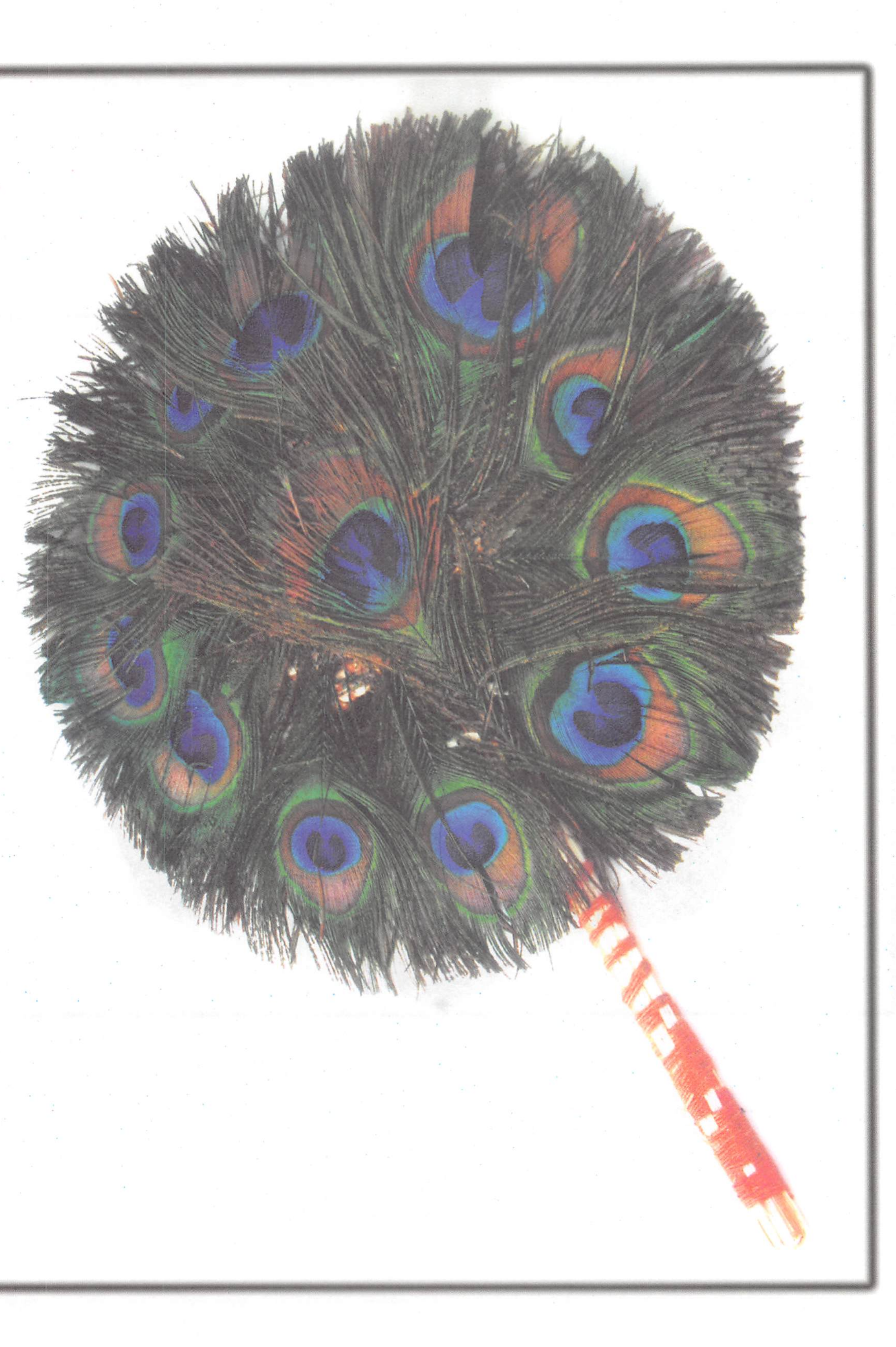








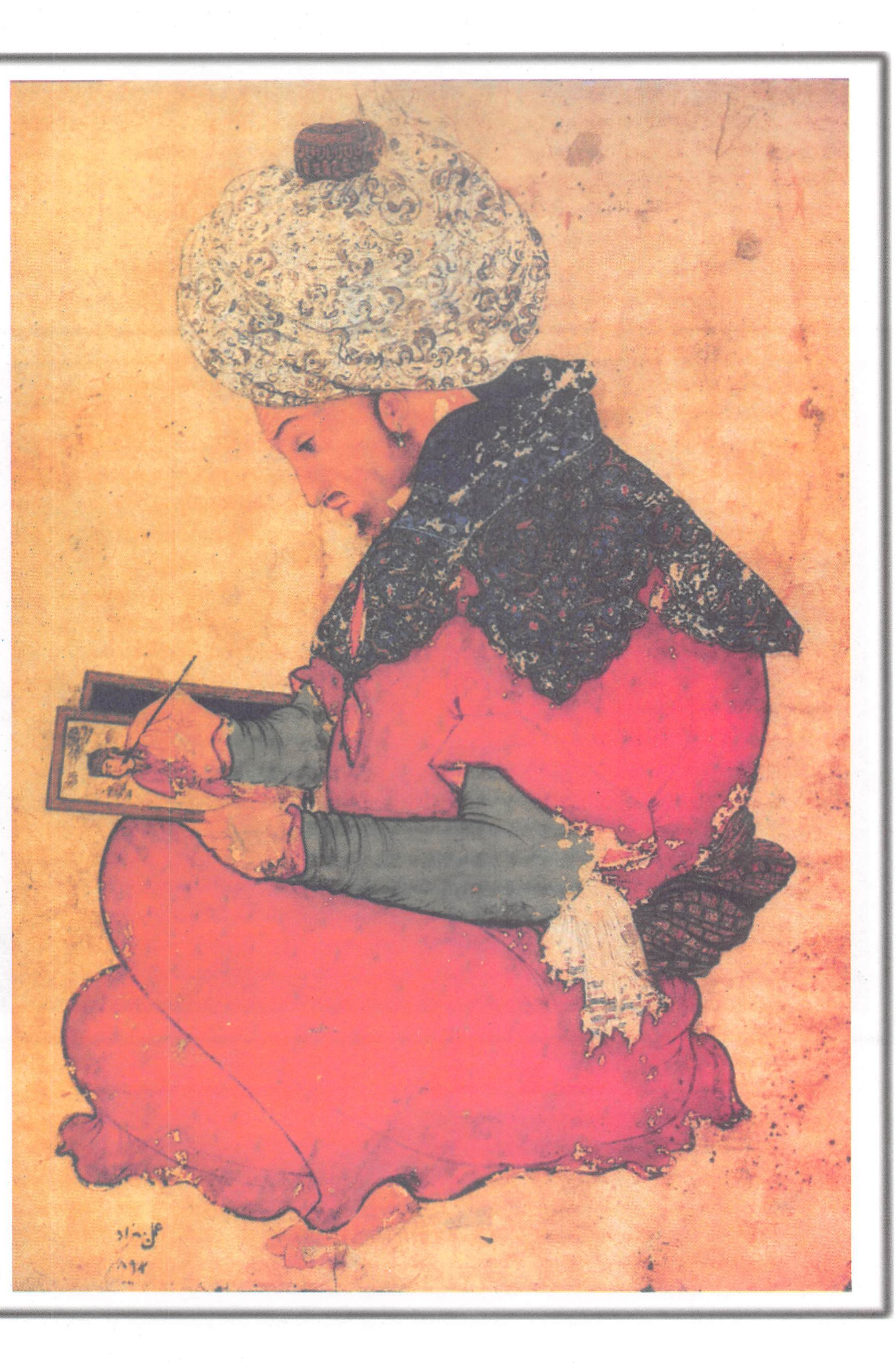






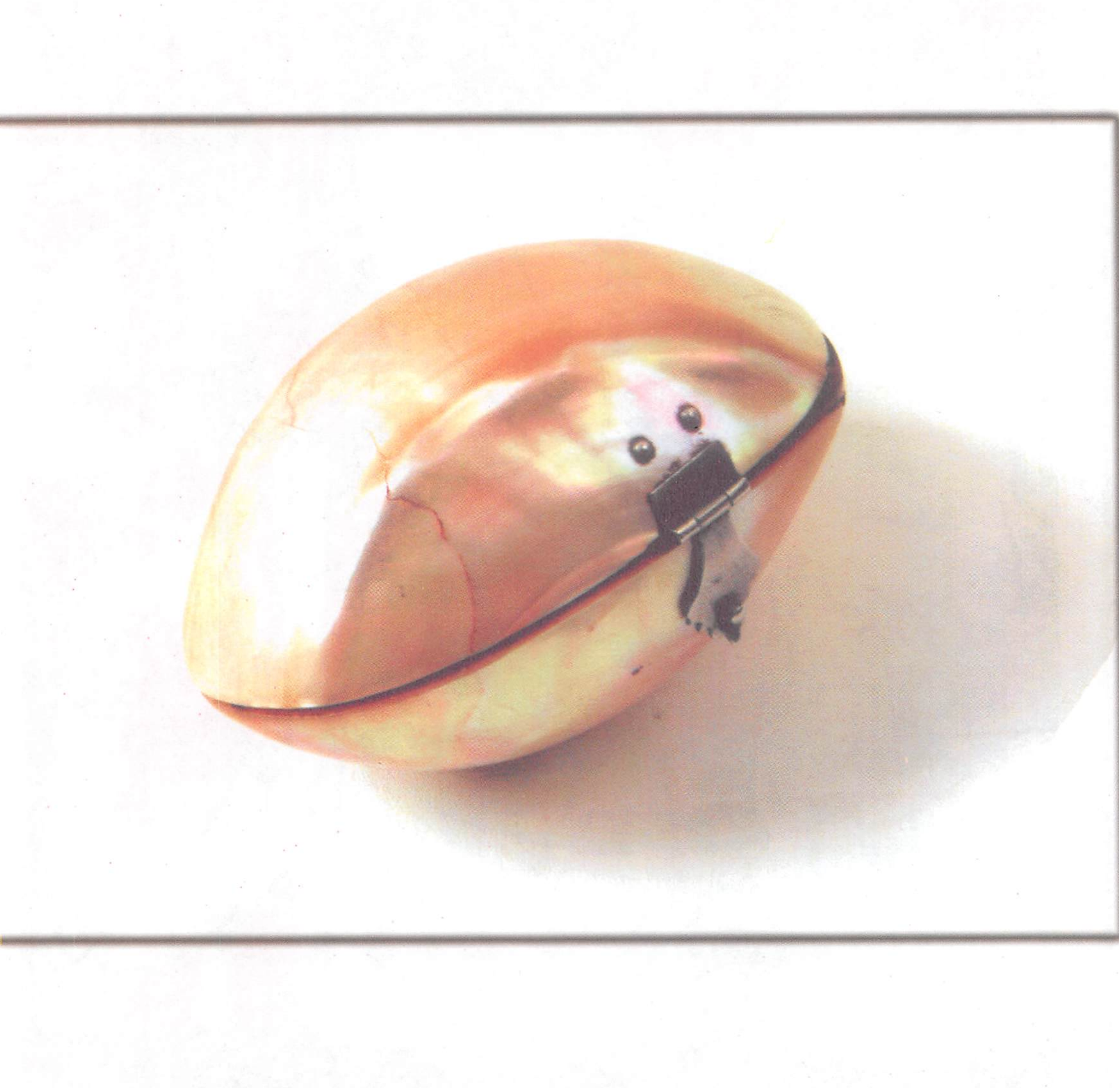






عمل بهزاد











الريـــش



التزيّن بالريش

■ مقايضة ريش النعام[1]

كان العسل يقدّم قديماً في الحضارات السودانية في عمليات المقايضة التجارية.. وكانوا يقايضون به ريش النعام والعاج.

لم تكن العملة الورقية موجودة.. ولا وُجدت العملة الفضية والذهبية بعد. كانت (الحاجة) هي أساس (المال).

فيا إفريقية الجميلة.. كم جهلنا وما زلنا نجهل المقدار الحقيقي لثرواتك، فأجمل.. وأشرس.. وأقوى حيوانات الدنيا في مجاهل غاباتك وسهوبك بألوانها المذهلة.. بفرائها ووبرها تارة.. وبريشها الناعم الأرق من قبلة طفل صغير تارة أخرى.. وبأزيز النحل المتواصل.. يمتص رحيق أزاهر الأعاجيب، ليفرز بقدرة الله تعالى هديته الأمينة الرائعة (العسل).

والعسل شفاء ودواء وغذاء.. ولهذا كانت أقادم الحضارات السودانية.. حيث النيل الرائع.. تتبادل حاجاتها الأساسية فيما بينها أو تصدر تلك الحاجات.

---

(١) إذاعة مونت كارلو ١٦/٩/٢٠٠٦م

وها هو (النعام) سارح يتباهى بأرياشه البيضاء النادرة الرقة، وها هو العسل بأنواعه وبغذائه الملكي.. بشهدِهِ الأشقر أو الأزهر آلاف الثروات.. لكننا هنا سنقتصر على تبادل ريش النعام.. بالعسل، فريش النعام كان يستعمل لمراوح الملوك.. وللمِذّبات الضخمة التي تهشّ الحشرات - والحرَّ عن رؤوس جميلات السودان.

■ التزيّن بريش الطيور فوق الشعر أو العصبة

ولقد كانت العرب تتزين بريش الطيور.. تضعها على رؤوسها، وبخاصة في اليمن، وقد شوهدت تلك الظاهرة لدى بعض القبائل الإفريقية.

ولقد كان أهل اليمن وحتى عام ١٩٣٦ يأخذون ريشتين طويلتين جميلتين.. توجدان في ذنب طائر الشِقِرّاق... الأَخْيل.. ولا توجدان في غيره من الطيور. فيزينونِ بها رؤوسهم.. يتغاوون بها في الأعياد الجبلية.. وذلك للمعة في أرياشه - وقد ذكر تلك المعلومة الأستاذ محمد وصفي زكريا عن مشاهدة شخصية رواها في كتابه (حيوانات وطيور بلاد الشام من النقب إلى حلب)[١].

■ الريش في زينة الرجال والنساء

لو طاووس هنا يتفتّل.. لو طاووس السعادة هنا.. يفرش ذيله الساحر..

لو طاووس السكون يتبختر بين الحشائش الزمردية بذيله ذي الألوان البراقة..

---

(١) حيوانات وطيور بلاد الشام: ٩٩. منشورات الجمعية الجغرافية الفلسطينية ١٩٨٣، ضبط وتقديم أحمد غسّان سبانو

لو حصل.. لكنت غرقت في حال عدم الوعي المطوّق باللا آلام واللاآثام..

ولكنت رأيت الجنة[١].

لو ريش نعام.. لو مخدّة أسطورية من ريش النعام، أغرق فيها رأسي المثقل بالأفكار.. وأفكّر بالنعومة القصوى.. بالوجد الأقصى.

لو ريشة شحرور أسود، أضع في آخرها شيئاً من العطر ثم أغمسها في حبر الصين الداكن وأكتب.. وأكتب..

لو ريش نعامة شاردة أجعله لوحة بيضاء كباقة العرس، أو ربطة في زنّار حقلي، وأحصد القنّب والقمح..

لو يوجهني الحرّ نحو خط الاستواء، فأتحول إلى إنسان بدائي، وأصبغ وجهي بألوان السحر الأبيض ثم **أمسك مروحة من ريش الحبارى** وأروّح بها عن نفسي، أروّح بها عن نفسي.

لو طائر الرخ يحوّم في السماء ويرمي إليّ بريشة واحدة من أرياش الفنّ والخلود، لكنت عانقتها، لترتقي بي نحو النجوم السائرة، حيث يقبع العلماء والشعراء.

لو ريشة صغيرة من طائر الحجل المتأنّي، أضعها في عقدي.. لتبهر لؤلؤتي الفريدة، وتكلّمني عن الصحراء التي اقتربت مني، وابتعدت عني وأمسكتني عن الطيران.

لو ريشة واحدة من هُدْهد سليمان، أضعها لتنزلق كالسنبلة بين راحتي يدي.. فتخبرني عن الحقيقة.. عن أشياء لا أعرفها ولم أسمع بها.. فأتوب عن بكائي، ويشدّني العشق، ثم يشيّدني برجاً من المرايا.. أو من الريش.. لا فرق.

---

(١) هذيان هر مصاب بالاكتئاب، للمؤلفة.

لو تلك البجعة البيضاء تهديني ريشة من جناحها، إذن لكنت رقصت فوق البحيرات الزرقاء والخضراء.. مستندة إلى ظفرٍ واحد، أو إلى شعرة من خصلتي، شاعرة بأنني خفيفة كالطير ساذجة كالنملة، ورضيّة كالنحلة..

ولو أتت الزرازير المتوهجة بألوانها الغريبة المعدنية تقاتلت.. أو تشاجرت.. أو بنت أعشاشها قربي، لكنت التقطت من ريشها الفاخر وجعلته غلافاً لكتابي.

لو ريشة من الخيال، **ريشة ضخمة رفعتني إلى المنقار الضخم لطائر الرخ** الذي ذكره القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) فعرفّنا بالطير والإنس والنبات والحجر والنجوم..

ملحمة الفردوسي

ورفِع الفنانون والرسامون العظام، فجعلهم يصلون في عالم الخيال إلى ما لا يمكن الوصول إليه.. سواء كان الرسامون قدامى أو جدداً.. وأشهر هؤلاء في الفن الفارسي القديم من رسم المأثرة الخالدة «خمسة نظامي» التي تتألف من ٣٣٧ ورقة واثنتين وعشرين منمنمة..

أمسكنا بين أيدينا الكتاب الرائع «الفن الإسلامي ورعايته» [والصادر عن دار الآثار الإسلامية] في الكويت فتخيّلنا.. ونحن نشاهد منمنمتين رائعتين في المأثرة العظيمة «خمسة نظامي» تتحدثان عن قصة حُبّ.. أو قصة سفر.. أو قصة تنقل الإنسان بين الشرق والغرب. فبين يوم الأربعاء ويوم الجمعة كان «بهرام غور» الملك الساساني الذي ذكره الفردوسي في الشاهنامة يتنقل بين الشرق والغرب، معلناً حبّه في زيارته إلى أميرة شِمال إفريقية في المغرب يوم الأربعاء.. ثم نراه جالساً جلسة الوفاق مع أميرة إيران يوم الجمعة.. فهل حمله طائر الرِّخ.. أم حملته طائرات القرن الحالي التي تخيّلها الأدباء والفنانون منذ مئات السنين..

■ أميرة المغرب الإفريقي

يبدو الليل وقد أصبح كحلياً.. وبهرام غور يجلس قرب بركة مع أميرته التي ارتدت ثوباً نيلياً بلون ذاك الليل.. وفي البركة ماء أزرق تسبح فيه الأسماك.. أمّا ذراعا الملك فقد تحولتا إلى جناحين لامرئيين.. وعلى رأسه استقرت ريشتان.. ريشة حمراء وريشة خضراء وُضِعتا في عمامته الكبيرة البيضاء.. المستدّقة الرأس..

■ أميرة إيران

وها هو بهرام غور قد عاد يوم الجمعة نهاراً إلى بلاد فارس.. والوقت في المنمنمة يبدو وكأنّه وضح نهار.. وبهرام غور يجلس بأمان معانقاً أميرته الخاتون بعد أن عاد به الطائر الخرافي.. وهو ما يزال يضع عمامته.. ريشة خضراء.. وريشة حمراء.. أمّا أميرة ساسان الإيرانية فتجلس هانئة بين يدي بهرام وعلى رأسها عمامة صغيرة عليها ثلاث أرياش بنيّة.. وكل من كان من شخوصٍ في المنمنمتين كان على رأسه الريش.

ملاحظة: هناك مثل شعبي في بلاد الشام لمن يتيه بنفسه مختالاً فيقولون «كأنَّ على رأسه ريشة» إنه مثل شعبي مأخوذ من تراث علومٍ وأساطير عبر القرون.

■ الريش في الهند

ولقد وضع الملوك والأباطرة المغول في الهند وبعدهم المهراجات.. العمامات المزيّنة بالريش.. وأضافوا إلى مقدمة العمامات اليواقيت والزمرّد التي تحرسها حركات الأرياش.

■ مظلّات ضد الحَرِّ من الريش

ولقد استعمل الأباطرة والملوك «ريش النعام» «وريش الطواويس» «وريش بعض الطيور الضخمة» فصنعت لهم المذبّات والمظلّات.

■ الريش والتاج في شاهنامة الفردوسي

غطّى موكب الليل الأسود السهول.. ورمى على الوديان ثوباً مصنوعاً بأرياش الغربان.

فكأن الأرض كانت تنام تحت هذا الشال الأسود[١].

من ملحمة الفردوسي المترجمة من الفارسية إلى الفرنسية (بيجن) يذهب إلى خيمة (مَنيجَة)

خرج من الظل.. ظل أشجار السرو.. واتجه ماشياً بتعجّل نحو خيمة (ابنة فريدون).. وصل وأزاح ستارة الباب ودخل، كأنه شجرة سرو ممشوقة محزومة بحزام من الذهب، كانت السجادة مصنوعة من البروكار، تمد أرض الخيمة، وقد بدت ألوانها **كألوان ريش الطواويس.**

وكانت الخيمة منثورة بالذهب ممّا شبهها بفراء فهد أرقط.. وكان داخل الخيمة معطراً بالمسك والعنبر وكان نطاق الخيمة مطرزاً بالذهب في كلّ الجوانب ثم.. غُسلت قدما (بيجن) بالمسك وماء الورد[٢].

---

(١) كتاب الملوك - شاهنامة الفردوسي. مؤسسة سندباد في باريز.
(٢) كتاب الملوك - الفردوسي الشاهنامة الفارسية.

الريش فوق رأس نفرتيتي زوجة الفرعون أخناتون

قال أخن - آتون (أخناتون) في زوجته الرائعة الجمال (نفرتيتي): **الوريثة الكبيرة بقيمتها.. سيدة الظرافة وعذوبة الحب.. السائدة على الجنوب والشمال.. المعتزَّة بالريش فوق رأسها الزوجة العظيمة للملك الذّي يحبها.** والمعروف أن نفرتيتي (سوريّة) ميتانية الأصل.. ابنة الملك توشراتا.

■ الريش في أواخر السهام

راميـاتٍ بـأسـهـم ريـشـهـا الـهـدبُ   تَـشُـقّ الـقـلـوبُ قـبـل الـجُـلـود

المتنبّي

يقاتلون.. والسهم المُسدّد أوّله حربة وآخره ريش.. قد يكون هذا الريش ريش غراب.. أو ريش حُبارى.. أو ريش «مالك الحزين» الهادئ.

ويقاتلن.. يرمين بأسهم من ألحاظ العيون! أول السهم يدخل الفؤاد فيقتله حباً، هي نظرة كالسهم خارقة.. ونهاية السَّهم.. نهاية الوصول، أهداب كثيفة كأنها ريش سهام حقيقية.. النظرة تشقّ القلوب.. قبل أن تخترق الجلد.. والأهداب تدغدغ.. وتضحك من قتيلها.. هكذا سحرت المتنبّي لحاظ العيون ذات الأهداب الطويلة.

الريشة القلم

مثلما يُغمَّس المِكْحَل بالكُحل.. ويغمّس الورد والغصن بالعطر.. تُغمس ريشة الطائر بالحبر.. لتصبح قلماً.. نمسك بالريشة الأنيقة - نبريها ونحددّها من أسفلها الأسطواني الأجوف الذي يشكّل هيكلاً استنادياً.

عالقة فيه نمنمات الريش الرقيقة.. فكأن الريشة تشبه ورقة نباتية بشأنٍ آخر.. ولكأن الريشة سمكة لها هيكل لطيف.. فبعد أن استعملت الحضارات القديمة في بلاد الرافدين وبلاد الشام أغصان «القصب» لتستعملها في كتابتها النقشية على الصلصال الذي يدخل الأفران.

بعد ذلك.. تداول الناس أرياش الطيور.. ووهب البحر للفينيق حِبره السرِّيّ من بعض مخلوقاته.. واشتهر أيضاً حبر الصين الأسود الثمين.

بهذه الريشة.. بهذا الحبر.. خُطَّت أعظم المعاهدات.. وكُتبت أروع الأشعار وحُدِّدت أنقى الأسفار.. حتى أصبح الريش ترفاً حضارياً.. وقلماً سحرياً يستعمل حتى نهايات القرن التاسع عشر..

الريش على جبين للأفراس

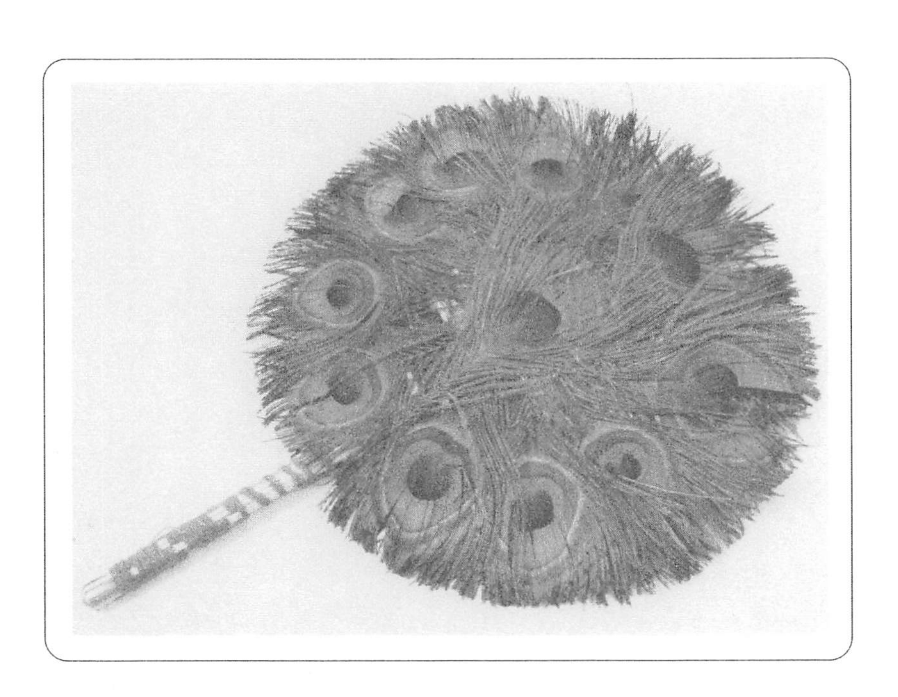
كانت الفَرَس عند العرب تُدلّل مثل الولد.. وكما تزركش حِلّة الفارس كانت سروج الأحصنة مزركشة مزينة ومطرّزة..

وللحصان أو الفرس عصابة حول الجبين.. تنسدل جلودها من جانبي الرقبة لتمسك دائرة جلدية ثُبت عليها ما يدعى (الرسن).. ولقد عُني كل فارس بفرسه.. عبر الحضارات.. لما تمتاز به الأفراس أو الأحصنة من سرعة وقوة وشجاعة.. فقد كانت.. وسيلة الركوب في القتال والغزوات.. وفي أثناء الكرّ والفَرّ.. وعند الاحتفالات بالنصر كانت الأحصنة تزيّن وتعلّق عليها الأجراس والجواهر.. وتزيّن عصابات جباهها بأرياش طويلة جميلة.. فيتيه الفارس فخراً.. وتتيه الفرس زهواً وهي تختال في الاحتفال وتمشي مِشية (الرَهْوان).

ولقد عرف عن الرومان حتى في العهود الرومانية السورية أنهم كانوا يرشون العطر في إسطبلاتهم. غمسوا الأرياش في العطر أيضاً.. قالوا:

دعوا الفرس في العيد تتبختر وعلى جبينها الريش.. تجوّلوا أيها الجند بين الحارات الشامية الضيقة.. ودعوا الأطفال يقفون مبهورين بأفراسكم التي يتمايل الريش فوق جباهها.





المراوح

المراوح

لم تكن المراوح في البدء أدوات للتجميل.. بل هي كما يدّل عليها اسمها للترويح عن النفس من الحرّ الشديد.. ومن الطبيعي أنها كانت تستعمل من قبل الرجال والنساء.. أمّا المروحة البدائية فكانت من أغصان الشجر، ويغلب أنها كانت من **سعف النخيل وأغصان جوز الهند** ..وبعد أن صاد الإنسان الحيوان.. وعرف قيمة أرياشه.. جمع ريش النعام.. وريش الطواويس الرائعة فجعلها مراوح. وكان هذا النوع من المراوح مستعملاً من قبل الملوك والأمراء. وقد عرف عن ملوك اليمن استعمالهم للمراوح الكبيرة، فكان الملك الحميري سيف بن ذي يزن يجلس على العرش وخلفه غلامان يذبان عنه الهوام.. ويحركان الهواء الساكن لتزداد رطوبته فيغدو ليناً.

كما كان الفراعنة يستعملون المراوح المصنوعة من **أوراق البردي ومن أوراق النيلوفر المجففة** ..وكانت المراوح مزخرفة بالألوان كما بدت في صور المعابد والقبور الفرعونية. ولربما استعمل القدامى المراوح الورقية لتلطيف الحر.. وطرد الحشرات.. أمّا الملوك الأباطرة المسلمون المغول في الهند فكانوا إضافة إلى المظلّات يستعملون كما أسلفنا المراوح الرائعة المصنوعة من **ريش الطواويس الرائعة الألوان** ..بل كانت فِيلة الملوك المدلّلة.. تُحمى بالمظلّات بعد تزيين الفيلة بعقود اللؤلؤ والمرجان والياقوت - وغالباً ما كانت توضع ياقوتة كبيرة فوق جبين الفيل الإمبراطوري وكان الغلمان يروّحون عن الفيل بالمراوح.. ليهدئوا من (انزعاجه) قبل ركوب الملوك فوقه..

❀ ❀ ❀

■ المراوح النسائية الشرقية

بدأ انتشار المراوح النسائية بين الشرقيات في بلاد الصين.. وكانت المراوح قد تصاغرت ونقشت بالرسوم والتماثيل.. وغالباً ما كانت تصنع من الورق المصنوع من نبات (البامبو) **الخيزران.. أو من تجفيف عجينة ورق الأرّز المنشّاة أو من الخشب الرقيق المتماسك** بواسطة الخيوط الحريرية.

كما اشتهرت الحضارة النسائية في اليابان باستعمال المراوح الملونة.

■ أدوات الزينة الرئيسية التي انتقلت إلى الحضارة الأندلسية

أما الحضارة الأندلسية فاشتهرت نساؤها باستعمال المراوح، وما زالت المراوح في إسبانية الأندلسية منتشرة مع الأزياء الشعبية التي نقلت عبر الحضارات - المشط - والمروحة - وصوت القبقاب القديم الذي تطوّر.. كما نقلت الخمار الأندلسي المشهور فتحول إلى زي شعبي إسبانيّ، تطرزه نساء الأندلس من الحرير، ويضعنه إمّا شالاً على الأكتاف أو غطاء رأس في المناسبات الدينية، وهو ممّا يسمى الدانتيلّا الحريرية.

جناح الطاووس

اقتطعنا ريشة من أرياش الطاووس.. فالطاووس الذكر تميمة، وإذهال في أرياش ذيله، فريشه عند الغضب.. أو عند إبهاره أنثاه.. يصير كنصف دائرة متجولة تحمل ألواناً تشبه الأعاجيب، فلكل ريشة ما يشبه العين.. أو ما يشبه الحجر الكريم المتعدّد الإشعاعات اللونية فالبُّؤبؤ كحلي - مزرّق - ذهبي.. يشكّل هيئة قمر لم يكتمل.. أو هيئة سفينة تمخر عباب البحر الأزرق مُحمَّلة بالعنبر - أو كأنّه يُشبه بشكلِه تفاحة قَضَمَتْها أسنان

عروس.. قضمة واحدة.. ثم تكبر الدائرة.. ويتلألأ اللون الفيروزي المحيط.. فيروز متقلّب بين الازرقاق والاخضرار.. محاط بدائرة طاووسية ذهبية تسطع تحت أشعة أي ضوء أو شعاع شمس.

أمّا إطار عين جناح الطاووس فممهور بلون الفستق.. رقيق كالمناغاه.. يُمُدّ أوتاره نحو لون بنفسجي ليلكي.. كَجَنْكٍ تتلاعب بأوتاره أصابع عاشق.. حتى تمتد بعد ذلك كل أرياش الطاووس.. وكلّ ريشة كأختها.. محمولة على الظهر.. مطوية.. مفرودة كالمروحة..

من هنا.. نشأت فكرة الإنسان في اتخاذ مراوحه من أرياش الطواويس.

❁ ❁ ❁

ولقد وصلت إليَّ مروحة.. كهدية.. من سيّدة شاميّة.. مستديرة كالقمر.. مصنوعة من ريش طاووس صغير.. محمولة على يد من عدّة قصبات متراصّة ملفوفة بخيط من الحرير.. لعلّها كانت مروحة في يد امرأة من الهند.. أو أميرة من السند.. أو ساكنةٍ في قصر من قصور القسطنطينية.. ثم انتقلت بعد ذلك إلى السيدة الجميلة الشاميّة.. التي آثرتني فيها.. وآثرها قلمي الباحث دوماً عن الطبيعة والحسن والجمال.. وعن الحزن والأسى حين تنتهي أيّام الحضارات البعيدة.. أو تتشقق اللحظات السعيدة.. لتبقى منها مراوح من أرياش طووايسِ آسية.. آسية العظيمة المشرقة.. المزيّنة.. الساحرة بكل ما فيها.

المشط



المشط

■ أنواع الأمشاط

منها أنواع: الخشب - الحديد - العاج - النبات - الفضّة - الذهب - البرونز - الزجاج.. عظام الحيتان - قواقع السلاحف - الصدف.

أمّا الأمشاط التزينية التي تُعقد في قمّة الرأس فتدعى في الأرّدن (الكراوْنْ) وهي الإكليل، والكلمة لاتينية بمعنى التاج corne - courone (فالكراون) للرأس.. (والكردان) للعنق.

يُقال: كرنَتْ المرأة رأسها مَشّطته، وغرزت فيه المشط، وقد دخلت الكلمة إلى الأردّن من «بيت جالا» و «بيت لحم».

(والكردانة) في العراق ضرب من القلائد بسلاسل ذهبية.. والكلمة معربة عن التركية (كردانلق)[١].

وقد عرفت المرأة العربية المشط، وهو من آلات التجميل القديمة، وقد أشير إليه في الحديث كما أُشير إليه في الكُتُب[٢].

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ٦٢٢ للدكتور جواد علي.

(٢) تاج العروس ٦/ ٣٢٠

قال عبد الرحمن بن حسّان:

قد كنتُ أغنى ذي غنىً عنكم كما أغنى الرجال عن المشاط الأقرعُ

قد كنت أحسبني غنيّاً عنكُمُ إن الغنيّ عن التمشط أقرع

■ المشط الفرعوني

كانت نساء الفراعنة يستعملن الأمشاط.. يضعنها تيجاناً فوق رؤوسهن.. ولربما كانت أمشاطاً من الذهب.. أو الفضة أو من اليشم.

المشط في أور - المشط في الأندلس
المشط في إسبانية

■ أور

ذكرناهن.. تسع نساء متمدّدات بهياكلهن العظمية داخل المدفن الملكي، كُنّ جميلات.. وفي عمر الزهور.. متن مع الملك.. كل من كان من حاشية الملك السومري كان يموت معه.. ابتداءً من زوجته وصولاً إلى خيوله. وليس من حقنا أن نناقش العقائد القديمة لكن.. بإمكاننا أن نتصور ما تبقى بالفعل مع الهياكل العظمية لهؤلاء النسوة.. الحلي.. الذهب.. أكاليل اللازورد.. العقيق.. ومشابك الشعر.. مع كلّ هذا.. كُنّ قد تزيّن للموكب الجنائزي ووضعن الأمشاط في مؤخرة رؤوسهن[١].

❀ ❀ ❀

(١) تموز- مورتكات.

■ المشط في الأندلس

أربعة آلاف عام.. والمشط النسائي المصنوع من العاج أو من الذهب والفضة.. أو من عظام الحيتان وقواقع السلاحف.. كان ينتقل عبر الحضارات المتتالية.. حتّى انتقل مع العرب الأمويين إلى الأندلس.. وهو ما يزال يوضع اليوم - كتقليد شعبي في رقصة «الفلامنكو».

الأمشاط

■ مشط من هياكل الحيتان

من الحظ أنهم كانوا سكاناً على شواطئ البحر، يخيطون ثيابهم بخيوط من لحاء الأشجار، ويستعملونها لتجمع عليهم أوراق الموز الضخمة، وحين ودت النساء ترجيل شعورهن الكثيفة اقتربن من هياكل الحيتان التي لم يتبق منها إلّا العظم، وأقبل الرجال يمسكون أحجاراً صقيلة من الصوان فقصوا قطعاً من العمود الفقري للحوت المرمي على الشاطئ.. هذّبوا العظام.. فأصبحت أمشاطاً.. ثم أهدوها إلى نسائهم.. فَرجَّلنّ شعورهن الجميلة، ثم وضعن زهرات الميموزا فوق آذانهن.. وانطلقن يبحثن عن ريش النعام..

كان هذا المشط هو الذي استعملته نساء الشواطئ ثم الرجال.. كان مشطاً من هيكل حوت جُرِّد من لحمه.

■ مشط من ظهر السلاحف

واختلفت الأمشاط فيما بعد.. وبما أن السلاحف الجميلة كانت تتجول هنا وهناك.. فقد صنع القدامى من ظهورها أمشاطاً بنيّة أو رمادية، وكان المشط المصنوع من ظهر السلحفاة جميلاً..

■ مشط من صدفة «الترسة»

وعند اصطياد أصداف «الترسة» البحرية وهي نوع من السلاحف شحذوها.. ولمّعوها.. وصنعوا أمشاطاً رمادية، شبه شفافة، يختلط فيها مع الرمادي اللون البني والبرتقالي يجملان مشط الصدفة بانحناءات وخطوط رائعة، وهذا النوع من الأمشاط كان منحنياً بطبيعته مع انحناء الصدفة فكان زينة للنساء.. اللواتي يُغنين قرب السواحل طالبات سواعد البحارين..

المشط البلّوريّ المرصع بالجواهر

نحن في تركية الآن.. أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر.. نشاهد مشطاً رائعاً مصنوعاً من قوقعة سلحفاة.. لكنّه ليس مشطاً عادياً من أمشاط السواحل.. فمقبض المشط مقتطع من قطعة واحدة من البلّور (الكريستال) لابدَّ أنّه كان لإحدى السلطانات وقد نُحِتَت على الكريستال حفر متعددة بدقة.. لتتربع فيها قطع الزمرّد والياقوت.. كل زمرّدة تساوي ثروة تدير الرأس، وكلّ ياقوتة تساوي قصراً منيفاً في بلاد الأساطير.. الزمردة العظمى في الوسط.. وياقوتة حمراء لونها كدم الحمام.. تليها يواقيت زرق.. ثم زبرجد وزمرّد، وما يدعى اليوم (الأميتست). وهو الجمشت مشط ساحر يأخذ بالألباب. وحول مقبض المشط شريط من الذهب زَينتّه ثلاثون حَجَرةٍ من الياقوت..[١].

---

(١) صورة من كتاب: الفن الإسلامي ورعايته - كنوز الكويت ص ١٨٥ وهو من مجموعة آل الصباح.



الشال



الشال أو الوشاح

■ الفراعنة والشال

استعملت نساء الفراعنة الشال فوق الكتفين كما كانت تفعل أورال، ويجيء ذكرها في بحث الحِلي[١].

■ نساء البشتون والشال

في أواسط آسية.. وفي الجبال العالية المشرفة على كابول.. وفي أي مكان آخر على سطح هذا الكوكب الحار.. البارد.. تستخدم النساء (الشال) يضعنه على أكتافهن اتقاء للبرد.. وأشهر الشالات هي الشالات الأندلسية.. لكنّ نساء البشتون الجبليات القويات قلن شعراً في الشال.. وها هي إحداهن إذ تطلب من رجلها أن يكون شجاعاً في قتاله.. تقول:

جُدْ بنفسك يا حبيبي في المعركة

سأغطّي ضريحك بشالي متعدد الألوان[٢]

---

(١) زوجات الفراعنة - ليونارد كوتريل ص ١١١.

(٢) من أغاني «اللانداي» الشعر الشعبي لنساء البشتون. تحرير: سعيد بهو الدين مجروح. ترجمة: جميل صلاح. دار الانتشار العربي.

الطيلسان

هو ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن.. خالٍ من التفصيل والخياطة.

وطيلسان كلمة معرّبة عن الفارسية (تالسان) أو (تالشان)(١).

والطيلسان تلبسه الملوك والأمراء لما يُبدي من الهيبة، وقد ذكر عن الرشيد أنّه كان يضع طيلساناً أزرق يوم سار في جنازة أمّه.



الشال بعد ١٨٦٠

كانت اللبنانيّات الجبليات بعد ١٨٦٠ يلففن على خصورهن شالات مخططة من الحرير بعضها يُسمى (شال كشمير) وبعضها (شال طرما) وكن يرخين ضفائرهن على ظهورهنّ معلقة بأطرافها الغوازي الذهبية.



العقال

بعد ذلك.. لُبس العِقال، ولُفَّ على الرأس، أو أسدل على الأكتاف.. ثم رفع وحُبِك فوق الرؤوس.. وظلّت الطرحة البيضاء دائماً.. فنساء الشّوف يخفين أفواههن خلفها.. حتّى اليوم(٢).

(١) فقه اللغة للثعالبي ص ٢٧٣ شرح د. ياسين الأيوبي. المكتبة العصرية

(٢) أميرات لبنان. كرم بستاني. دار نظير عبود ص ١٣٦

العصا والصولجان





العصا والصولجان

■ مع العصا

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل ٢٧/ ١٠].

■ عصا موسى

كانت عصا موسى – عليه السلام – من خشب الورد الجبلي الذي ينبت في الجبال، فكلما قطع منه غصن غلظ ونما.

■ عصا الراعية

في سهول بلاد الشام.. وفي أرجاء البادية.. وفي ممرات الجبال.. تنتشر قطعان الأغنام ترعى ممّا رزقها الله من أعشاب نادرة.. وكثيراً ما تسرح الصبايا مع بعض غنمات للأسرة، مبتعدات عن قراهن.. متسلّقات مستويات الهضاب المعشبة.. غير خائفات.. فالفتاة الراعية كالشاب الراعي تماماً لا تهاب حشرة تدب في الأرض، أو أفعى تنسلُّ مبتعدة بهدوء.. أو بريق عينيّ ثعلب بعيد.. لا تهاب صوتاً مجهولاً.. ولا كائناً حياً يعترضها.. فهي

بحكم تعاقب الليل والنهار.. بحكم الموروث والمُعتقد.. تعود إلى المنزل مع قطيعها الصغير قبل الغروب.. وقبل سقوط الشمس وراء الجبل.. أو في قوس البحر البعيد، والرعيان.. بصورة عامة يمسكون بعصا في يدهم.. يهشّون بها على الغنم.. ويستعينون بها على تجاوز الصخور والممرات الصعبة.. ويقتلون حشرة ضارّة أو ضَبّاً كبيراً يعترض الطريق. ولقد كانت الراعيات في بلاد الشام يستعملن العصا المقطوعة من شجيرات المحلب فالساق قوية خفيفة، تساعد الراعية والجبال والغنم والصحراء.

■ عصا الاستناد

يغلب أن يتكئ الإنسان على عصاه إذا ضعفت قدماه أو أصابته علّة.. أو شعر بوهن العمر وقد كان الرجال في أواخر العهد العثماني يتكئون أو يتباهون بحمل العصا.. وغالباً ما تكون العصا من الخشب ذات مقبض من العاج.. أو ذات مقبض من الفضة المطروقة.. أو تكون العصا عادية خشبية عليها بعض الزخرف.. وقد يُكسى طرفها بالنحاس أو الحديد.

الإنسان والعصا

منذ متى تعلّم الإنسان الاستناد إلى العصا.. منذ متى أرشدته في وعر الطريق.. أو أرهب بها حيواناً في البرية؟.. أمن زمن الأدغال أم مذ أصبح راعياً يضرب رأس الأفعى بعصاه؟!.. لقد تعلمت نساء البادية، لاشك، استعمال العصا قبل النساء المدنيّات.. وتعرفت الراعيات على العصيّ وصنعنها من أغصان شجر المحلب.. هَششن بها على الأغنام، وأبعدنَ الكلاب الشاردة.. وتعكزن على العصا حين كبرن، وأصبح الطريق وعراً عليهن، وحين انحنت ظهورن.. استعملن العكاز، فأصبحت العصا قدماً ثالثة تساعدهن على استمرار الحياة..

أمّا الرجال.. فكان استعمال العصا بالنسبة إليهم رمزاً للقوة.. فالعصا للباشا.. العصا للعمدة.. العصا لوجهاء القوم.. والعصا للملوك.. عصاً لم تعد من خشب الحقول أو من أغصان النبات.. أصبحت من (العاج) وأصبحت مزخرفة بالجواهر وصار لمقابضها رسوم محلاة بالذهب والفضّة.. كما هو الحال في كنوز ملوك الهند المغول. بل أصبحت صولجاناً ودليلاً على العرش!.. لقد كانت العصا رمز الدولة العباسية. أمّا عصا الحقول.. العصا ذات الشِعب أو ذات الشِعبين فقد بقيت في أيدي الراعيات واستند إليها الأنبياء.. ولم تكن حلية قط.

■ أجمل صولجانات الشرق الهندي المغولي

تحار عندما تراه.. فكم هي رائعة وكريمة هذه الطبيعة التي وهبت لنا هذا العقيق الملوّن، هذا الجزع.. وهذا (الكوارتز) (عين الهر)، وهذا (الجاسبر) ذو اللون القرميدي العتم وهو (اليشب) العقيق الأحمر (حجر الدم) وتحار عندما تراه.. متماسكاً ممسوكاً بالحديد غير المرئي، وفي أعلاه يتربع تاج أبيض عقيقي.. ما الفرق إذن بين عصا الراعي التي اقتطعها من شجرة زيتون قصية وهذه العصا الصولجانية؟ فكل شيء مأخوذ من الأرض.. منحوت بيد الإنسان الذي أبدع.. فجعل الغصن عصاً.. وجعل الحجر الكريم صولجاناً!![1].

العصا البابلية مع الخيتون البابلي

كانت النساء البابليات يرتدين ما يُسمّى «خيتون» وهو قميص من الكتّان يصل حتّى القدمين.. وفوقه آخر من الصوف، وقد يكون مربوطاً بحزام، ثم يطرحن على الثوب والمعطف «شملة» بيضاء ليست كبيرة

(١) القرن السابع عشر.. الهند - الإمبراطورية المغولية.

الحجم. أمّا شعورهن فكانت طويلة تُلَفُّ (بِعصابة) بيضاء.. وكنّ يدهنّ - كما الرجال - سائر أجسامهن بالطيب. وكان لكل بابليّ أو بابليّة (ختمهما الخاص) (وعصا) رائعة الصنع تُزيَّن من أعلاها بما يشبه (التفاحة المنحوتة) وقد يكون مَمْسَكُ العصا (وردةً) (أو سوسنةً) (أو نسراً). ولقد كانت أصابع البابليين والبابليّات تتزيّن بالخواتم المحفورة من الحجر، وذلك حوالي القرن السادس قبل الميلاد.

أحبت النساء الملابس الملوّنة، وعشقن اللون الأحمر والأزرق، وكنت ترى مجموعة كبيرة من الألوان في ملابسهن كالثياب الصفراء والخضراء والبنيّة والبرتقالية والسوداء والبيضاء. وكلها مزركشة بالأزرار والمشابك والبِكل، وتستعمل فيها الأبازيم، أمّا هذه الأزرار والمشابك فكانت من (الذهب) (والفضّة) (والبرونز) (والنحاس) (والحديد) (والأحجار الكريمة وشبه الكريمة)[١].. وكانت العصا سنداً وحِلْية.

❀ ❀ ❀

مع العصا (في الشاهنامة)

عندما يقترب سيف الستين عاماً من رأس الرجل لا تعطه أيَّ خمر.. لأنّه سيكون ثملاً من ثقل أيامه، وقد وضع العمر بين يديه عصا بدل قطعة من الخبز[٢].



(١) أسرار بابل. ص ١٧٤ ف. أ. بليافسكي. ترجمة: توفيق فائق نصار

(٢) الشاهنامة للفردوسي.

رأس الماعز وعنقه
بيد ملوك المغول في الهند

أحبت الحضارات (الماعز).. أحبّته وشكلته في صولجان الملوك ولوحات المعابد، رمزاً للخصب والقوة والجلال.. فمنذ آلاف الأعوام.. منذ القرون السومرية نقشت رسوم الماعز على اللوحات الجنائزية.. أمّا أباطرة الهند فنحتوا رؤوس الماعز الوديعة مقابض لسكاكينهم، مقابض رائعة رشيقة من العاج النادر.. أمسك الأباطرة برؤوس الضحايا.. لتندمج بسكاكين الفولاذ.. وكان بذخهم أسطورياً، فلم يكن هناك فرق بين الضحية والسكين إلّا الذهب المرصع.. فعلى الموائد أترعت كؤوس البلّور، واستعملت السكاكين العاجية الرائعة التي سكتت أصوات المنحوتات فيها.. سواء كانت ماعزاً أم تيوساً بقرون مستديرة.. سكتت ليتحوّل العاج إلى هذا الفن المذهل الأخّاذ..[١].

خازنة قصر الحريم
في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

ثم جاءت سيدة مسنّة تلبس زيّاً مختلفاً عن الأخريات، وعلى رأسها دبابيس من الماس والياقوت والزبرجد تبهر الأبصار.. وكانت تتوكأ على عصا قبضتها من الذهب[٢].

---

(١) كنوز العالم - صورة الصولجان من مجموعة آل الصباح - متحف الكويت.

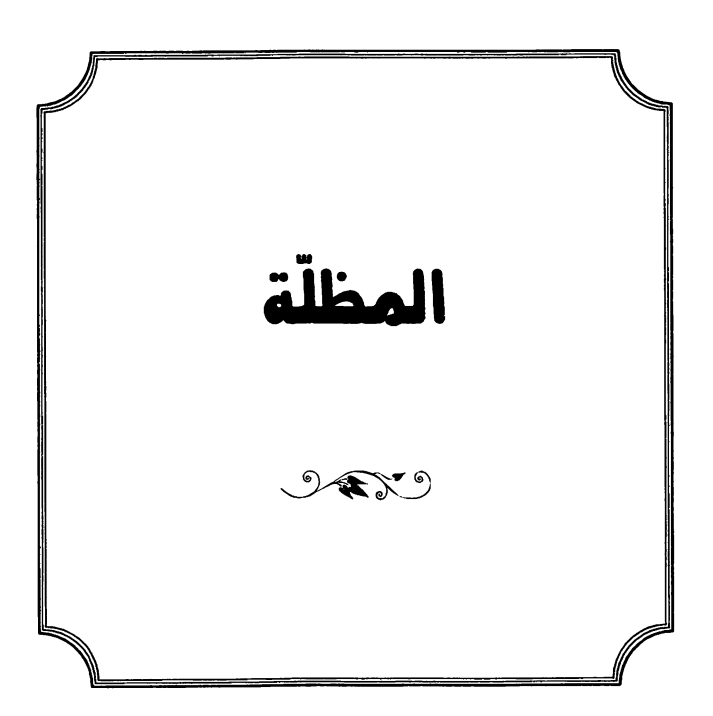
(٢) سهام ترجمان. رسائل الأميرة زينب الحسنية إلى الرائدة الشامية ماري عجمي ص ٩٤.

■ عصا النبي يحيى

هو اسم من الأسماء يطلق على نوع من الصبّار، ذُكِرَ وصُوِّرَ في كتاب (ورد الشام)[1] فما الذي دعا الموروث الشعبي النباتي يُطلق على هذا الصبار اسم «عصا النبي يحيى»؟؟

---

(١) ورد الشام ص ٧٣٢. العماد مصطفى طلاس



المظلّة



المِظَلَّة

كانت المظلّة رمز الدولة العبيدية

أيتها الشرقية.. مظلّتك الشجرة.. أنتِ الشجرة والأم والزيتونة.. تذهبين إلى السيران.. وتنتقين شجرة ما.. تستظلّين بها.. أو تتوهين في البادية تبحثين عن صخرة جبليَةٍ.. عن شجرة شوك.. عن مروحة نخيل.. أو تبقين في الخيمة في الدار، في المنزل، في القصر، أو تحت العريشة تستظلين مع عشق الطبيعة وعناقيد العنب، وفي المساء تكون مظلتك الدالية أو شجرة الليمون.. أو إيوان الدار..

وعندما تتمشين في الطريق.. تتخطّين وعورة الصحراء.. ترتدين الطرحة فوق رأسك.. تملئين يافوخك بأوراق التين ثم تضعين فوقه غطاء رأسك.

أنتِ لم تعتادي أبداً على القبعات.. ولا على حمل المظلّات.. فشمسك حارقة.. أمّا المظلات الشرقية فهي في سرادق الملوك.. يجلسون تحتها.. يتقون الحرّ والريح..

لهذا عني الحكّام الشرقيون بالمظلّات. . **فقد كان الفاطميون يتخذونها من الديباج والخزّ المحلّى بالجواهر** فإذا خرج الفاطميون للمبايعة أو لفتح، ركب الخليفة واعتمّ بعمامة الجوهر وبين يديه الجنائب

عليها السروج المرصّعة بالجوهر.. وقد نثرت على الخليفة المظلة المثقلة بالجواهر.

۞ ۞ ۞

أمّا مظلة ملوك اليمن الحميريين فكانت من ريش النعام والهواء يتلاعب.. والعبيد يلوحون بالمراوح.. وريش النعام بالريح يتلاعب والملوك تترطّب.

وكان لأباطرة الهند المغول مظلّات من الحرير الخالص يحملها الغلمان لتقيهم حرّ الشمس.. كما كانت تركّب فوق الأفيال مقاعد **للأباطرة والملوك تعلوها المظلّات البيضاء والملوّنة..**





الزُنّار



الزُنّار

لم يكن الزنّار قديماً من ألبسة العرب في البادية ربما لشدّة الحر، وللحاجة إلى نفحة هواء إضافية لا يمكن الاستغناء عنها.. لكن بلاد الشام كانت تستعمل الزنّار منذ غابر الأيّام والحضارات.. وقد تزنّر الرجال كما تزنرت النساء..

والزنّار قديم.. ربما كان في البداية حبلاً من **حبال الشجر** ..يضعه الإنسان فوق ثوبه كي لا يعيق الثوب حركته.. كي لا ترفعه ريح.. ولا يلمسه ماء.. ولا يبتل من مطر..

ثم تزنّر **المقاتلون بالجلود وسلاسل المعدن** ..واستعملوا الزنّار يعلقون عليه خناجرهم وأسلحتهم.. وبدا الملوك أكثر مهابة.. وهم يتمنطقون بأنواع **الأحزمة النادرة المزخرفة بالأحجار الكريمة.**

وقد نهى النبي ﷺ أن يصلي الرجل بغير حزام وأمر به لستر العورة والجيب فالحزام شَدٌ.. والحزام ضبطٌ..

لكن الحزام جمال.. والجميل منه ما تزنّرت به المرأة.

فقد أدركت على مدى العصور، أهمية خصر بين كفيّن عبلتين.

فالخصر وادٍ متجانس.. وطريق مستدير يفصل بين جبل الرّمان والتفاح وبين نور السوسن.. نقطة صفر نحو الأعلى أو نحو الأرض.

أدركت المرأة صوفية الخصر في الجسد، فهو الإمساك، وهو الإفلات، وهو الحد، وهو اللاحد.. وهو الوسط والوسيط.. أدركت الشرقية أهميّة الزنّار فتزنرت.. وبه تجملت.. وتشدّدت.. لم تعد كيساً هيولياً.. ولا منّاً من السمن أو جفّاً من الزبدة..

مع الزنّار أو الحزام

■ الرشيد يوم جنازة الخيزران ١٧٣هـ/٨٧٩م

مشى **الرشيد**، يوم وفاة أمّه الخيزران بطيلسان أزرق، وقد شدَّ وسطه بحزام.. وكان حافياً يخبُّ في الطين خبّاً وقد أخذ بمقدمة التابوت.. إلخ[(١)].



(١) هارون الرشيد، د. شوقي أبو خليل. دار الفكر - دمشق.

حكايات الزُنّار

حين تزنرت، تزنرت بالأغصان، وبالأزهار، وبالأوراق، تزنرت بجلود الماعز، وأثواب الأفاعي، تزنرت بفيروز إيران، ويشب اليمن، ولؤلؤ البحرين وزمرّد الهند وياقوت باكستان، شبكت خصرها بالفضّة.. وتمنطقت بالذهب.. ووقفت عبر الأزمنة، والأمكنة تُنَوّع من أحزمتها، وتبدّل في زنّارها، ترفعه من الخصر حتى الكتفين متصالباً.. وتترك أطرافه التي لونتها من الصوف تتدلّى فوق تنانيرها العريضة.. وتجعله تارة محفظة لمالها.. أو تصر في آخره خواتمها.. وكحلها.. وكلّما دقّ الخصر.. ظهر الزنّار أشدّ جمالاً **تزنّري أيتها الشرقية.**

❀ ❀ ❀

■ قديماً في بابل..

وبينما كان حمورابي يسنّ شرائعه الأبدية التي كانت بداية لقوانين الحضارة القديمة كلها.. وبداية لكل قانون.. كانت المرأة البابلية تعيش آنذاك بين المعابد والترتيلات وتأكل التمر رطباً.. وتحلم بمن يهفو إليه قلبها.. والقلب حين يهفو يهفو دون مقدمات أو ترتيبات أو تكهنات، يأتي الحب كما ينبت القمح.. كما تدر الناقة لبنها في الصحراء.. كما يثمر الزيتون.. كما تنبت أعشاب الصعتر والريحان في الربيع.. وتمضي أمواج الفرات.. ويصخب دجلة من بعيد.. هو الذي يدعى (النمر) لشدة جريانه وعنفه.. وتتهيأ العروس للقاء رجلها.. ويوم العرس.. يتقدم الحبيب المختار إلى عروسه البابلية لِيُنْقِدَهَا مهرها والمهر عادةٌ شديدة القدم في المشرق.. وفي احتفال طقسي ممزوج بالأهازيج.. تأخذ العروس المهر.. وتصره في

آخر زنارها الطويل.. ثم تبدأ بالرقص.. فارشة تنورتها العريضة التي طرزتها بيدها.. وزنارها يحزم خصرها والمهر يتأرجح معها خالصاً مخلصاً لها كامرأة شرقية ليكون ضماناً مستقلاً للمستقبل تستعمله كما تشاء.

■ حزام التُنْك البابلي

أمّا عامة الشعب فكنّ يرتدين (التُنْكَ) وهو يشبه الرداء الإغريقي والروماني.. ويكون وحيد اللون أبيض أو أسود أو بنيّاً.. ويكون قصيراً حتّى الركبتين مربوطاً بحزام. ولعلّ كلمة (Tunic) قد وصلتْ عبر الحضارات إلى عالم اليوم مأخوذة من لفظة تُنْك[١]. وكلّ هذه المقولات تؤكد ما ذكره هيرودوت في تاريخه.

خمار وزنار مُتيَّم الهاشمية

كانت صفراء مولدة من مولدات البصرة.. تأدّبت وغنّت وأخذت عن إسحاق وأبيه، وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناء..

قال صاحب الأغاني.. أبو الفرج الأصفهاني:

«هي أوّل من عقد من النساء في طرف الإزار زناراً أو خيط إبريسم.. ثم تجعله في رأسها فيثبت الإزار ولا يتحرك»[٢].

أجادت مُتيَّم.. فالمولدات ذوات الوجوه الصفراء يملكن شعراً شديد النعومة، مما يجعل أزرهن تسقط باستمرار.. فلا يكون لهنّ هَمٌّ إلّا إعادتها.. وهكذا أتت مُتيّم بزنّار جميل مطرّز.. ملوّن.. مُكَحّل.. وعقدت

---

(١) عن كتاب أسرار بابل ص ١٧٥. ف.أ. بليافسكي. ترجمة: توفيق فائق نصّار. دار علاء الدين. طبعة أولى ٢٠٠٦

(٢) المستطرف من أخبار الجواري.

زنارها في طرف إزارها ثم عقدته حول رأسها.. فبدا الإزار أجمل.. وبدت مُتيّم أجمل وكانت تعقد الإزار أحياناً بخيط معقود مضفور من الحرير فلا تُمسك الإزار ولا يزيح عن رأسها.. وإلى يومنا هذا تعقد بعض النساء الآسيويات فيما وراء النهر طرحات رؤوسهن بزنانير نحيلة أو خيوط من الحرير.. ليصبح هذا الفن زيّاً شرقياً تسير به المرأة، وحرير خمارها يتجاوب ويرقص مع رياح الجبال، وهو ثابت فوق رأسها.

■ زنّار نساء المدن في بلاد الشام

كان الزنّار الذي تستعمله بنات المدن ونساؤها عريضاً يعقد ويُشّد على الخصر لإظهار دقّته.. ولمنع الثياب من التلوّث بالأرض.

■ الدِكّة

وهي شريط معقود مبروم ومجدول من الكتّان.. يُدخل في ثنية محاكة حول دثار (الملاية اللّف) (أو الملاءة الزّمّ) ويُشَّد على الخصر حسب الطلب، لمنع التنورة السوداء من السقوط.. وتستعمل الدكّة لتثبيت السراويل الداخلية التي تنتهي بالكشاكش عند رسغ القدم.. كما تستعمل لتثبيت بعض الثياب الأخرى.

❀ ❀ ❀

■ زنّار نساء البادية في بلاد الشام «الكَمَر»

هو حزام يثبت ويشّد ثوب المرأة.. وهو ما يُسمّى «الكَمَر» ويكون من الصوف المغزول الملوّن أو المُقلّم بخطوط متوازية وينتهي الكمر بشراشيب كثيرة تُترَكُ متدلية بعد عقده على الخصر.. وترتدي المرأة البدوية

فوق ثوبها قفطاناً قصيراً يدعى (التدمرية) أو (الدامر)، ويكون غالباً من الجوخ المبطّن بفراء الخراف، وهو يقي من الحر والبرد سواء.

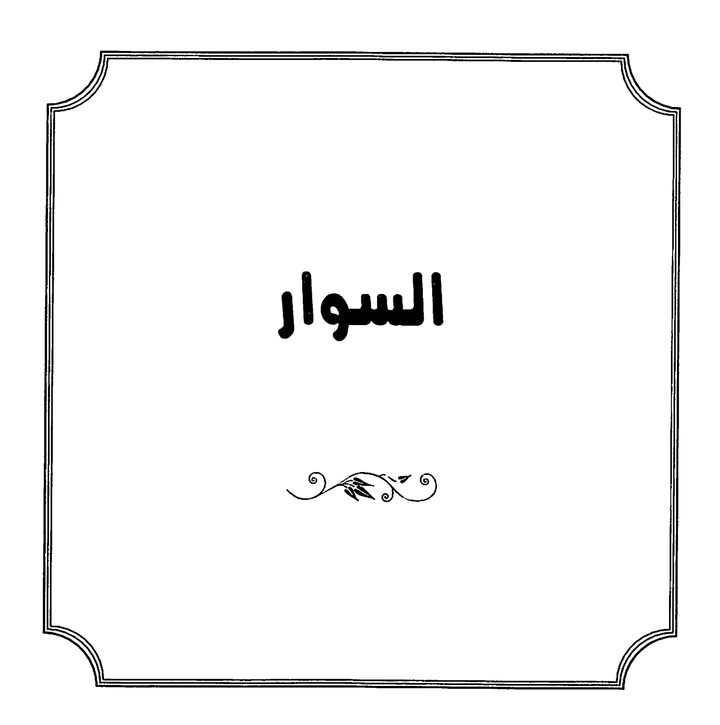
■ أحزمة رجال «عراضة عنترة»

وفي معرض ذكر (عراضة عنترة في الشام) وكانت تُسير يوم المولد النبوي الشريف..

كان الفرسان المشتركون في العراضة.. يرتدون الألبسة البراقة.. ويتسلّحون «بالخناجر المجدلانية» ويلفّون أجسامهم بثلاثة أحزمة.. حزام يضعونه حول الخصر.. وحزامين يتقاطعان بين الكتفين والوسط[1].



(١) عن كتاب (يا مال الشام) د. سهام ترجمان. مجلّد ٣ ص ١١٨.



السوار



السوار

■ السوار في الشعر الهندي

كما يُقْلِقُ فرخُ الحيّةِ الأبيضُ الصغير

الحلو الخطوط، فيلَ الدَغْل..

فإن تلك البُنيّة

بثغرها اللؤلؤي المكتمل الأسنان

وبمعصميها، وقد طوقتهما الأساور، تقلقني أنا

أتراه.. سيتذكّر.. يا صديقتي، هو الذي مضى إلى هناك، حيث منقار الببغاء يقبض على ثمرة المارغوزا اللامعة، مثلما تمسك أظافر الصائغ الحاذقة والقاسية العملة الذهبية لعمل قلادة أو سوار، لإدخال خيط المعدن عبرهما[1]

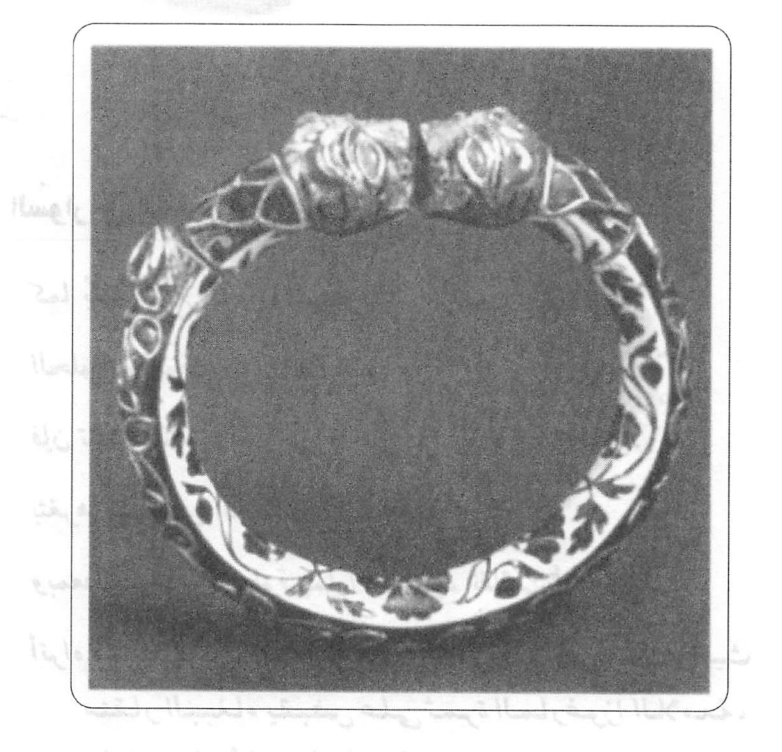
أساور في معصمي.. قرط في عنقي أرحلُ مع صديقي القديم عائدين إلى البلاد[2].

---

(١) للشاعر الهندي بهار تريهاي (ت ٥٠٠م) ليالي الياسمين. ترجمة سحبان مروة.

(٢) من أغاني اللانداي الشعر الشعبي لنساء البشتون. تحرير: سعيد بهو الدين مجروح. ترجمة: جميل صلاح. دار الانتشار العربي.





سوار مزخرف بالميناء

دزّينة الأساور الذهبية

والدزّينة ترمز إلى اثني عشر سواراً، أو أي شيء آخر. وهي كلمة معرّبة يغلب أن تكون فارسية..

ويقصد باثني عشرية الأساور.. مجموعة من الأساور الرقيقة أو شبه الرقيقة تكون منقوشة بواسطة الطَرْق الخفيف على السوار ليبدو أكثر جمالاً.. ولقد كانت العادة أن يسعى الأزواج أو الأمهات إلى شراء الأساور بشكل متلاحق.. لتكون في أمان في المعاصم العبلة. وكثيراً ما يحدث أن تضطّر الأسرة فيما بعد لشراء منزل.. أو تزويج ابن.. أو تداوٍ من مرض.. وهنا يأتي دور «دزّينة الأساور الذهبية» التي تُنْزَع من المعاصم في سبيل هدفٍ ضروري وآمن.

❁ ❁ ❁

السوار الذهبيّ السوريّ القديم

هما سواران.. في كل زند وضعت الجميلة سواراً.. فالنساء يحببن الذهب.. والسواران من ذهب. لم تكن بنات الشام في القرن الحادي عشر رقيقات الأجسام.. فقد كانت تظللهن أشجار الرخاء.. وكُنّ قويّات عبلات.. كأشجار الجوز.

أمّا في الحقول.. حيث كُنّ يضعن أساور الأعشاب، ويحملن الجرار على رؤوسهن، فقد كانت تبرز كل ليلة في أحلامهن أساور الذهب، فإذا ما تزوجنّ قدَّم العريس لعروسه «كرداناً» ذهبياً وقدم إسوارة «مبرومة» من الذهب وفيما بعد.. بعد مئات الأعوام.. ما زال العرسان يقدمون

لخطيباتهم مهورهن ليرات ذهبية.. تتوسطها «مجيدية مخمّسة عثمانية»، وكانت نساء الجبال.. جبال القلمون.. وجبل العرب يضعنها فوق خمرهن المعقودة بإتقان.. متدلية فوق الجبهة الواسعة..

سوار واحد.. بل هما سواران.. يلبسان في زنود بنات الشام.. وينغرسان دون حراك، فهل يصاب الذهب بالإغماء.. وهل يغشى على سوار من ذهب كان مُزيّناً زند حسناء.. أو عروس!

المبرومة

اسم لسوار تراثي مجدول بجدلتين من الذهب الخالص عيار ٢٤.. والمبرومة لا تلبس من الكفّ لأنها غير مغلقة الجانبين، إذ ينتهيان غالباً برأسي أفعى وكل رأس مطعّم بالفيروز.. أو ربما كان ذهباً غير مُطَعَّم. وكانت سيدات الشرق يباهين بالمباريم في معاصمهن.. وتكون هذه الحلية قد قُدِّمت هدية عند عقد القران من قِبَلِ الزوج أو أهله.. وكانت المرأة تسعى إلى كنز بعض المال، لتشتري ما تشاء من المباريم.. التي تعدها ثروة محمولة معها أينما ذهبت. وقد عُرِفت بعض المباريم المطعّمة في رأسيها بالياقوت، وكأن هذه الأفعى (الرمز) حرز تاريخي وأسطوري يقي حاملتها من غدر الأيام.

■ سوار الساعد (المِجْوِلْ)

هو سوار من الفضّة لا يضعه في عضده الأيمن، إلّا الفارس الذي أبدى شجاعة فائقة في إحدى المعارك، وطار صيته كفارس بدوي بين صفوف أعدائه وقبيلته[1].

(١) الحياة الاجتماعية عند البدو في الوطن العربي للدكتور محمد زهير مشارقة ٣٦٢، دار طلاس ١٩٨٨

وترتدي النساء «المِجْوِل» الضخم يضعنه في العضد كما يتحلّين «بالدمالج» يضعنها في أيديهن، أما في الأنوف المخرومة فيضعن «البراشم».




الخلخال



الخلخال

برّاقة الجيدِ صموتُ الخَلْخَلِ

من لسان العرب لابن منظور

كأني لم أركب جواداً لِلَذّة
ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخالِ

امرؤ القيس/ تاج العروس ج/٧/ص ٣٠٩

جاء في «فقه اللغة وأسرار العربية» لأبي منصور الثعالبي: أنّ الخلخال والخَدَمَة للرِجْلِ والفتخُ لأصابعِ الرِجْلِ.

الزنانير والخلاخيل في الهند

عندما تمدّ قطرات المطر بَلْسَمَها على الصبايا الراقصات، تتوقف حركة أقدامِهِنّ التي ترنُّ على إيقاعها حِلّي الأحزمة، ويُنْزِلن من أكفِّهِنَّ المرهقة المِذَبّات المرصّعة بالجواهر والمصنوعة من ذيول ثيران الياك[1].

❀ ❀ ❀

(١) كالي داسا. شاعر الهند الأشهر (٤٠٠م) من ديوان (ليالي الياسمين)، مصدر مذكور.

مع الخلخال

تقول البشتونية في رَجُلِها المحارب المقاتل الذي رحل:

مثل جلجلة حِليٍ.. كنتُ أطنطن بين ذراعيه حتّى آخر الليل[(١)].

في الخلخال

أحطت جيدك بقلادة من لؤلؤ يوسوس، وفي حزامك صف من أجراس ترّن، وفي قدميك خلخالان غليظان مطعّمان بحجارة كريمة تصر[(٢)].

طنت أجراس خلخالي مثل نحل صغير[(٣)].

والخلخال من أدوات الزينة التي تستخدمها النساء، يلبس في الساق.. ويصاغ من الذهب أو الفضة. وقد يُحشى بالقار.. كما تحشى الإسورة أحياناً لتبدو غليظة، وتسمي العرب الخضخاض قاراً، وهو قطران تهنأ به الإبل، ولا يزال الخلخال مستعملاً إلى اليوم. وهناك خلاخيل لها أجراس صغيرة تعلّق بها، لها رنين خاص ونغمات، ولقد عُرِض الخلخال كأداة زينة عند شعوب الشرق الأوسط القديم. أما الإسلام فقد نهى عن التبختر بالخلخال.. لما في ذلك من تأثير

يرن الخلخال.. معلناً هدوء البال.. ربما يرن داخل البيوت، وربما يرن في الصحراء البدوية.. وربما يرن في الممرات الجبلية المليئة بأحراج

---

(١) من أغاني اللاندي، مصدر مذكور.

(٢) الشاعر الهندي أمارو عاش ما بين (٥٠٠-٦٠٠م)، ليالي الياسمين. مصدر مذكور.

(٣) الشاعر الهندي فيدياباتي، عاش في بلاد الحاكم شيقا سيمحان الذي هُزم عام ١٤٠٦م.

الصنوبر.. وبكل عشب أنضر.. يرن الخلخال.. كلما سارت الشرقية، وقد وضعته سواراً فوق عقبيها.. وعند بداية الساق.. والخلخال دائرة مفتوحة لزينة الجميلات.. يتلاءم طرفاه أو يبتعدان حسب المقاس.. وبالطبع فإن للخلخال أجراساً مستديرة معلّقة من الفضة.. كأنها سرب من الإوز الشهرماني الخاتوني متعلّق بأمّه الخلخال.. والخلخال ممسك بالساق الشرقية.. أهو غواية؟ فمن أين بدأت الحكاية..

كانت بداية استعمال الخلخال في بلاد الهند.. وكانت الراقصات الهنديات يضعن في أثناء أدائهن المقدس في المعابد القديمة الخلاخيل في أقدامهن.. ليصدر الرنين المتعاظم المدروس في الخطوات المنسقة الرشيقة للراقصات، فهل كان الخلخال في البداية أداة موسيقية ليتحول فيما بعد أداة إعلان عن الوجود.. ثم أداة زينة.

تتغير الأحداث عند الشعوب.. والراقصة بخلاخيلها وأساورها، وتاجها المزين بالأجراس، تصدر تلك الأصوات الناعمة والراغبة في الحضارة الشرقية. انتقلت الخلاخيل عبر التيارات التجارية إلى شبه الجزيرة العرب، واستعملها العرب للنساء.. لكنهم أيضاً استعملوها لأفراسهم.. فالفرس والمرأة عند العرب صنوان في الحب، وخلاخيل الفرس توضع حول رقبتها وفوق جبينها.. وأحياناً توضع حول قوائمهما في حلقات الرقص.

فهل وضعت الخلاخيل على رقاب الأفراس تدليلاً وعرفاناً؟ هذا ما تفسّره لنا البوادي الشاسعة والخيام القابعة. أو لعلّ رنين خلاخيل الفرس تكون إعلاناً بالقدوم.. لا بالهجوم.. فالخيل في الحرب لم تكن تُزَيَّن. ولا شك أن حُبّ الفرس عند مُحِبِّ الأفراس يجعله يدلّلها.. ويزيّنها بالأطواق والخرز وبالخلاخيل «درءاً للعين الحاسدة».

وقد اشتهرت المدن الشرقية بوجود أسواق خاصة بزينة الخيول، ومنها في دمشق سوق ما زال قائماً يدعى (سوق السروجية).

أحبَّ الشرقي فرسه وبيته وامرأته.. فالبيت ستر.. والمرأة أمان وحنان ورعاية.. والفرسُ صديق للطريق الصعب.

لكن حلقات الرقص ما زالت مستمرة والسير طويل.. والمرأة تُحَرِّكُ قدمها - فيرن الخلخال.. فهو زينة كالسوار.. كالخاتم.. كالقلادة.. فالزينة تزيد من الجمال داخل الصحراء الشاسعة. وبحكم التبادل التجاري الشرقي اشتهرت الخلاخيل.. سلماً كان أم حرباً وصارت لها ألغاز وتعاريف فمرة ترن معبّرة عن الرفض.. ومرّة تعلن عن التسرّع.. ومرّة يكون الإبطاء.. ومرّة تباهي الشرقيات بجمال أقدامهن المتناسبة مع خطوط الحنّاء، ومع طراوة القدم الجميلة.. تعمقت الأحلام.. وتطوّر الخلخال.

۞ ۞ ۞

الشرق.. يقول لامرأته البعيدة.. أرشديني إليك برنّة خلخال يغنّي بشبّابة عشق صحراوية. بقوافل تعلن عن قدومها حتى في أقاصي جبال آسية، وقد وضعت كل امرأة خلاخيل تزن اثني عشر كيلوغراماً.. فالنساء.. نساء القوافل يحملن ثرواتهن أنّى ذهبن.. إلى أن تغيّر الحال.. وأصبح وضع الخلخال من المحال.. فلم يعد زينة الحاضر بل زينة الماضي.. ولم يعد بوصلة المرأة.. التي تسير في طرقات المدينة.. لتصبح دون خلاخيل فاقدة الكثير من المواويل.. وبقي الخلخال في أقدام الراقصات الآسيويات.. وفي أقدام المرفهات في البيوت.. أمّا الأفراس الجميلة.. فتبارت دون خلاخيل.. لكنّها زُيّنت بها في أوقات راحتها وتدليلها..

۞ ۞ ۞

«زهر الخلخال»

المشهور والمُكنّى (بالجميل)..[١].

إطار كأنه الخلخال يحيط بتلك الوردة القانية التي يترنح لونها بين النبيذ والجلّنار..

فإذا عين الشِعر الشعبي.. تتحول إلى التصوّر الشفّاف وإذا أهل الشام يرون في (الجميل) شبهاً بخلخال الحسناوات، لكن وردة (الجميل) متدلية نحو الأسفل تحت إطارها الخلخالي.. قطفتها.. المرأة العاشقة، وقدمتها عنقوداً لمن تحب، فاعتراه الخيال والوجد.. وتصوره (حَلَقاً) أي (قرطاً) في أذن المحبوبة.. ومن هنا أُطلقت على (الجميل) من جديد صفة جديدة.. وحمل اسماً جديداً هو (حَلَق المحبوب).

من الشعر الشعبي:

خلخالكْ خشْخشْ خلخاليْ

خلخالكْ عمّا يرنْ

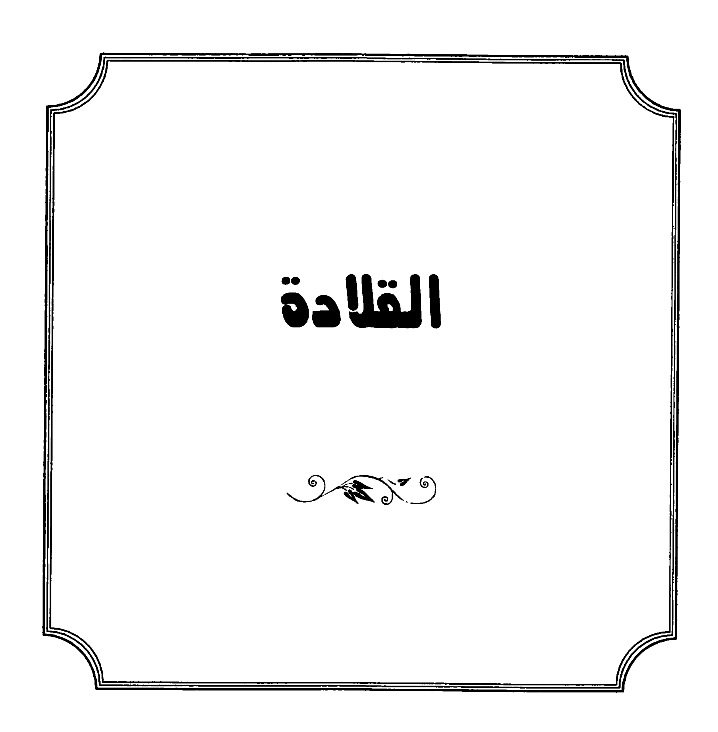
ويشْ العملْ يا حْبيبتي

وأنا عقليْ راحْ يجنْ



---

(١) ورد الشام للعماد مصطفى طلاس ٥٧٤.



القلادة



القلادة

قال المرزوقي:

«كان الرجل إذا خرج من بيته حاجّاً أو داجّاً (أي متاجراً في الأشهر الحرم) أهدى وأحرم.. ثم تقلَّد وأشعر، فيكون ذلك أمناً من المُحليّن..» يقلد الرجل نفسه بقلادة من جلد وكذا في أعناق الإبل (إشارة إلى هدي أو قربان.. ثم يحزّ سنام الناقة حتّى يسيل الدم منه فإذا رآه المحلّون كفّوا عنه احتراماً لما يقوم به من الشعائر الدينية (الجاهلية).

ويقول المرزوقي:

فإذا لم يكن يملك شيئاً، أو انفرد بنفسه وخشي عليها، ولم يكن له هدي أو قربان للحرم. كان يقلّد نفسه بقلادة من شَعْرٍ أو وَبَرٍ، ليأمن بها تجاه من لا يحلو لهم التقيّد بأي نظام، فإذا أنهى حجَّه وعاد إلى مكة. تقلد بقلادة من لِحاء شجرِ الحَرَم أماناً من المُحلين كذلك[١].

القلائد: وهي الأطواق، وقد تكون من الخزف البسيط أو المحار الذي ينظم في سلك، وتعلّقه المرأة في صدرها.. وقد يكون من خرز كبير الحبّات[٢] أو صغيرها.. أصفر اللون أو أحمره أو غير ذلك.. وقد تكون

---

(١) أسواق العرب، عرفان حمور ١٤٩

(٢) لسان العرب لابن منظور (قلد)



قلادة من المرجان والعقيق

من الفضة المزينة بالأحجار الكريمة أو نصف الكريمة.. وقد تكون من الذهب.. أو من الماس.

القلادة العجيبة

قلادة صغيرة.. من الواضح أنها قلادة لطفل. قلادة أقدم من كلّ قديم.. وأجمل من كلّ جديد بسيطة بساطة السهل الممتدّ.. غامضة غموض السهول الممتدة.. ماذا تعني تلك الأنياب الكبيرة؟!.. أتكون لحيوانات؟ أم هي لإنسان؟ أهي من عظم.. أو من عاج؟؟ ثمّ نرى في القلادة قَدَماً مع ساقها.. صغيرة حديدية بطول خنصر طفل ثمّ كفّاً مع زندها.. صغيرة حديدية بقدر سلامية أصبع. ولعلّ هناك قطعة تشبه فكَّ إنسان.. لكنها مصنوعة من الحديد، وشديدة الصغر كورقة زيتون ملتوية، ومن بعد نشاهد في القلادة، سمكة صغيرة صنعت من الحديد، وهيكل طائر.. وقطعاً من العظم وأشكالاً مصنوعةً من الحديد..

تتكرّر التماثيل الصغيرة في القلادة.. تتكرر الأقدام والأذرع والأنياب والفكّ والطير.. وتبدو تماثيل، بينها ما يرمز لخنفساء أو ذبابة..

كلّ هذه العجائب.. كانت قد ضُمِّنت في خيط من ألياف القِنَّب المفتول.. ثم عُقِدت وثبِّتت بقطعة حديدية صغيرة لا تتعدى ٣سم.. معمولة على شكل الزوبعة.. ومثقوبة من منتصفها..

تميمة؟ على الأغلب أن يكون هذا العقد الصغير تميمة!! تعني التالي:

أيها الإنسان حرّك فكّك.. اقرضْ بأنيابك اللحمَ والفاكهة.. فعليك أن تعيش.. وامش.. بقدمك الثابتة على الأرض لتجد بيتاً ومستقراً ورزقاً.. واعمل بيديك.. عملاً منتجاً شريفاً.. ولتحرسك الخنفساء المقدسة..

ولربما تُحذرك ذبابة المستنقعات من النذالة.. ثم اربط كلّ أحلامك بخيط من ليف القِنَّب المجدول.. وادخْل تميمتك في زوبعة الأيّام..

إنّه الرمز الذي أوحته لنا.. هذه التميمة أو القلادة الموجودة في حوزة الأستاذ أديب صيداوي صاحب (ألف باء للنشر).



المرآة





المرآة

تُضيءُ الظلام بالعشاء كأنّها
منارةُ[1] مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّلِ
هصرتُ بِفَوْدَيْ رأسها فتمايلتْ
عليَّ هضيمَ الكشحِ[2] ريَّا المخلخلِ
مهفهفة بيضاء.. غيرُ مُفَاضَةٍ
ترائِبُها[3] مصقولةٌ كالسَجَنْجَلِ[4]

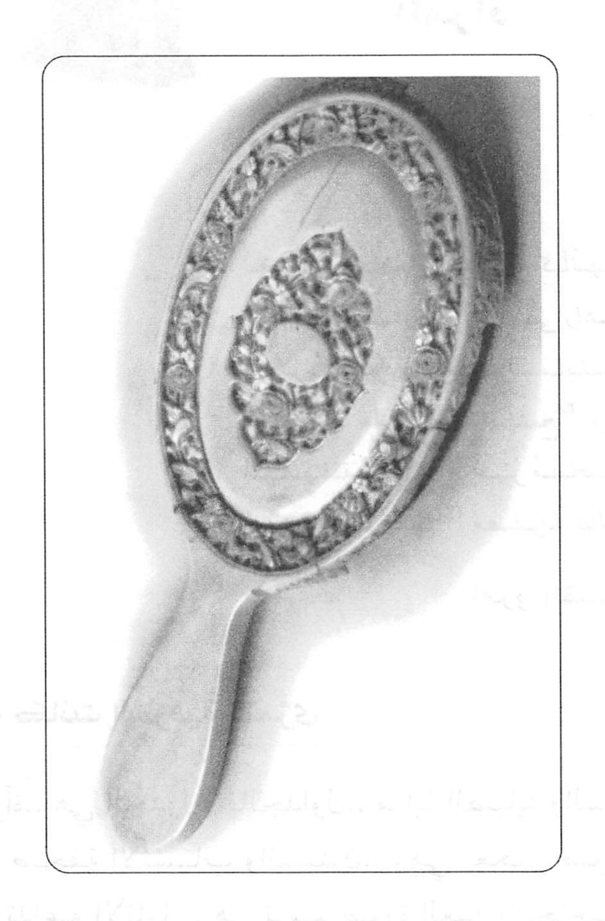
امرؤ القيس

■ كيف كانت الشرقية تتمرّى

أول مرآة.. هي الجدول! فالجداول.. مرايا الصبايا والماء.. صفحة اللقاء.. أو صفحة الانسياب والنسيان.. وهي تعكس صورة الوجه.. وتتحرك إذ تداعبه الأنامل.. هي ترسم صورة العين والحاجب.. وتفرش عليه الابتسامة سريراً من الأمان.. وإذ.. تعتكر النفس. يعتكر الوجه.. ثم

---

(١) السراج.
(٢) خفيفة اللحم.
(٣) الترائب موضع القلادة من الصدر.
(٤) المرآة.



مرآة السيدة خديجة برلنطة العظم زوجة الخديوي توفيق

يعتكر الماء.. تعتكر صفحة الماء.. يصبح الماء طحالب.. أو يصبح طيناً.. ثم تمتلئ النفس بالأسى.. والوجه.. تخطو فيه تجاعيد الهمّ يهرب الماء.. ويَرْتجّ.. ثم يسيل في الجداول البعيدة، وتعكس مراياه صورة السماء والشجر والزهر والحب. فيدرك الوجه المتعب عبر الزمن أنه هارب من مرآته، ليحاول البحث عن الجمال.. مرّة أخرى..! وحين يسترجع الوجه جماله.. يتشجّع.. فيعاود الاقتراب من مرايا الماء.. وهكذا.. كان الماء أول مرآة حقيقية للإنسان.

■ مرايا!

وتتكسّر تحت رذاذ الشلّالات مرايا!! وتسبح فيها الأسماك الملوّنة!.. مرايا!! وتنتعش من النظر فيها وجوه الصبايا، وتقول النقطة الشفافة للمرآة الشفافة. وتقول للصبايا، احذرن من «نارسيس» فلقد تبرأت أزهار النرجس من عشقه لذاته! حين توله في حب نفسه إذ نظر إلى وجهه في صفحة الماء.

■ العين والينبوع والبحيرة

الماء أوّل مرآة لكن العين مرآة متكلّمة.. عندما ينظر الإنسان في مرآة الماء.. يكلّم نفسه أما حين تنظر إليه عين الآخر.. فإن الآخر هو الذي سوف يتكلم.. بل أنَّ عين الآخر هي التي سوف تتكلم.. ثم يتراقص الماء.. ويتكسّر الموج.. وتنحدر الشلّالات صانعة أكواباً شفافة من النعيم ومن الزجاج! آنئذٍ يخترق علاء الدين، نفسهَ.. بمرآتِه السحرية.. لتصبح الدنيا مفتوحة الأرجاء.. صادقة صدقاً لا يوصف. فمن أصدق؟.. المرآة؟ أم العين الأخرى؟؟

كلُّ شيء يتحول في ذاته.. إلا المرآة.. فإنها تتحوّل مع الناظر إليها.. وإنها.. قد تشبه صفحة القلب الصادق إذن، شريطة، ألّا يصيب المرآة

خدش، أو يصيب الماء حجر.. أو ضربة مُعلّم.. ضربة عصا تشّق الماء، وتحرّكُ رسم الوجه المنعكس عليه.. يتهشم الماءً.. تتهشم المرايا.. ويتهشّم فوقها الجمال القاصي والداني.. اللاحق والمتطرّف!

وهكذا أسرعت الصبايا عبر الأزمان الشرقية، فشاهدن صورهن على صفحات الماء.. ورسمن خدودهن على خدود مياه البحيرات التي.. لن تتحوّل. ومن ثم.. انطلقن.. انطلقت كلّ أنثى من البشر نحو البساتين تبحثُ عن صباها.. وعن الجمال.. والرّقة والشفافية والرفاهية. وبالطبع.. فإنها رغبت عبر هذه الأزمان، أن تتجمّل!! فكيف كانت تتجمّل الشرقية قديماً فيما بعد.. عُرفت المرايا.. وكان عرب الجاهلية قد عرفوا كيف يستخدمون الفضة المُجلْوّة لتكون مرآة لصباياهم.. وقد عرفت المرآة عند الطائيين[1].

انتشرت المرايا.. وضعت في الزوايا.. وفي ساحات القصور وتقوقعت في جيوب الصبايا.. تطورت وتغيرت مفاهيمها.. أصبح للشرقية مرآة لليد ومرآة في الدار.. تُسائلها عن جمالها ليل نهار..

دخلت المرآة في الأسطورة.. وتربعت في الحكايات الشرقية.. وسوّرَتْها شهرزاد في قصص ألف ليلة وليلة.. أصبحت المرآة نبوءة للمستقبل.. فيها كانت الحبيبة تشاهد صورة الحبيب لتمحو المسافات.. وها هي المسافات قد قصرت.. والمرآة الحُلم أصبحت مرآة حقيقية.. كانت حكاية.. ثم أضحت صندوق عجائب، تتكسر فيه المرايا الملوّنة، لتشكل الغرائب.. ثم تطور الصندوق ليصبح شاشة تعكس صورة العالم.. والشرقية أدركت أنها اخترعت أحلامها.. وواكبت جمالها وصندوق عجائبها حتى تحول إلى مرآة.

---

(١) حضارة العرب قبل الإسلام ٧/ ٥١٥

■ مرايا من أيّام الفراعنة

استعمل الفراعنة مرايا قبضاتها من الذهب، وكذا إطاراتها. واستعملوا مرايا ذات قبضات من الرخام أو من الزجاج الملوّن الشفّاف (كريستال).

المرآة في سومر

لابد للإنسان من أن يقف أمام مرآته كلّ يوم.. فالمرآة هي الصديقة الوفية التي تعلن عن الحقيقة دوماً.. حقيقة، تُعجبِ أو لا تعجب، ولقد ذُكر في كتاب (تموز) أن المرآة كانت معروفة في - أور- ومعروفة في - خفاجي - فقد تم العثور في أثناء التنقيب في كِلا الموقعين على لوحتين تبدو فيهما سيدة معتلية العرش.. تجلس إلى يسار الملك.. وهي تحمل كأساً بيمناها.. ومرآة بيسراها[١].



(١) تموز: أنطون مورتكات. مصدر مذكور.

مرآة السيدة برلنطة
زوجة الخديوي توفيق

من أجمل سيدات بلاد الشام.. كانت تعيش في مدينة حماة، وتسمع صوت نواعيرها الدائم.. وتحب سهولها الشاسعة المترامية، ولدت خديجة برلنطة العظم.. واسم برلنطة اسم أطلقه عليها الخديوي توفيق، لفرط جمالها، وحسن تألّقها، وللون بشرتها البيضاء النقية دون شائبة.. ممّا جعلها تشبه الماسة النادرة التي يُدعى جوهر صقلها في الغرب (برلنت) وهو أرقى أنواع الماس، ويُقطع بشكل مُعيّن.

ولدت خديجة العظم في بيت ثريّ ثم تزوجت إلى مصر.. لكنّها لم تنجب أولاداً من الخديوي توفيق.. وبعد وفاتها آلت ثروتها وحليها إلى أشقائها وشقيقاتها.. وكان لي شخصياً الحظ في رؤية «مرآة برلنطة هانم» لدى إحدى بنات شقيقها التي تمتّ إليّ بصلة القربى والنسب.. ولقد أذهلتني المرآة: هي مرآة تمسك باليد.. منقوشة بأناة لا توصف.. بأزهار صغيرة ذات ورق تحيط بظهر المرآة البيضوي الشكل.. وكلّما صغرت الحلقة العاجية البيضوية باتجاه مركز العاج تاهت النقوش الجميلة في العاج الجميل.. فإذا السطح الخلفي قد تحوّل إلى لوحة بل إلى بستان من بساتين زهر الكرز..

وبدت المرآة.. شديدة القدم.. صامتة لا تتحدث.. لا تحدثنا عن مخدع «برلنطة هانم» ولا عن أسرارها أو أفراحها.. أو أحزان غربتها، ولا تحدثنا عن قصة حبّها للخديوي توفيق التي لم تثمر ولداً.. لتسكت المرآة.. لتبقى عاجاً منقوشاً.. أثرياً.. جميلاً..

المرآة الكبيرة المطعّمة بالصدف الرَّهاج في دار آل هاشم في دمشق

بحريٌّ.. صدفٌ.. رهّاج!

ماءٌ.. سماءٌ.. قوسُ قُزَح..

خطفَ الرهّاجُ البَصَر.. والمرآة تتوسط الخشب المزخرف.. تتوسط المكان.. تخترق ذاك الزمان القديم.. تثبّتُ العمل الثمين

ولماذا لا تكون المرآة حلية نادرة تحيط بها أشكال وأزمان.. كلها تتوافر في إطار المرآة الكبيرة التي انتشرت صناعة أمثالها في بدايات القرن العشرين.. لكنها.. تحفة بلا منافس أو مثيل.. فعلى الجانبين أطلّت نخلتان.. أو هما شجرتا حياة مفعمتان بالبهجة. لكنّ السعف المطرّزة بالأصداف والمنقوشة على الخشب الثمين تؤكد الانتماء الشرقيّ لهذه المرآة..

أمّا الجزء الذي يعلو النخلة من كلا الطرفين فيمثل قلبين مطعّمين بالصدف.. قلب يعلو قلب.. وفي الناحية الأخرى لكلٍّ من القلبين مثيل..

يقف الإنسان مشدوهاً أمام هيبة تاج المرآة المتربع على قامتها الطويلة.. يقف فلا يجرؤ على النظر في المرآة، لأنّ لمعان الصدف يكون قد خطف فؤاده.. وتمّ القبض على قلبه بإتقان، تلك المرآة المؤطرة بالأصداف موجودة في دمشق الشام.. مركونة في الحرز الحريز محاطة بكلٍّ من ينظر إليها قائلاً: «ما شاء الله» فالمرآة.. كانت قد نُقلت مع (جهاز عرسٍ) لسيدة عريقة حَسَنِيّة.. زُفَّت إلى الدار الهاشميّة.

مرآة الإسكندرية

ألم تكن المرآة الشرقية قديماً من الحديد الصيني.. أَوَما قرأتم عن مرآة الإسكندرية التي كانت موجودة في أعلى منارتها.. وعرض المرآة سبعة أذرع، كانوا يرون بواسطتها المراكب التي في جزيرة قبرص.. لابد أنها كانت مرآة مدبّبة أو مقعّرة، بل كانوا يرون فيها كل ما يخرج إلى البحر من جميع بلاد الروم فإذا كانوا أصدقاء تركوهم، وإذا كانوا أعداء انتظروهم حتى يقتربوا فأداروا المرآة عندما تميل الشمس للغروب.. واستقبلوا السفن نحوها فيقع شعاعها على السفن فتحترق.

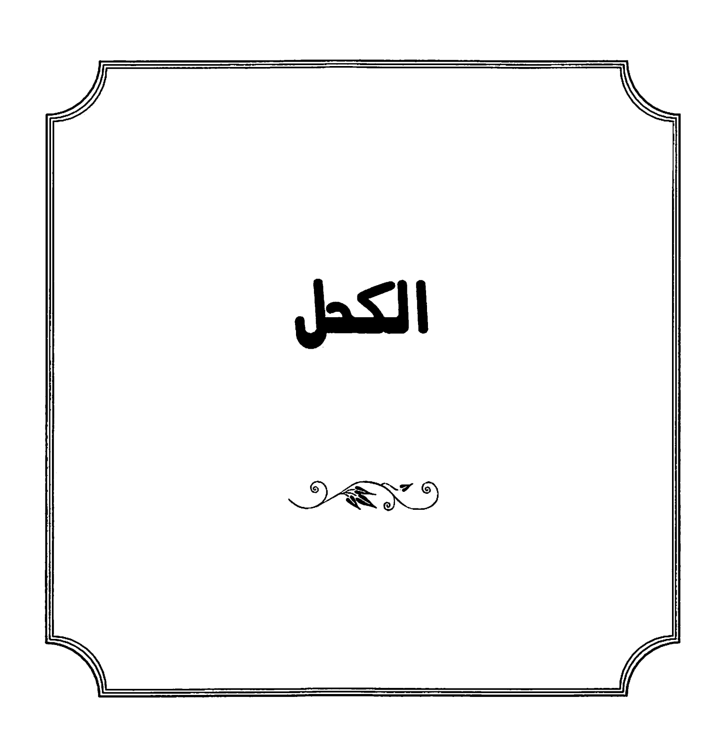
المرآة، يا امرأة الشرق، تستطيع أن تعرف كلّ قلب لم ينظر إليك بعين الحُب.. وَجِّهي مرآتك نحو الشمس إذن.. وأبعدي عنك من لا يحبك[١].

مرآة كنيسة قيسارية

قيل: كان في قيسارية في كنيستها مرآة إذا اتهم رجل امرأته بالزنا.. نظر في المرآة فيرى صورة الزاني! أطوار وخزعبلات أدت إلى أن رجلاً قتل من ظنّ أنه غريمه في المرآة.. فعمد أهله إلى المرآة فكسروها! فأوهام المرايا كثيرة أيها الشرقيون، وأوهام الخطايا أكثر[٢].



(١) عن كتاب المستطرف بتصرف.
(٢) المستطرف. مصدر مذكور.



الكحل



الكُحْل

نفرتيتي تكتحل

لقد عرف قدماء المصريين أهمية الأحجار الكريمة وشبه الكريمة، فاستعملوها.. إمّا في صناعة الحِلي أو وصفوها دواء فوق جلودهم.. أو سحقوها لاستعمالها في التجميل، ولقد أحبت نفرتيتي حجر (المالاكيت) فاستعملت مسحوقه الأخضر لتجميل عينيها وتكحيلهما.

وأهمية (المالاكيت) لاستعماله ظلالاً للعين تكمن في أنّه لا يؤذي الجفنين، ولا يصيب العينين بالحساسيّة، لأنّه لا يعدّ من الأحجار ذات الكثافة الثقيلة إذ تبلغ كثافته (٣,٥-٤) وهذا ما عرفه الفراعنة، وعرفته نفرتيتي الساحرة بجمالها.. وزينتها وظلال عينيها، وكحلها الأخضر.

ويوجد (المالاكيت) في الغالب بشكل كتل خضراء معتمة.. ويعزى ذلك إلى محتواه من النحاس.. وحجر المالاكيت متماوج بين الأخضر والأخضر الداكن، ويوجد في إفريقية ويكثر في زائير[١].

❀ ❀ ❀

---

(١) الأحجار الكريمة. ص ١٢٦ كتب الفراشة - المرجعيات. مكتبة لبنان.

اكتحال رجال البدو

قد يتمدد الكحل الأسود في عيون البدويات مستريحاً يستظلّ بالأهداب الطويلة.. وقد يحمي الإثمد من وهج الشمس، لينعكس على الموجودات الممتدة اللانهائية فيصبح أطيافاً ربما من السراب وربما من خيال.. وقد تصبح نظرات البدويات قَتّالة.. وتكون عيونهنّ ذَباحة، يحيط بها الكحل فيجعل من رقتها دقّة.. ومن تصويبها سهاماً..

لكن الرجل البدوي يكتحل أيضاً.. فالكحل يجعل العين تستبين مسارب الصحراء بشكل أفضل.. والكحل يجعل العين تتّخذه غطاءً وترساً.. لكن السؤال الذي سنصل إليه.. هل يكتحل البدويّ كالبدوية؟؟

لا نستطيع أن نجيب عن سؤالنا إذا انغرسنا في أجواف الصحراء منذ ألف عام.. لكن الرجل البدوي في بعض بلاد الشام كان يكتحل «بالأحمر». خطّ ناري دقيق مرسوم بدقة فائقة يجعل عين البدويّ تتأجج كبركان تنتظره فوهته.. كخطّ مرسوم مُكْتَحَلٌ به تصبح العين إثره كالخط من البرق الذي يلمع في السماء.. فهل أخذ البدوي خطّ اكتحاله من خطّ البرق؟

ربما.. لكننا نعود ونتساءل عن ماهية هذا الكحل الأحمر.. وكلّ ما نعرفه عن الإثمد هو اللون الأسود!!..

إذا عرجنا نحو الحي القديم.. ودخلنا الأسواق المُطيّبة من أبوابها الأثريّة أو من أبوابها المتعددة المفتوحة أو السِريّة الإغلاق.. وإذا وصلنا إلى سوق العطّارين.. أو سوق البذوريّة.. أو أي سوق يبيع أصحابه العجائب والغرائب والمعجزات.. فلسوف نرى تكاثف المشترين.. وتهافت الطالبات والطالبين.. ثم يأتي ذلك البدوي الطويل.. ذو الشعر المجدول بخلقة الله.. ويطلب من دكان العطار.. ما يُسمّى «الدودة» والدودة هي التي

تصبغ المخللات باللون الأحمر الناري.. من هذه «الدودة» يصنع البدوي كحله الأحمر.. وحين يُغمس المِدَّق في قارورة كحله.. ثم يقرّب مِدَق الاكتحال فيطبق عليه جفنيه.. ساحباً إيّاه بهدوء الكثبان.. حينئذ يلمع البرق في السماء.. وتصبح عين البدوي مكحولة بخطّ أحمر منسوب إلى النار.. أو إلى البرق.. أو إلى الشوق.





الأصبغة



الأصبغة

مقدمة للأصبغة

لماذا أحبّ الإنسان الألوان؟ لماذا يلون سكان الغابات والمجاهل وجوههم، ويصبغون أجسادهم وأيديهم وجباههم بما يشبه اللوحات؟.. لماذا يرتدون ثياباً مزيجاً من ألوان؟ لماذا لم يختر الواحد منهم اللون الموّحد؟ أهو تقليد لقوس قزح؟ أم هو تشبّه بزهر أيام الربيع؟ أم هو تقليد لبعض ألوان الحيوانات الكاسرة والطيور الجميلة.. خوفاً أو تشبّهاً؟ ولماذا بحث الإنسان البدوي عن الأصبغة لِيُلوِّن رداءه.. لِيلوِّن حياته في هذا المدّ الرملي الشاسع.. ليلفت الانتباه إذا تاه..

ولماذا صبغ الجاهليون شرك نعالهم بالصِّبغ الأحمر؟ وقد سعى أهل الحضارات إلى استخراج الأصبغة والألوان.. وأهم الألوان **الأرجوان** ولون **العصفر**.

تتلخص المقولات وتلتقي في كلمة (المنظر) ومفهوم (التجارة) فيما بعد.. فالإنسان يحرص على (كيف يبدو في عيون الآخرين).. بل كان يستعمل التلوين في وجهه ليخيف عدوه المجهول سواء كان إنساناً أم

حيواناً.. وحين استقرّ هذا الإنسان أصبح يستخدم الألوان للأبهة، وتستعملها النساء للمظهر والتحبب.

❀ ❀ ❀

وحين يتقلّد الإنسان القديم تيجان الريش ليبدو شبيهاً بالطاووس أو النعامة المتبخترة أو الطائر الاستوائي الغِرّيد أو غير الغِرّيد.. وحين ارتدى جلود النمور والفهود والثعالب - كما يفعل اليوم - اتقاء للبرد في البداية ثم تقليداً للجمال.. فهو بهذا قد انتقل بوجهه المصبوغ.. وثيابه الملوّنة وعمائمه الأنيقة والمتعدّدة.. وثياب النساء المطرزة.. وسجاجيده المستقبلية الرائعة.. ليشكلّ انطلاقه نحو عالم الفن.. نحو الأجمل.. نحو عالم اللون الجميل الذي به يرقى الإنسان كلما أدرك ماهية التمازج بينه وبين الألوان الأخرى وقد أجاده. ولا شك أن الإنسان استفاد من ألوان الطبيعة من لون السماء.. ولون الشجر.. وألوان الورود المثالية محاولاً تقليدها والاستفادة منها.. ومن ألوان الزهور استفادت المرأة الشرقية وتفننت.. من عصير النباتات والأشواك، ومن لحاء الأشجار تعلّمت فثقّفَتْها الطبيعة، وصقلت جمالها الشرقيّ.

لتصبح حارّة كالدبس، شهية كالتفاح، دسمة كالزبيب، ونقيّة كالزنبق والياسمين والفل.. ومعطرة بذرور الورد في خدّيها.

وحين لاح المشيب في شعرها بحثت عن أعشاب البريّة..عن الصِّبغ.. فوجدت الحِنّاء.. وفي البلاد الشامية اكتشفت قشور الجوز ولحاءه.. فصبغت شعرها.. وعادت إليها معالم الصِّبا..

ولقد آن لنا أن نعدّدَ بعض الأصباغ التي كان يستعملها عربُ الشرق القديم.. وعربُ بلاد الشام.. وكلّ أهل هذه المناطق الغنيّة بكل شيء وأهمّها (اليمن) ونعدّد بعض الأصبغة التي كانت تتيه بها المرأة الشرقية وتصبغ ثيابها:

- **الورس**: نبات موجود في اليمن لا ينبت إلّا فيها.
- **العصب**: يستخرج صبغه من نبات العصب، تصبغ به البرود..[1] وهو نبات موجود في اليمن.. لا ينبت إلّا فيها.. لذا اشتهرت اليمن بنسيجها وثيابها ومنها:

أ- **الخال**: ثوب ناعم وضرب من البرود أرضه حمراء وفيه خطوط سود

ب- **الوصائل**: ثياب يمانية حمر.. أو حمر مخططة.. أو برود حمر فيها خطوط خضر

ج- **العصب**: ثياب يعصب غزلها قبل حياكتها ثم تصبغ وتنسج وتحاك فيأتي الثوب موشّى لما فيه من العصب الأبيض وكانوا يصنعون ثياباً فيها صور.. لمراحل القمر، أو تصاوير زُحَل أو تصاوير المراجل: وهي ما كان فيها تصاوير مرجل.

د- **أما الحبرة**: فهي من البرود المخططة الموشاة، وقيل: ضرب من برود اليمن مُنَمَّر.

هـ- **السيراء**: ثياب مخططة باللون الأصفر.. أو يخالطها حرير وذهب، وإنها قد تكون معمولة الخطوط من القزّ.. أو الذهب.. وهي من حلل الأغنياء والكبراء..

و- **الثياب السحولية**: تنسج في اليمن، وهي من القطن الأبيض، ويروى أن رسول الله ﷺ عند وفاته كفن بثلاثة أثواب سحولية ذات جوانب مفتولة، حبالها على طاق واحد.

---

(١) تاج العروس (عصب)، (حبر)، (سحل).

وقد اشتهرت (عدن) كذلك ببرودها الجميلة، وارتداها رسول الله ﷺ، كما اشتهرت (قطر) بالثياب القِطْرية، وهي نوع من النجائب، وهي برود من غليظ الصوف، أو هي برود حُمر لها أعلام فيها بعض الخشونة.. وجاء في الحديث أن الرسول ﷺ توشّح بثوب قطري.





الأصبغة
«عن فقة اللغة للثعالبي»
بتصرفٍ تام

اصبغي ثوبك أيتها الشرقية **بالطين الأحمر**، وادعيه **(الثوب المُشرق) أو السَّرَقُ** ..واصبغي ثوبك **بالزعفران** ليصبح أصفر اللون.. اصبغيه بالجِساد وليكن ثوبك **«الثوب المُجسَّد»**.

أم تريدين ثوباً مصبوغاً **بالبهرمان، عصفر الزمان**؟ . . ولترتدي **«الثوب المبهرم»** باللون نفسه الذي كانت تصبغ به أثوابها امرأة الرافدين القديمة أُمّ الحضارات.. وجميلة الجميلات، والعصفر كما تعرفين نبات بريّ أو بستاني ينبت في بلاد الشام، أم تريدين صباغ ثوبك **بالوَرْس** ليكون **(الثوب المُوَرَّس)** فالوُرس أخو الزعفران.. لكن عليكِ أيتها الشرقية أن تجلبي الورس من اليمن السعيد.. من البعيد.. فهو لا ينبت إلّا هناك. ولعلّك قد اشتهيت في ليلة قمراء لون القمر.. القمر الفضي الباهت.. فصبغت ثوبك **بالزبرقان** بلون الزبرقان ليكون **(الثوب المزبرق)** .وأنتِ إذ تسيرين تحت نور الشمس.. وتشتهين لونها الذهبي فلماذا لا يصبح ثوبك المصبوغ **بلون الشمس (الثوب المُهرَّى)** اصبغيه.. فأنت تعرفين أن السادة من قومك من الرجال تصبغ عمائمها بلون الشمس الأصفر، وكانت تحمل من **(هراة)** مصبوغة جاهزة.

❀ ❀ ❀

الصبغ

العصفر: تحبين الألوان.. تحبين صبغ شعرك.. صبغ كفيك وقدميك، تحبين صبغ ثيابك أيتها الشرقية، وتبحثين بين النباتات.. وتصبغين بما يستخرج من المعادن.

تحبين النباتات.. زرعت العصفر، وصبغتِ به ثيابك.. من بزره الذي يدعى (**القرطم**) صبغت ثيابك بالأحمر المصفّر، كما صبغ أهل الجاهلية ألبستهم بالعصفر، وعند ارتداء ثوبك أصبحت تتيهين فخراً بين أقرانك فقد كان الصبغ متقناً.

الفرصاد: هل تسلقت ذات مرّة، أيتها الشرقية، شجرة التوت الشامي يا الله ما ألذّه.. وهل جلستِ بين أغصانه تلتقطين حَبّة من هنا وحَبَّة من هناك حتى تكتفين.. فإذا أسنانك زرقاء ويداك مصبوغتان حتى أعماق الأظافر، وإذا ثوبك ملطخ بالأزرق التوتي.. حسن.. فتعلّمي من تجربتك أن تصبغي قميصك بهذا اللون المحيّر، مستعملة ثمر الفرصاد.. ثمر التوت الذي لا يمكن إخفاء لونه.

الفُوّة: قديماً كنت تسرحين، أيتها الشرقية، بحثاً عن (**الفوّة**) تلك العروق التي تعرفينها جيداً.. أتذكرين.. حين كنت تُسَرِّحين في طلب تلك العروق الحمر الدقاق ذات النبت الذي يسمو، فيلفت انتباهك حبّات حمراء في سمت النبات.. حب أحمر يا صديقتي بل هو شديد الحمرة، غزير الماء.. هل حاولت أن تنقشي بألوانه رسوماً على ثيابك؟ أم أنك.. كنتِ بقلمك النحيل تغمسين باللون الأحمر لتكتبي رسالة لحبيبك سوف يظنها مكتوبة بالدم؟ ما رأيك أيتها الشرقية.

الإحريص: كما نعلم هو **العصفر** ..فلا لزوم للإعادة.. فإن فيها زيادة.

النكع: ألا خبّرينا أيتها الشرقية، عن **(النكع)** فهل هو اللون الأحمر أو هو زهرة حمراء تستعملينها للصباغ؟ فأنت تعرفين جيداً أن **النكع هو (ثمر النقاوى)** والنقاوى نبت أحمر[1].

الصِرف: وتعرفين كثيراً.. صديقتي القديمة.. عن الصرف.. فقد كنتِ به تحبين صباغة نعليك.



(١) المعلومات بتصرف من: تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد علي ٧/ ٥٣٠-٥٣١.

الحنّاء

جسدي اخضرَّ كأوراق الحنّاء
خارجه نضيرٌ.. وداخله منقوع بالدم[1]

■ يزعجهن الشعر الأبيض! ويزعجهم

يزعج الشرقيّة.. كما يزعج كُلّ نساء الأرض وناسها، إنه محطة التوقّف الأولى.. يُصَبْنَ بالذعر.. الشعر الأبيض.. يركضن ويركضن، يفتشن في نبات الأرض والشجر عن صباغ.. يتعرفن على الحنّاء **منذ آلاف السنين تَعرَّفن مذ كُنّ جاهليّات.. مُذْ كُنّ فرعونيّات.. مذ كُنّ سومريّات وبابليّات.**

فقرب الأنهار.. عجنت الشرقيات الحنّاء بقشور **الجوز**، وصبغن شعورهن، وعند الجبال، خلطت النساء **الحنّاء مع نبات العصفر!**

وفي الصحراء العربية تخضّب الرجال والنساء..

بالحنّاء والزعفران تخضبّت الشرقية الصحراوية..

وبالحنّاء ونبات «الوسمة» صبغنَ شعورهن.

---

(١) من أغاني اللانداي. الشعر الشعبي لنساء البشتون. مصدر مذكور.

والوسمة نبات يجعل الشعر أسود فاحماً. الوسمة هناك.. في اليمن والجزيرة

أقبِلْنَ عليها يا نساء اليمن السعيد.. ويا نساء تِهامة.. والربع الخالي.. والعواصم السعيدة.. في كلّ أرض.. في كل مكان من الأرض..

لقد وَبَّخ الشعر الشائب أصحابه.. فامتثلت النساء إلى الطبيعة الأم يأخذن من خيرها علاجاً ويجبلن الحنّاء..

يخضبّن رؤوسهن وأقدامهن وأيديهن..

ويتألقن في الليالي القديمة.. كنباتات ضخمة من ثمار المشمش تحت ضوء القمر..

الخضاب

تاجر أهل اليمن بالخضاب و«الحنّاء»، **خاصة أن عبد المطلب هو أول من خضَب بالسواد عند العرب.**

- **الوسمة**: هي نوع من الخضاب، كانوا يخلطونه مع الحنّاء للحصول على شدّة السواد. وذلك بأن يُدَّق ورق الحنّاء وورق الوسمة حتّى يصيرا كالطحين الناعم.. أو لعلّهما كانا يُطحنان.. ثم يُعجن الناتج بالماء، ويُحشى الرأس به أو اللحية.
- **البِشام**: يخلط مع الحنّاء.. وورق البِشام يسوّد الشعر.
- **السِدر**: استعمل ورق السِدر مقام الصابون بعد التخضّب.. وهو المُقل المكيّ، وهو ثمر شجر الدوم، ويؤكل بعد أن ينضج.. والشجر شبيه بالنخل.
- **زهر العصفر**: معروف في الحضارات القديمة، وكان يستخرج منه صبغ أحمر جميل.

- **العصفر**: وهو القرطم والإحريص.. ولون الصبغ يدبغ الأزر والثياب.
- **الفرصاد**: هو التوت، ومنه صبغ يستعمل.
- **الفوّة**: عروق حُمر دقاق، لها نبت يسمو في رأسه حَبّ أحمر شديد الحمرة.. كثير الماء.. يُكتب بمائه ويُنقش.
- **النكع**: زهرة حمراء يُصبغ بها، وهي ثمرة (**القتاد**) أو (**القناد**).
- **الصِرف**: صبغ أحمر يصبغ به شرك النِعال.
- **اللَكُّ**: نبات تصبغ به جلود الحيوانات البحرية حتى قيل (صُبر سوقطرى).
- **اللَثي**: يستخرج من (**شجر السمر**) أو هو ماء يسيل من الشجر كالصمغ إذا جمد، فهو (صرور).
- **المعافير**: هو لثي حلو لشجر **العرفط**، وهو صمغ شبيه بالناطف ينضحه العرفط[(١)].

كما اشتهرت (**هَجَر**) بثيابها الجميلة المصبوغة والمرسومة، أما أهل المعافر ففي صحار.. الخيرة.. وكانوا يرسمون على الثياب أو يحيكونها وفيها أنماط ورسوم وألون وجمال.

الحِنّاء

الحنّة أو الحنّاء ليس للزينة فقط، إنه دواء وصباغ. دواء يشفي من القروح، وصباغ يقوي بصلة الشعر، ويقضي على الشيب!

حني يديك وقدميك أيتها العروس.. فالليلة هذه ليلة فريدة لن تتكرّر

(١) المصدر نفسه ٨/ ٥٣٠.

مرة أخرى في حياتك.. إنها «ليلة الحنّة».. الحد الفاصل بين دلال الطفولة وعبثها، وبين المسؤولية والولوج إلى العوالم الجدّية الجديدة، التي لا تمت بصلة لأيّام الطفولة المحشوّة باللّوز والسكّر.

أمّا عن هذه الليلة، فهي ليلة العرس.. وأمّا عن الحنّاء، فهنا التوقف والابتداء.

ما الحنّاء؟ أو الحنّة.. أو زهر الحنّة؟؟. ما هذه النبتة الحميراء أو السوداء المدعوة (LOWSANIA) أو المدعوّة في كلّ اللغات باسمها العربي (HENNE).

والحنة نبات شجري متساقط الأوراق.. تستعمل منه أزهاره وأوراقه.. وبذوره وعصيره. نبات كريم.. ولا حاتم الطائي!

هنا وهناك.. ينمو نبات الحنّاء، وينتشر في الأراضي الزراعية الخصيبة، ليكتشف البشر منذ القدم، أشجاره الصلبة الخشب، بجذورها الحمراء، وأوراقها التي تشبه أوراق الزيتون.

أمّا «ليلة الحنّة».. فأكثر ما اشتهر هذا الاسم في مصر، فالحنّاء تستوطن مصر، والسودان. والأوراق أصبحت جاهزة، أوراق الحنّاء.. جمعناها وجففناها، ونشرناها كي تجف تماماً.. ثم طحناها في طواحينها الشعبية القديمة.

وابتدأنا.. الطقس.. الطقس الاحتفالي، حيث تجلس العروس في ارتياح.. فتمدّ راحتيها، وتهيئ قدميها.. ليبدأ النقش على الراحتين وعلى باطن القدمين.. وعلى الأظافر، رسوماً لا أجمل منها.. رسوماً بدائية غريبة التأويل، فيدبغ اللون الأحمر على راحة اليد، يدبغ أسفل القدمين. وتبدو الأظافر مطلية بلون قرميدي..

طيّبة أنت أيتها العروس.. ومزركشة كالزرازير الوضّاءة القادمة من بلاد الأحباش.. أصبحت تتبخترين.. وبثوبك الأبيض.. سوف تبدين غداً كَفِلزٍّ

من أرض كلسية، لكن.. فيها ياقوت ومرجان.. فيصعق عريسك بك. ويبهره جمالك.. وتصيبه الحنّاء بما يشبه الهوس، فيقع صريع الهوى..

كيف لا.. وفي الحناء «إيونون» «ألفا.. وبيتا ALPHA - BETTA» ثم طبل وزمر.. رقص وأرداف بدائية تعبّرُ عن مطلب ذاتي مستوحى من طبيعة متطلبّة.. أهازيج.. زغاريد.. وحنّاء..

الليلة هي «ليلة الحناء» أخفت النساء تجاعيد همومهن، ووضعن مرهم «حُسْنِ يوسف» على خدودهن.. وتخلصنّ من الشيب، فصبغن شعورهن بالحنّاء المخلوط اللونين، فبدَوْن أصغر سناً بعشرات السنين! وبعد مئات.. ومئات السنين.. توقفنا.

بيدنا قبضة من الحنّاء الأحمر.. وقبضة من الحنّاء الأسود.. وتعجّبنا.. فما زالت النساء في بلاد المشرق حتّى اليوم يستعملن الحنّاء لصبغ شعورهن.. وما زلن يفخرن ويترنمن بالمفعول الملوّن الساحر.. المُنَعِّم للشعر أقصى نعومة..

فاق الحنّاء صبغات الغرب.. فانطلقت، صبغته إلى كلّ أقطار الأرض.

- توضع على مفارق الشعر ومنابته بعد تحضيرها وعجنها بماء الشاي المغلي الداكن. يقال [يُحشى الرأس بالحنّاء] ثم يصبغ الشعر كلّه، ويترك لساعات عديدة، فيتخذ الشعر لونه الجميل، الخمري الداكن، وهو من أجمل الألوان الأصيلة في العالم.. وإتقان اللون يكون في موازنة اللونين، الأحمر والأسود.. للحنّاء.

حَسَنٌ.. الحنّاء صباغ جميل أفاض على الشعر منظراً براقاً ناعماً وشابّاً.. ولكن!! ما السبب في دبغ باطن اليدين والقدمين وبعض الوجه؟ ومن أين أتت هذه العادة؟؟

النظرة العادية.. تنبئنا أن الحنّاء يوضع على راحات الأيدي، وباطن الأقدام لسببين مثاليين هما : التجميل والاستطباب.

والسبب الطبّي واضح.. فالمعروف منهجياً، وخبرةً أنّ أوراق الحنّاء تستعمل ضد الفطور الجلديّة. وإن عصير هذه الأوراق مطهر وملوّن.. كذلك تستعمل الأزهار للسبب نفسه. وبما أن الأقدام في البوادي والصحاري معرضة للتشققات ولدخول الجراثيم.. وبما أن الأيدي معرضة للعلل نفسها جراء الأعمال الحقلية والمنزليّة الشاقة.. فقد استعمل الحنّاء دواءً معالجاً، وواقياً من آفات الراحات وباطن الأقدام والمعروف بديهة.. أن الحنّاء يحوي مادة صابغة، فيستعمل مطحوناً في الصناعة والصباغة.

أمّا العلاج بالحنّاء.. فلأسباب شتّى منها:

١- تحنى الراحتان وباطن القدمين علاجاً لمن به تعرّق في راحتيه أو قدميه.. وتعرُّقُ القدمين قد يؤدي إلى تفسخات جلدية تنطلق منها الروائح الكريهة.

٢- لهذا.. تُحنى القدمان لإزالة رائحة الأقدام التي تزعج الكثيرين من المحيطين بالشخص المصاب.. بخاصة عند عدم وجود الماء، وعدم توافر شروط النظافة.

٣- تُطلى الأظافر بالحنّاء الأسود زينة وعلاجاً لكل الأمراض التي تصيب الأظافر وأهمها تشققات الأظافر.. وتسمّى هذه العملية «القروض».

٤- أمّا علاج تشققات الأظافر.. فقد كان الحنّاء قديماً يلعب دوره الفعال في شفائها.. وكان الدواء عبارة عن «مرخ» مؤلف من القطران والحناء يجبلان معاً ويوضعان على الأظافر المريضة فيزول تشققها.

وعن «أم سلمة» أنها قالت: «إنّه كان لا يصيب رسول الله ﷺ قرحة ولا شوكة إلّا وضع عليها الحنّاء». فإن القرحة علاجها بما يخفف عنها الرطوبة كي تتمكن القوّة من إنبات اللحم فيها.. والحناء يفعل ذلك. وأمّا

عن الشوكة، فإنّ في الحنّاء مادة محللة ترخي العضو، فتعين على خروج الشوكة.

و«ليلة الحنة» تدبغ فيها راحتا العروس وباطن قدميها.

قال الموفّق عبد اللطيف: لون الحنّاء ناريّ محبوب، يهيّج قوى المحبّة، وفي رائحته عطرية.

وكي تكون رائحة العروس مُستحبّة.. تحنّى بالحنّاء، زينة وتعطراً.. فضلاً عن أن الحناء يهيّج قوى المحبة.. فهو يُحرّك قوى الشباب.. ويُعطي جمال صورة، فيقرّب الحبيب إلى حبيبه.

الحناء إذن: للزينة!! للعلاج!! لكلّ بنات البادية!! للحلوات الريفيات!! للمصريات!! للسودانيات! لبنات الحقول! الحناء معهن يتربع على عرش الصّحة.

فما السّر الحضاري الدفين الموجود في الحنّاء؟؟

قديماً كان الفراعنة يستخدمون الحنّاء في التحنيط، ولربما جاء اسمه من ذلك «حنّا» وألغيت «الطاء» مع تطوّر اللغات..

وفي «صرة الميت» أي ضمن مجموعة العطورات التي يهيأ بها الميت للدفن يكون «الحناء» وتُحنّى رؤوس النساء دون رؤوس الرجال بعد الموت.

فهل يقترن الحناء مع شيء مجهول؟. يقترن مع الذاهبين إلى المجهول؟!

هنا يمكننا الانسلاخ نحو الزمن الوثني القديم.. وقد كانت فكرة عبادة الأوثان مقترنة مع فكرة القربان.. وظهر ذلك واضحاً في كلّ الحضارات القديمة.

وفي البداية، كانت القرابين بشرية!! ثم تغيّر مفهوم القربان، وأصبحت الأضاحي تعتمد على الحيوانات الداجنة والخراف، وحتى

الحمام [كما كان يحدث في هيرا بوليس في يوم المحرقة إذ كان الحمام يرمى في النار قرباناً] وكانت العادات تعتمد على تلطيخ الأكفّ بدم القربان.. (ولربما الأقدام أيضاً) لتطبع الأيدي المدماة صورة الكفّ المدماة على شيء معيّن. وبقيت هذه العادة إلى يومنا هذا عند تقديم الأضاحي لدى شراء بيت جديد أو سيارة أو غير ذلك.. فتتمثل لنا فكرة «الفدو».

وكثيراً ما نشاهد مَنْ يتقدم إلى دم الضحية بعد ذبحها، فيلطّخ كفيّه بالدم الساخن، ثم يلطخ حائط المنزل بهذا الدم أو زجاج السيارة، ليبقى اللطخ مدّة طويلة لا يُزال.

وكلّنا.. كشرقيين.. نعتقد أن للبيت «قدوم».. وللمحل التجاري «قدوم» لذا نتفادى القدوم السيئ بتقديم القربان.. ومن ثم بتوزيع هذا القربان على المحتاجين الذين لا يملكون ثمن اللحم.

فما شأن الحنّاء بالقرابين القديمة.. وبالأضاحي؟؟..

أحياناً.. تنعكس نمطية التفكير في التوجّه التاريخي.. فتنقلب المفاهيم إلى الضد!! ففي مصر.. وعند فيضان النيل كانت تقدم أجمل فتاة في «ممفيس» لتكون قرباناً للنهر العظيم كي يسكن روعه، وتخف شدّة مائه.. وتكون الفتاة في كامل الزينة، مرتدية أحلى الثياب وأزهاها.. وكان المُعتقد القديم، أن النهر لا يكفّ عن فيضانه ويتراجع عنه إلّا إذا قدّم هذا القربان المحزن.

والضحايا البشرية.. تكون منتقاة من أحسن الناس.. وأجملهم.. وأنبلهم!!

وفي الموكب المهيب، يتقدم الكهنة الحليقو الرؤوس.. والفتاة العذراء محمولة في عربة ملوّنة.. والنهر ينتظر، لا تسحقنا أيها النيل، وترأف بنا.. ها نحن نرمي إليك بأجمل ما لدينا من خير! وأحلى ما عندنا

من عذارى! عسى تتغلّب فكرة الخير على فكرة الشرّ الموجودة في فيضان الماء الساحق.. فيخفّ ويجلو عن حقول مصر.

وبدل أن يدبغ الناس أيديهم بدم القرابين.. تُدبغ يدا الفتاة القربان، وتدبغ قدماها.. ويزيّن وجهها.. بالحنّاء.. الحناء.. الذي يعادل دم الضحية!!

والأضحية البشرية بحدّ ذاتها.. تكون هي القربان.. فتختلط الأمور في تسلسلها الحضاري.. وتنقلب إلى الضد.. ولا تعرف نساء وادي النيل القديم أيصرخن؟ أم يزغردن.. فتصدر منهن أصوات لا يمكن أن تكون عويلاً.. وليس من اللازم أن تكون فرحاً.. ويتمثل لنا قول المعري الفيلسوف.. بأن صوت النعي شبيه بصوت البشير في كل ناد!!

يفتح الموج أشداقه ويبتلع الخير والصبا والجمال ضمن طيّات النيل.. وتموت العذرية والصباحة؛ في سبيل راحة هيجان النيل، الذي لم يكن قادراً على التفريق بين حكم الطبيعة وحكم المعتقدات..

وبعد ساعات.. ينحسر الفيضان.. فيعم البِشْرُ والسعادة. ويغمر الخصب أرض النيل القديمة بالطمي الأسود وتبقى الأمّ باكية.. دمعها وسعادة الآخرين سواء فقد أخذوا ابنتها عروساً مقدّسة للنهر، فللجمال ثمنه! وللخير ثمن!

ومع تطور العصور قد أصبحت «عروس النيل» مجرد دمية ترمى في عيد «شمّ النسيم» فقد استيقظ الضمير الجماعي للبشر، بواسطة الحضارة! واسُتهجنت فكرةُ القرابين البشرية وعاد التفكير التاريخي للناس العاديين فاختلط من جديد..

انسلخت فكرة «القربان للنهر» وبقيت فكرة «العروس» التي تُزَفُّ لزوجها فتُلطّخ يداها وقدماها بالحناء يوم الزفاف.. ليلة لقائها [بالحياة] والحياة.. قد تعني منعكس فكرة [النهر القديم].

تُصبح العروس قرباناً.. مُحنّى اليدين.. قرباناً مُهدى.. بديمومة سعيدة غير مأساوية للرجل.. النهر.. الذي يَضُمها ويعانقها بين أمواجه.. فيحفظها ولا يُتلفْها.. ويختلط مفهوم الحياة.. بما كان مفهوماً عن الموت!!

إنها [ليلة الحناء].. [ليلة العروس في وادي النيل] الليلة.. التي نقلت الحنّاء إلى كل بلاد الشام..



العرب والحنّاء

لقد عرفت العرب الحناء.. واستوردته من إفريقية ومصر.. ثم زرعته في ممالكها الخِصبة.. وعُرف عن العرب.. نساء ورجالاً.. أنهم كانوا يخضبون رؤوسهم لمنع الشيب من الظهور!! «ما من شجرة أحب إلى الله من الحناء» كما في الحديث غير المسند.

وروى البخاري قال: ما شكا أحد إلى رسول الله وجعاً في رأسه إلا قال احتجم.. ولا وجعاً في رجليه إلا قال اختضب بالحنّاء.

وعن أبي رافع: عليكم بسيد الخضاب الحنّاء.. فهو يطيّب البشرة.

وكان الرجال يخضّبون كما النساء. فقد عرف عن «أبي بكر» و«عمر» و«أبي عبيدة» أنهم كانوا يتخضبون.. كما عُرف عن «ابن سيرين» و«محمد بن الحنفية» ذلك. وكان «ابن عمر» يُصفّر لحيته وقال: رأيت النبي ﷺ يصفّر لحيته. وفي صحيح البخاري أنّ أم سلمة أخرجت إليهم من شعر الرسول ﷺ فإذا هو مخضوب بالحنّاء والكَتَم.

وقال أنس رضي الله عنه: رأيت شعر رسول الله مخضوباً.

وقد روى أبو هريرة عن الرسول ﷺ: «غيّروا الشيب، ولا تتشبهوا بأهل الكتاب». [حديث صحيح].

وقال أحمد بن حنبل: تخضب ولو مرّة واحدة، أحبّ لك أن تخضّب ولا تتشبه باليهود.

وقالت العرب قديماً: إن الحناء بارد يابس..

- فيه حرارة تنفع من قروح الفم.. ومن القلاع.. ومن الأورام الحارّة.

- وإنّ ماء الحنّاء.. مطبوخاً.. يفيد في قرح النار!

- وإن خضاب الحنّاء يحمّر الشعر ويحسنه.

وقيل: - (إذا أصاب رجل جُدَري في أوّله.. وخُضبت رجلاه بالحنّاء، لم يصب الجُدري عينيه..) وهذه الوصفة مجربة قديماً.

في البيئات الجافة ونصف الجافة.. في المناطق الدافئة والحارّة والمعتدلة.. وفي حوض البحر الأبيض المتوسط.. في الصين.. في الهند.. وفي مصر والسودان. والجزيرة العربية تنمو شجيرات الحناء.. بنَوْرها الأبيض المرقّش بالحمرة هذا (النَوْر) إذا وضع بين الثياب الصوفية حَسّن رائحتها ومنع عنها (العُثّة).

- ومن الاستطبابات الشعبية أن مسحوق أوراق الحنّاء مع شيء من ورق الآس يعجنان بالخل.. ويوضع المزيج على الورم بشكل لبخة عدة ساعات..

- لمداواة الحزازة: مسحوق الصبرة + مسحوق الحنّاء + مسحوق لُبّ فستق البان.. يُعْجن المزيح بالخلّ ويُطلى به الجلد كل يوم فيزول الحزاز.

- الخضاب بالحناء: عن أبي ذرّ ﵁ عن رسول الله ﷺ: إنّ أحسن ما غيّرتم به الشيب الحنّاء، والكَتَم، وبكرة السواد.

- وكانت نساء البلاد الشامية، يضفن (المردكوش) إلى الحناء لتطيبَ رائحتها.

- وهو مُدر للبول: فالحنّاء مدرّ للبول.. يُفتت الحصى.. لكن يُسقط الأجنة [داوود الأنطاكي]

- وعند صبغ الجلد بالحناء.. يصبح البول ملوناً مما يدل على امتصاص الجلد للحنّاء.

ولقد جاء في كتاب الرحمة في الطبّ والحكمة عن تخضيب الشعر بالحناء:

١- يحضر الحنّاء المطبوخ.. ويُضرب بالماء حتى يُصبح رقيقاً.. ويؤخذ عنب أسود. ثم يجعل الماء والحنّاء في إنبيق ويقطّر.. فيُخضَّبُ به الشعر الأبيض ثلاثة أيام متواليات.. فيصبح أسود اللون.

٢- خمسة دراهم من **العفص الرومي** تُغلى على النار. درهمان من **ورق الحنّاء**.. درهم **نحاس محروق**.. ثُمنُ درهم **ملح طعام**..يسحق الجميع سحقاً جيداً.. ثم يُصب قليل من الماء.. ويُخضب به الشعر.. وبعد التخضب **يغطّى بورق السلق**.. فيسوّد الشعر.

سُمّي الحناء الفاغية.

وسُمي: القطرب.

أمّا تخضيب اليدين والقدمين.. فقد انقرض في الحَضر، وما زال موجوداً في الأرياف.. وأمّا استعمال الحناء كصبغة للشعر فما زالت هذه الصبغة الشعبية متربعة على رؤوس ملايين النساء في العالم.. متحديّة عنصر الكيمياء.. والملونات الصنعية.

❀ ❀ ❀

■ العناصر الفعّالة في الحناء:

لاوسون LOWSONE هيدروكسي نافطاكينون HYDROXY NAPHTHAQUINONE- مواد عفصية، حنّاء HENNE تانين TANIN.

العناصر الموجودة في زهر الحناء: مواد راتنجية RESINE، زيت عطري HUILE ESSENTIELLE M. GRASSE، مواد دسمة.

ألفا وبيتا أيونون IONONE ALPHA ET BETTA.

وهنا العجب العجاب، لأن أيونون ألفا بيتا هي مجموعة من الكهارب.

نتساءل أيضاً.. بعد كل ما ذكرناه عن الحنّاء.. لماذا كان القدماء يهتمون به!.. ولماذا يخضّبون راحاتهم وباطن أقدامهم؟؟

فالحناء: زركشة القدماء.. وخضاب الماضي والحاضر والمستقبل.. وعلاج للأمراض.



صورة شعبية في حمّام السوق

(الأميّم) كما تدعوه العامة في بلاد الشام.. هو (القَمّيم) أي الموقد الكبير الذي توقد فيه مجموعات الفحم والخشب والقنّب والنشارة الخشبيّة لإيقاد «حمّام السوق».. لإيقاد بيت النار. أسرع العمال الفتيان.. بوضع القنّب المحمول إلى الحمام بوساطة الحمير الريفية التي تصل إلى المدينة في الفجر الباكر.. وكانت أرضيّة الحمّام البلقاء أو الرخامية تبدو حارّة شديدة الحرارة.. ويظهر داخل الحمام غَبِش كأن البخار المنتشر فيه كان يعطيه صورة شبيهة بالوهم.. فالداخل إلى المقاصير كان كمن يدخل في حُلُم..

حصّةُ الصباح كانت للسيدات.. منهن الولّادة في حمام فسخها.. ومنهن التي أحضرت أطفالها فأجلستهم قربها.. كلما انتهت من واحد تسلّمت الآخر، شرط ألّا يتعدى الذكور عند دخول «حمام النساء» السابعة من العمر..

ومنهن الكثيرات.. الكثيرات اللواتي أحضرن معهن الحنّاء لصبغ شعرهن.. أمّا الكبيرات في السن فكن يفضلن استعمال الحناء الأحمر اللون.. أما الأصغر فكنّ يستعملن خليط الحناء الأحمر والأسود.. وعملية خضاب الشعر - عملية معقدة، حيث يغلى الشاي طويلاً حتى يصبح ماؤه داكن اللون، ثم يعجن مع الحناء الإسود والأحمر [أوقيةٌ شاميّة من كل نوع].. ثم يوضع المزيج في وعاء الفخار، ويغطى، ويوضع ليتبخر فوق (بيت النار) أكثر أمكنة الحمام حرارة. وبعد ساعتين.. يوضع الحناء على الرأس ويُلَفُّ الرأس بورق عازل [أوراق السلق قديماً وحديثاً أوراق القصدير]. وتبقى السيدات في الحمّام لمدة ساعات.. يتسامرن.. والحناء

على رؤوسهن.. حتى تنتهي المدة المحددة اللازمة للتخضيب، فتتم عملية إزالة الحناء ثم الاستحمام بالماء الشديد الحرارة..

العمال الفتيان.. ما زالوا يوقدون (الأميم) ونساء يخرجن بمجموعات من «حمّام السوق» مرخيات أنقبتهن السوداء.. وتحت هذا النقاب.. كانت تختبي وجوه صبيحة مشرقة مُحْمَرّة.. وشعور ناعمة مصبوغة بلون خمري مسوّد محيّر..

طوبى لحنّاء الجمال.. حنّاء القديم والحديث.. حنّاء العلاج.. وحنّاء الحضارة.



مع صباغ العصفر

■ كيف تستخرجين صباغ العصفر في بيتك؟

زهر العصفر صغير منمنم.. فهل تريدين استخراج صباغك الأحمر منه أيتها الشرقيّة؟ لن ندلّك.. فأنت تعرفين.. والعصفر تسحقين، ولقد رأيناك تضعينه في مشاقة رقيقة من الشاش (الكتان الناعم) ثم تربطين فم مشاقتك الكتانية **كيلا تتكلّم.. كي تكتم سرّ العشق ذي اللون الأحمر** .ورأيناك تضعين مشاقتك العصفرية تحت خيط رفيع من الماء.. يسيل فوقها.. يتخلّلها.. يتعشقّها.. ثم يأخذ ما يأخذ من ألوان العصفر المسجون لينحدر إلى وعاءٍ منصوب تحت المشاقة فإذا به السائل الأحمر الرائع غير الثابت..

ورأيناك تضيفين شيئاً من كربونات الصوديوم التي تدعوها الشرقيّات (كَربولا) عندئذ ينحلّ اللون الأحمر تماماً **ويرسب كأغنية تحت الماء..** والغريب في الأمر.. أنك اكتشفتِ ضرورة وضعِ قليل من **(حمض الليمون) لتؤكدي ثبات لونك الأحمر** ..صباغك المُعُصْفر.. الصباغ القديم.. الذي عرفته حضارات بلاد الشام والرافدين والذي **أولع به الخليفة العباسيّ المتوكل** ..فجعل كلّ ما حوله معصفراً.. ذات يوم..



الزيوت والدهون





الزيوت والدهون

الزيوت والدهون
في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام

- **زيت الزيتون**: أرقى أنواع الزيوت.. يستعمل للأكل والدهن والتطيّب.
- **السليط**: وهو زيت السمسم، أو كلّ دهن يُعصر من حَبّ.
- **الكاذى**: شجر يشبه بالنخيل في اليمن.. يُصنع من طلعه الدهن، يقلع قبل أن ينشق، ويُلقى في **الدهن** ..ويُترك حتّى يأخذ الدهن ريحه وطيبه.
- **الغار**: شجر له حمل أصغر من البندق أسود اللون.. يقشّر.. وله لُبّ يستخرج منه الدهن.. أمّا ورقه فطيّب الريح يقع في باب العطر. وتستعمل ثمرة الغار في الأدوية. وغالباً ما تستصبح العرب «بِدهن الغار».
- **الشوع**: استخرج الناس من الشوع (دهناً) والشوع هو شجر البان ويكثر في الجدبِ وقلّة الأمطار.

- **زيت مُقَتّت**: يدعى الزيت مقتتاً، إذا غلي بالنار، ومعه أفواه الطيب.
- **دهن مُقَتّت**: وهو قضيب طُبِخ، وفيه الرياحين أو خُلِط بالطيب.
- **والتقتيت**: جمع الأفاويه كلّها في قِدر وطبخها.
- **الشوح**: يستخرج منه زيت التربنتين.
- **اللَّكْ**: في منزلك في خيمتك في دارك.. ترمين جلود الأبقار والماعز.. مصبوغة باللكِّ.. وعند غروب الشمس تجلسين قبالة بوابة الغروب وألوان الطنافس تعكس جمالاً حولك.. حيثما كان[1].

التحويل إلى زيت ودهن

عَصَرنا كثيراً في المعاصر القديمة.. عصرنا كل ما له دهن أو زيت أو عسل - بدأنا العصر باليد.. ثم عصرنا مع أبناء شعبنا بالمعاصر.. عصرنا العنب، لكننا لم نتجمل به.. فقد عصرنا في المعاصر، وهي ثلاثة أحجار يعصر بها العنب. وعصرنا الكثير لشرابنا.. لدوائنا.. ولاستخراج الدهن المعصور -. لكننا استعملنا الزيت المعصور لِلُب الزيتون المشبع بالزيت.. ادّهنتِ به.. يا امرأة الشرق.. مسحتِ به جلد بشرتك الجاف.. وثنيات وجهك.. استعملتهِ دواء.. وفي الماضي البعيد.. ادَّهَنَ الملوك قبل الميلاد بالزيت.. وكان طقس الادّهان بالزيت مترافقاً مع حصاد القمح ومع هيبة الملك.. ويسمى الزيت (السليط) عند عرب شبه الجزيرة.

زيت السُمْسُم : أمّا أهل اليمن.. فيدعون (دهن السمسم) سليطاً وتدعوه بلاد الشام **بالسيرج أو الشيرج**، وهو قديم عتيق كعتق الحضارات

(١) المعلومات من: تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ٥٣١-٥٣٤.

الكتب

الكحل

الكذب

الكرامة

الكرب

الكسب

الكعبة

الكفارة

الكفر

الكلام

الكلمة الطيبة

الكي

الكيل

اللباس

مستخلص

كتاب في جزأين، يجمع إلى أصول الإيمان والإسلام الأخلاق الإسلامية، عدَّد منها المؤلف ما يزيد على سبعين أصلاً من القرآن والسنة.

اشتملت هذه الأصول على الإيمان بالله عز وجل، ومعاني أسمائه وصفاته، والإيمان بالرسل، والملائكة، والكتب المنزلة، وبالقدر، وباليوم الآخر، وبالجنة والنار. ومن الأصول محبة الله تعالى، والخوف منه، ورجاؤه، والتوكل عليه، وحب النبي ﷺ، وتعظيمه، والحرص على الدين، وطلب العلم، وتعظيم القرآن. ومنها الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والاعتكاف، والحج والجهاد، والرباط، والثبات أمام العدو، وأداء خُمس المغانم للمصالح العامة. ومنها السعي لتحرير العبيد، وكفارات الجنايات، والوفاء بالعقود. ومنها التحدث بالنعم الإلهية، وحفظ اللسان، وكف اليد عن الأموال والأنفس.

ومنها الامتناع عن المطاعم والمشارب المحرمة، وترك الألبسة والزينة من الحرير والذهب للرجال، واجتناب الملاهي الضارة، والعمل على الاقتصاد بالنفقة، والتطهر من الحقد والحسد، والكف عن تناول أعراض الناس، وإخلاص العمل لله وترك الرياء والسرور بالحسنة، والاغتمام بالسيئة، والتوبة بعد الذنب، وتقديم القرابين لله. ومنها طاعة أولي الأمر، والعمل لما عليه جماعة المسلمين، والحكم بالعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى. ومنها الحياء، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وحسن الخلق، والإحسان إلى الخدم، وأداء حقوق الأولاد والأقارب، ومودة أهل التقى، وإفشاء السلام ورده، وعيادة المرضى، والصلاة على الميت، وتشميت العاطس، والبعد عن الفاسدين، وإكرام الجار والضيف، والستر على العصاة. ومنها التحلي بالصبر، وبالزهد، وقصر الأمل، والغيرة، والإعراض عن اللغو، والسخاء، ورحمة الصغير، وتوقير الكبير، والإصلاح بين الناس، وحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه.

وختم المؤلف كتابه في وصف الجنة والنار. ثم ألحق به فهارس تفصيلية وكشافات هامة.

Abstract

This book appears in two volumes. In addition to the fundamentals of faith and Islam, it reviews the Islamic morals, of which the author mentions more than seventy roots from the Holy Qur'an and the Prophetic Tradition.

These roots cover the belief in Allah, the Great and the Almighty, in the meanings of His Names and Attributes, in the messengers, angels, scriptures; fate, the Hereafter; Heaven and Hellfire. They also cover the love of Allah, the All-High, the fear from Him, being hopeful about His mercy and depending on Him; the love of the Prophet (pbuh), glorifying him, caring about the religion, seeking science, glorifying the Qur'an, purification, prayer, the ritual charity, fast, seclusion in the mosque, pilgrimage, striving (Jihad), guarding in the Cause of Allah, keeping steadfast before an enemy, performing the five prayers, offering one fifth of the booties for the general welfare, endeavoring to emancipating slaves, expiating felonies, fulfilling contracts, admitting the divine blessings, preserving the tongue and desisting from others' wealth and souls.

Other roots are abstaining from unlawful foods and drinks, quitting silk and gold clothing and ornaments as for men, avoiding harmful diversions, economizing on expenditure, purification from grudge and jealousy, desisting from slandering people's honor, faithfulness to Allah in deeds, quitting dissimulation, getting pleased by good deeds and depressed by evil deeds, repenting after committing a guilt, offering sacrifices for Allah, obeying native rulers, following what the majority of Muslims have agreed upon, giving just judgements, enjoining good and forbidding evil, cooperating for righteousness and piety, modesty, doing good to parents, keeping kith and kin relations, good morals, doing good to servants, giving children and relatives their due rights, being intimate with righteous people, greeting people and returning their salutations, visiting patients, performing prayer for the dead, praying for the one who sneezes, averting corrupt people, entertaining the neighbor and the guest, concealing the deeds of the disobedient, assimilating patience, asceticism, reducing hope, jealousy, averting diversion, generosity, having mercy on the young, showing respect to old aged people, reconciling people and loving for others whatever one loves for one's own self.

The author concludes his book by describing Paradise and Hellfire, and then he appends detailed tables of contents and significant indexes.

تراجم

ر

رُمّان

ز

زرنيخ

زعفران

زنبق بلدي (زنبق الفبروس)

زنجبيل

زيت جوز الهند (نارجيل)

زيت السيرج (زيت السمسم)

زيت الخروع

زيت الزيتون

زيزفون

س

سرو

سمّاق

سنط (طلح، أكاسيا)

سنط عربي

ش

شاي

شب يماني (الشبّة)

شمّام

شوكية (اسم عشبة شعبية)

ص

صبار مكسيكي

صبر

صعتر (زعتر)

صمغ عربي (أكاسيا بريّة)

صمغ الكثيراء (كينا ليموني)

صندل

ط

طحينة (زيت السيرج، عرق الحلاوة، ناطف)

طلق (تالك)

ع

عروق الصباغين

عصل

عصفر

عفص

عود

غ

غار

ق

قرنفل (التابل)

قنا (وشق)

ك

كحل

كريصة قد تكون (قريّصة)

كزبرة

كلس

كوسا

.....

ل

لبن

لوز

ليمون

م

مُرّ (صمغ يستخرج من شجر المُرّ الحجازي)

مريمية (قصعين)

مريمية صلبة

محلب

مردكوش

مستكة

ن

نعناع

نيلة

هـ

هندباء بريّة

و

ورث (مخلّدة)

ورد

ي

ياسمين

المصادر

- القرآن الكريم.
- على هامش السيرة، د. طه حسين.
- أطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر - دمشق.
- مختصر الجامع في السيرة النبوية، سميرة الزايد، ج١.
- الأحاديث الشريفة.
- أحاديث الأئمة.
- موسوعة تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، الطبعة الأولى، ١٩٧١م.
- الفن الإسلامي ورعايته، كنوز من الكويت، دار الصباح، إشراف إيسن آيتل.
- صحيح البخاري - شرح الإمام النووي، تحقيق د. مصطفى ديب البغا
- رباعيات الخيام، ترجمة أديب التقي ١٣٣٣هـ/ ١٩٠٩م، انتشارات شركة ساي (تحرير إيران) طهران.
- رحلة الحج من حلب وبر الشام إلى بيت الله الحرام، جريدة تشرين، فيصل خربش، دمشق ١١/٣/٢٠٠٦، عن وصف لإليزابيت بورتن.
- المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي المحلي، أحمد أبو الفتح، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي.
- سورية، ذكرى وحضارة (بالفرنسية) SYRIE. Memoire et civilisation، مؤسسة فلاماريون Flamarion.
- نخب الذخائر في أحوال الجواهر، الأنصاري السنجاري (ابن الأكفاني)، تحقيق الأب أنستاس الكرملي.

- تاريخ الدولة العليّة العثمانية، محمد فريدبك المحامي، دار النفائس، تحقيق د. إحسان حقي، ٢٠٠٣.
- موسوعة اللاروس باللغة الفرنسية، Larousse، ١٩٧١.
- كتاب الجهاد في السير.
- الحقائق والرقائق.
- أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام، تعريب قاسم طوير، مطبعة عكرمة، دمشق ١٩٨٩.
- رسائل الأميرة زينب الحسنية إلى الرائدة الشامية، ماري عجمي، د. سهام ترجمان، وزارة الثقافة ٢٠٠٥.
- فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي، شرح د. ياسين أيوبي، المكتبة العصرية.
- عن الإنترنيت (خشب الصليب المقدس وإكليل الشوك)، جان لوك دوبار.
- إيبلا ثقافة وحضارة، ترجمة: أ. ش شيفمان
- الموسوعة الفرنسية للفن، لوحة الربيع ١٤٧٨م، فلورنا / بوتشيللّي، الموسوعة الفرنسية عن الفن.
- كتاب الملوك [الشاهنامة] Le Livre Des Rois، للفردوسي، باللغة الفرنسية المترجمة عن الفارسية، مؤسسة (سندباد SINDBAD).
- حضارة العرب.
- حيوانات وطيور بلاد الشام من النقب إلى حلب، منشورات الجمعية الجغرافية الفلسطينية، ضبط وتقديم غسان سبانو، ١٩٨٣.
- تاج العروس، الإمام الزبيدي.
- هذيان هرّ مصاب بالاكتئاب، نادية الغزي.
- تموّز، أنطون مورتكات، تعريب: توفيق سليمان.
- أغاني اللانداي (الشعر الشعبي لنساء البشتون)، سعيد بهو الدين مجروح، ترجمة: جميل صلاح، دار الانتشار العربي.
- زوجات الفراعنة، ليونارد كوتريل.
- مجتمع أوغاريت، أ. شيفمان، ترجمة غسان ميخائيل إسحاق، دار الأبجدية.

- ورد الشام، العماد مصطفى طلاس، دار طلاس.
- المعجم الطبي النباتي، العماد مصطفى طلاس، دار طلاس.
- أسرار بابل، ف. أ. بليافسكي، ترجمة توفيق فائق نصار، دار علاء الدين، ط١، ٢٠٠٦.
- أميرات لبنانيات، كرم بستاني، دار مارون نظير عبود، لبنان - بيروت.
- الغذاء لا الدواء، د. صبري القباني.
- المرأة من خلال الآثار السورية، منشورات الاتحاد العربي السوري، دمشق.
- لسان العرب، العلامة ابن منظور، دار لسان العرب، بيروت، إعداد وتقديم يوسف خياط، نديم مرعشلي.
- الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، مطبعة التقى.
- هارون الرشيد، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر.
- HEALING- CRYSTALS AND GEMSTONES، د. فلورا بيشيك، جيزيلا شرايبر.
- أمثال المرأة عند العرب، دار الكتاب الجديد، لبنان - بيروت.
- الحياة الاجتماعية عند البدو في الوطن العربي، د. زهير مشارقة، دار طلاس، ١٩٨٨.
- نفح الطيب، المقري.
- مجلة التراث العربي، د. أحمد طعمة حلبي، عدد ١٠٢.
- الموسوعة الإسلامية الميسرة.
- جامع الأصول، ج٥.
- الأحجار الكريمة، مكتبة لبنان، المرجعيات، كتب الفراشة، بالتعاون مع شركة دورلنغ كندر سلي.
- مهمات سياسية ودبلوماسية وخفاياها السرية، د. عبد الله فكري الخاني، دار النفائس.
- جريدة تشرين، خاتم تتويج نابليون، عدد ٢/ ٣/ ٢٠٠٥.
- Syrie. une patrimoine inedicte، معهد العالم العربي، باريز، فرنسة، ١٩٩٥م.
- حكايا صلصالية لنساء ميتات [قصة نساجة ماري] عن وثائق وألواح ماري، نادية الغزي.
- عاصمة العاصي.. فنون وآثار مملكة قطنا القديمة، التعاون السوري الإيطالي.

- (إيبلا) (عبلا).. الصخرة البيضاء، باولو ماتيته، تعريب قاسم طوير.
- البداية والنهاية، لابن كثير.
- تاريخ الموصل، د. عادل البكري - بغداد.
- ليالي الياسمين (من الغزل الهندي) ترجمة: شعبان أحمد مروة، دار الانتشار العربي.
- أسواق العرب، محمد عرفان حمور.
- يا مال الشام، د. سهام ترجمان، مطابع ألف باء، الأديب - دمشق.
- المستطرف في أخبار الجواري، الحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق د. صلاح المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت - لبنان.
- صحيح مسلم، شرح الإمام النووي، تحقيق د. مصطفى ديب البغا.
- Syrie. une patrimoine inedir، معهد العالم العربي، باريز.
- قَطْنا - عاصمة العاصي - فنون وآثار، مملكة قطنا القديمة، فريق التعاون السوري - الإيطالي.
- الطب الشعبي والتداوي بالأعشاب، د. بدر الدين زيتوني.
- أمثال المرأة عند العرب، د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب، بيروت، ١٩٨١.
- دراسات فنية في الأدب العربي، د. عبد الكريم اليافي.
- نزهة الأنام في محاسن الشام، أبو البقاء عبد الله البدري، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان.
- تقويم دائرة الآثار الإسلامية، الكويت، شهر مارس ٢٠٠٦.
- معجم الشهابي، مصطلحات العلوم الزراعية، الشهابي.. الأمير مصطفى، مكتبة لبنان.
- مجموعة من الأثريات، ملك الأستاذ أديب الصيداوي، دار ألف - باء.

فهرس الموضوعات